ساندرا مكى

الملفاتُ السرِّيَةَ للحُكامِ العَربْ

الدار العالمية للكتب والنشر

الملفات السرية
للحكام العرب

تأليف / ساندرا مكى

عرض / عادل عبد الصبور

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إن أريد إلا الإصلاح ماستطعت وما توفيقـــى إلا باللـــه عليه توكلت وإليه أنيب﴾

صدق الله العظيم

"سورة هود : ٨٨"

تمهيد الكاتبة

يمتد العالم العربى – بمفهومه الواسع – من العراق على الخليج الفارسى إلى المغرب على المحيط الأطلنطى ، وينقسم إلى المغرب العربى والمشرق العربى .. وإذا كان الكتاب سوف يتناول المشرق العربى دون المغرب العربى ، فذلك لأن المشرق العربى يعتبر بمثابة قلب العالم العربى من الناحيتين الثقافية والسياسية .

والنقطة الأساسية التى يتمحور حولها الكتاب تتمثل فى "الصراعات الأساسية فى المنطقة والتى تضع شعور العرب بوحدتهم الثقافية والتاريخية فى مواجهة مصالحهم المحدودة والقطرية".. ومن هذا التصادم بين الوحدة والانفصال ينبع تفرد عالم العرب .

ورغم محورية الدور الإسرائيلى فى ديناميات السياسة العربية ، فإن الكتاب ليس دراسة جديدة للنزاع العربى – الإسرائيلى ، وإنما هو استكشاف لعلاقات العرب مع بعضهم البعض من ناحية ، ومن ناحية أخرى برهان على أن السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط قد منيت بالفشل من جراء تجاهلها لمشاكل العرب وهمومهم .. ففى حقبة كرونولوجية معينة كان العالم العربى يطوف كخيال غامض عند أقصى حدود التفكير الأمريكى ..

وفى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن الشرق العربى سوى رمال تبدو بعيدة عن شواطىء الولايات المتحدة بعد القمر .. وعلى الصعيد العالمى كان الانطباع السائد عن العرب أنهم متعصبون يرتدون الجلباب والعمامة ، ويعيشون على تجارة القوافل ويقطنون الخيام .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأت البعثات التبشيرية ، والتى كانت تؤمن إيماناً قوياً بالصليب تجوب كافة أرجاء العالم العربى بأعداد كبيرة وحماس

مقدس حاملة لواء الخلاص لتلك المنطقة من العالم ، والتى كانت ترضـــخ فـــى ظلمات الجهل ، حتى لقد قال "دانيال بليس" عضو الكنيســة البروتســتانتية أمــام مجلس المفوضين الأمريكيين للبعثات الخارجية "إن واجب أمريكا نحو العرب هو التعليم" .. واقتنع المجلس بهذا الرأى وقرر تخصيص أموال لبنـــاء كليـــة علـــى مساحة من الكثبان الرملية المهجورة ، والتى كانت تستخدم كمقلب للقمامـــة فـــى بيروت ، وهكذا دخلت الولايات المتحدة عالم العرب لأول مرة مـــن خـــلال مـــا يعرف بالجامعة الأمريكية فى بيروت .

وقبل العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر بـــدأ الأوروبيـــون الأثريـــاء والأمريكيون الذين أثروا من عائدات الثورة الصناعية الثانية فى الزحف السياحى نحو الشرق خاصة إلى دول مثل مصر ودول الشام ، ولقد كان هذا هـــو عصـــر البراءة الذى كان فيه الفكر الأمريكى لا يهتم كثيراً بالشرق العربى .

وحينما اندلعت الحرب العالمية الثانية اقتصرت الولايات المتحدة فى الشرق العربى على خطوط الإمدادات لهتلر وموسولينى ، غير أن الحرب والزمن غيرا من شئون الأمم ، وكانت الحرب العالمية الثانيـــة هـــى آخـــر مراحـــل إغفـــال الأمريكيين للعالم العربى .. إذ بدأ الأمريكيون الذين كانوا منعلقين على أنفســـهم إبان العشرينات يذوقون طعم الأرباح الخارجية ، وكدولة كانت تقف على أعقاب أكبر توسع اقتصادى فى العصر الحديث شرعت الولايات المتحدة فى البحث عن سبل الاستفادة من احتياطى بترول الشرق الأوسط الذى طالما أغراها كثـــيراً .. وبضربة حظ وبفضل قلة من الرواد الأوائل حصلت شركات البترول الأمريكيـــة على امتياز التنقيب عن البترول السعودى ، حتى لم يأت شهر أكتوبر مـــن عـــام ١٩٤٥ إلا وكانت شركة البترول العربية – الأمريكية "أرامكو" قد اتسع نشـــاطها شمالاً وغرباً .

وقد واكب ذلك انتقال رجال البنوك والتجار وأصحاب الأعمال الأمريكيين إلى مدينة بيروت الجميلة ، ومن هناك انتشروا إلى أسواق لم يكتشفها الأمريكيون من قبل ، ومع حلول عام ١٩٤٨ زحفت المصالح الأمريكية بصورة تشبه زحف الكرمة إلى ذلك الجزء من العالم ، المسمى بالعالم العربى .

وإذا كان لابد من تحديد زمان ومكان لبداية التورط الأمريكى السياسى فى الشرق الأوسط فهو عام ١٩٤٨ فى فلسطين ، تلك الأراضى العربية التى كانت تضم مسيحيين ومسلمين ويهود ، والتى اختفت عروبتها عندما استولت عليها إسرائيل اليهودية عام ١٩٤٨ .. ففى ذلك العام لعبت قوى الحلفاء المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية دور القابلة فى مولد إسرائيل ، إذ طبقاً للرؤية الغربية كان إطلاق سراح بقايا اليهود الأوروبيين الجوعى والمعذبين من معسكرات هتلر يعنى فى أهم محدداته عدالة ست سنوات دامية من الحرب المؤلمة وأن هزيمة النازية قد أثبتت أهمية القيم الغربية المستمدة من التقاليد اليهودية والمسيحية ، وأن أولئك الضعفاء المشتتين الذين توجهوا إلى فلسطين لمشاركة أقرانهم فى إقامة وطن قومى يهودى يجب أن يشهدوا بقوة هذه المبادئ ، وأن سلالة الأمريكيين الذين كانوا يجلسون فى مقاعدهم الخشبية يستمعون إلى كيف هزم الصبى داود العملاق جالوت قد ساهموا فى تحقيق الحلم الصهيونى .

وهكذا بقى اليهود فى فلسطين ، بينما رحل الآخرون بفعل قوة أقوى منهم ، وليس المواطنون الأمريكيون العاديون وحدهم هم الذين لم يفهموا العواقب بل إن حكومتهم أيضاً لم تفهمها ، ومن ثم قامت الولايات المتحدة سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة بدور الراعى أو رجل الشرطة ، والعمل بدافع المصالح الوطنية والمشاعر المجردة إلى إجتناب دولة إسرائيل إليها.

وفى عام ١٩٥٥ ترجمت المهانة التى لحقت بالعرب من إجراء ضياع

فلسطين فى صوت جمال عبد الناصر فى مصر ، والذى جذبت خطبه المتأججة بالمشاعر والحماس ضد الغرب ، والداعية إلى ضرورة تمسك العرب بكرامتهم وقوتهم جماهير العالم العربى من القاهرة إلى بغداد ، وفى السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٦ صاح الرئيس العسكرى والبالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً أمام مائة ألف شخص احتشدوا بميدان الحرية بالاسكندرية "إن قناة السويس ملك لنا" ، وكان ذلك تهديداً بزيادة المسافة التى تقطعها الناقلات المحملة ببترول الخليج ٣٥٠٠ ميل ، كما خسرت بورصة البترول فى لندن ١٦٨ مليون دولار ، كذلك تدهورت قيمة أسهم قناة السويس ، مما عرض الفرنك الفرنسى لانتكاسة حادة ... وهكذا تلقى الغرب أول صفعة من العرب .

ورداً على هذا الإجراء انضمت بريطانيا وفرنسا إلى إسرائيل ، وقامت المقاتلات البريطانية والسفن الحربية الفرنسية بقصف منطقة القناة ، مما أصاب مدينة الإسماعيلية بالشلل التام ، بينما اندفعت الدبابات الإسرائيلية عبر سيناء تلتهم الأراضى المصرية ميلاً بعد ميل ....

وكانت النتيجة أن خسر ناصر معركة ١٩٥٦ ولكنه بالتأكيد كسب الحرب .

وفى كافة أرجاء الوطن العربى علقت صور ناصر الوسيم الباسم ، وانطلق صوته عبر أموج الأثير الى أجهزة الراديو . وتناول العشاء مع "خروشوف" فى الكرملين ، وبحث إنشاء حركة عدم الانحياز مع "تيتو" رئيس يوغسلافيا ونهرو رئيس وزراء الهند .

وبحصول ناصر على أسلحة سوفيتية تقدر قيمتها بمائتى مليون دولار بدأ يذيع صيته ويتعاظم بصورة غير طبيعية ، وأصبح العالم العربى جزءا من الحرب الباردة ، ومكانا حيويا تجرى فيه المناورات الاستراتيجية للقوى العظمى .

وفى شهر يوليو عام ١٩٥٨ ، وتحديداً فى اليوم التالى لاغتيال الملك فيصل

عاهل العراق والذى كان بمثابة الركيزة الرمزية للتحالف الدفاعى الغربى ضـــد الغزو السوفيتى للشرق الأوسط الثرى بالبترول على أيدى بعض أتباع نـــاصر – اقتحمت مشاة البحرية الأمريكية كاملة العتاد والعدة شواطئ بـــيروت الواســـعة ، وللمرة الأولى أقتحمت القوات العسكرية الأمريكية نفسها فى عالم العرب البعيـــد والباعث على الحيرة .

وفى عام ١٩٦٧ تغلبت إسرائيل على قدرة ناصر على إثارة الملايين ضد "الغرب الاستعمارى" وفى غضون ستة أيام تغيرت معالم خارطة الشرق الأوسط سياسياً وجغرافياً ، بينما وقف ناصر "مخلص العرب" أعزلاً من كل شىء ، حيث ذهبت الضفة الغربية للأردن ، بينما ذهب قطاع غزة ومرتفعات الجولان والقدس الخالدة إلى أيدى الإسرائيلين المتعطشين .

ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الأراضى المفقودة هى المركز الجديد للوحدة العربية ، وظهر رمز جديد للعزيمة والإصرار العربى متمثلاً فى شخص الفدائى الفلسطينى ، والذى كان تجسيداً واضحاً للأحزان العربية .

وفى باكورة عام ١٩٦٨ ، أصبح الأمريكيون من الطبقة الوسطى والذيـــن كانوا يسافرون فى رحلات جماعية إلـــى الأراضـــى المقدســـة ، والمواطنـــون الأمريكيون الذين لا يذهبون إلى أبعد من أوروبا فى مهـــب عاصفـــة السياســـة العربية ، وهو ما ظهر جلياً فى مهاجمة بعض الرجال الغاضبين ، والذين كـــانوا يحملون أسلحة أتوماتيكية وقنابل يدوية فى مطار زيورخ الهادىء .. كذلـــك تـــم اختطاف ثلاث طائرات ترفع أعلام الولايات المتحدة وسويسرا وبريطانيـــا فـــى سبتمبر عام ١٩٧٠ ، حيث ربضت الطائرات الثلاث فى مطار مدفون بصحـــراء الأردن تحت درجة حرارة مائة فهرنهيت ، بينما استخدمت أرواح ٤٣٩ راكبـــا كعملة للتفاوض مع من مكنهم الإرهاب من القيام بذلك ، وقد جعـــل المختطفـــون

الملثمون -الذين لا يملكون سوى قوة أعصابهم والأسلحة البسيطة التى يحملونها- الملوك والرؤساء بلا حول ولا قوة ، كما أضحت القوة العسكرية التقليدية محدودة القيمة والهيمنة .. وكان ذلك هو بداية إدراك الولايات المتحدة لحدود قوتها فـــى العالم العربى .

ومع استمرار الفدائيين فى ضرب أهداف واســعة النطــاق فــى الشــرق الأوسط، بدا واضحاً أنه لم يعد هناك أى مكان آمن فى الشرق الأوســط ، ففــى الخامس من سبتمبر ١٩٧٢ ، وقد تهيأت كاميرات التلفزيون لنقل انتصارات أعظم الفرق فى العالم فى دورة ميونخ العشرين للألعاب الأوليمبية دخل رجال ملثمــون القرية الأوليمبية وشقوا طريقهم بسرعة إلــى مقــر إقامــة الفريــق الأوليمبــى الإسرائيلى ، وتم بالفعل ضرب الدورة بواسطة الإرهاب .

وهكذا أقحم العالم العربى -الذى كان يوماً ما بعيداً للغاية- نفسه مباشــرة فى غرف معيشة المواطنين الأمريكيين العاديين .

وفى العام التالى غزا العالم العربى المصالح الاقتصادية الأمريكية ، وغير إلى الأبد علاقة الغرب بالشرق العربى عبر قرار حظر شحن البــترول العربــى للدول المؤيدة لإسرائيل فى ٢٠ اكتوبر عام ١٩٧٣ .. ففى الوقت الذى كان فيــه شيوخ البترول يملأون خزائنهم من جراء القفزة الهائلة فى سعر البترول كــانت الولايات المتحدة تعانى من التضخم الحاد واختناق الأعمال التجاريــة ، وتزايــد البطالة .. حينذاك فقط عرف الأمريكيون بشكل واقعى ما كانوا يعرفونه نظريــا على مدى عقد ونصف من أن ازدهار الغرب الاقتصادى يقع تحت رحمة موردى البترول العربى بعد أن أصبحت آبار البترول الأمريكية عاجزة عن اشباع النهــم الأمريكى للبترول .

وبناء على ذلك لم يكن بمقدور الولايات المتحدة وبقية الدول الصناعية التى

تعتمد على موارد البترول الخليجية السماح لأى قوى مهما كانت بعرقلة الوصول إلى بترول العرب .

وفى عام ١٩٧٩ جاء تهديد امدادات البترول من عناصر إسلامية ثـــائرة ، إذ بعد عودة الخمينى إلى إيران بقرابة تسعة أشهر قـــام أربعمائـــة مـــن الطلبـــة الإيرانيين بمسيرة فى شوارع طهران يهتفون "الموت لأمريكــــا" ووصلـــوا إلـــى السفارة الأمريكية ، أو كما أسموه "وكر الأفاعى الكريه" واحتجزوا اثنين وخمسين رهينة ، وعلى مدى الأيام التالية أصبحت الولايات المتحدة ذاتها رهينة لمشـــاهد ومشاعر لم تفهمها ، فقد خرج التطرف الإسلامى من إيران الفارسية ، وانتشرت فى الجانب العربى من الخليج مما كان يعد نذيراً بفصل الغرب عن شريان حياته.

صفعة قوية أخرى تلقتها الولايات المتحدة فى لبنان مـــن جـــانب العنـــف الإسلامى ، إذ بعد أن كانت لبنان بمثابة سويسرا الشرق ، والنموذج الذى يتمنـــى الغرب أن يكون عليه العالم العربى أصبحت تصور بدقة كافة مواقـــف أمريكـــا السلبية تجاه العالم العربى .. حيث إنه مع حلول عام ١٩٨٢ كانت عودة القـــوات الأمريكية الى الشرق الأوسط - بعد ربع قرن تقريباً منذ أول غـــزو عســـكرى أمريكى للشرق الأوسط - عبر لبنان الذى مزقته الطائفية والكراهية ، وغمرتـــه المنازعات متعددة المصادر (فلسطينية وسورية وإسرائيلية وايرانية) ، ولكن هذه المرة لم ينتشر مشاة البحرية الأمريكية للاستمتاع والاستجمام والتجول فى محال شارع الحمراء ببيروت ولكنهم ظلوا قابعين فى الخنادق يحتمـــون مـــن عـــدو لا يفهمونه ، وفى الثالث والعشرين من اكتوبر تعرضوا لهجوم مـــن جـــانب قـــوة غامضة تطلق على نفسها اسم الجهاد الإسلامى أسفر عن مصرع ٢٤٠ شاباً من مشاة البحرية الأمريكية ، ولم تكن هناك سوى قلة تعرف سبب ما حدث ، كذلـــك لم يكن أحد يعرف سر اختفاء عدة شخصيات منهم صحفيين وأساتذة ورجال دين من شوارع لبنان لكى يصبحوا رهائن تحت أيدى منظمات فوضويـــة تدعـــى أن

لديها تكتيكات سياسية جادة ومتناسقة .. غير أن الحقيقة التى لا يجانبها أدنى شك هى أن الولايات المتحدة قد خنعت لقوى لا تستطيع السيطرة عليها حتى قبل أن تصبح الرهائن أفراداً وجماعات ، وعلى أثر ذلك ، وتحديداً فى السادس والعشرين من شهر فبراير عام ١٩٨٤ حمل مشاة البحرية الأمريكية أمتعتهم على ظهورهم تاركين لبنان والعالم العربى وراءهم ... ورغم ذلك لم تسلم الولايات المتحدة من تداعيات الأحداث فى الشرق الأوسط ، إذ بعد ما يزيد قليلاً عن ثلاث سنوات من ترك لبنان انطلق صاروخان من طراز اكزوسيت من طائرة ميراج عراقية ليصيبا البارجة اس اس ستارك التى كانت تجوب خطوط الملاحة فى الخليج ، تلك الخطوط التى كانت تتعرض لمخاطر الحرب العراقية - الإيرانية مما أسفر عن عودة سبعة وثلاثين تابوتاً ملفوفة بالأعلام الأمريكية إلى الولايات المتحدة قادمين من الشرق الأوسط .

ثم كان اجتياح القوات العراقية للكويت فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ وما نجم عن ذلك من تعرض حقول بترول المملكة العربية السعودية الغنية والتى تسهم بتسعة عشر فى المائة من إمدادات العالم الصناعى للخطر ، وهى الأزمة التى كان يخشاها صانعوا السياسة الخارجية الأمريكية منذ مستهل السبعينات ، ولكنهم هذه المرة كانوا على أتم استعداد لها ، فبعد ستة أيام من غزو العراق للكويت بدأت القوات الأمريكية تتدفق إلى أقصى نقطة مقفرة فى الشرق الأوسط ، وفى شهر يناير عام ١٩٩١ اندلعت الحرب ، وتمخض الانتصار العسكرى المشهود عن سلام منقوص ، وفى شهر أكتوبر التالى نجحت الولايات المتحدة من عقد مؤتمر سلام صاخب جمعت فيه العرب والإسرائيليين على مائدة مفاوضات واحدة ، ووجد الأمريكيون أنفسهم يواجهون عالم العرب ، ذلك العالم الذى لم يفهموه على الإطلاق .

وعلى مدى العقود الأربعة الماضية كانت الولايات المتحدة تدعى إلى

الشرق الأوسط لحماية الحلم الصهيونى ، وتهب لوقف المسيرة الشيوعية سواء إلى قلب الإسلام أو إلى حقول بترول الشرق الأوسط ، وتتورط فى لبنان على اعتقاد ساذج بإمكانية فرض النظام على حرب قبلية ، وتستجدى من أجل الحفاظ على تدفق بترول الخليج ، وفى النهاية دعيت للتصدى للمطامع والعدوان الصارخ، وقد كان العالم العربى يوما ما بعيداً عن الحياة اليومية الأمريكية ، بحيث لم يكن موجوداً إلا فى الصور الفوتوغرافية القديمة ومقالات الكتاب والرحالة عديمة الصلة بالحياة الواقعية ، ولكن العالم العربى لم يعد -اليوم- مكاناً مبهماً يقع فى مكان ما شرق أوروبا ، إنه موجود فى واقعنا الحاضر .

ويعكس حاضر حال العرب أنهم يتنازعهم إحساسهم العميق بوحدتهم كشعب من ناحية ، ومن ناحية أخرى خلافاتهم المستمرة حول المصالح القطرية الضيقة والمتضاربة ، والنتيجة التى تنبثق عن ذلك هى فوضى واضحة يعيش فيها العرب على الدوام ما بين وحدة وانقسام ، ثم وحدة وانقسام .... وهكذا .

إن الزمن والدين والتقاليد كلها عوامل تمنح العالم العربى وحدته العظيمة ، إنها وحدة تربط كل أولئك الذين يعرفون أنفسهم بالعرب فى كيان روحى قوى واحد ، وبهذا المعنى فإن العالم العربى أمة قوية واحدة تتحد ضد كل من يحاول إذلالها ، غير أن هذا العالم يعج بالخلافات والتنافر ، ففى حين أن جزءاً كبيراً من العالم العربى مازال حبيس الزمن والتقاليد ، فإن الجزء الباقى واقع فى شرك التنافس والصراع .

إن المجتمع العربى مجتمع قبلى ، يتكون من عائلات كبيرة يمكن تتبع تاريخها إلى قرون ماضية ، والعائلات التى تندمج فى القرى والمناطق المجاورة تصبح عشائر ، وتتجمع العشائر فى مناطق أو طوائف دينية ، وفى بعض الأحيان فى أحزاب سياسية زائفة ، أو مؤسسات عسكرية تقود العملية السياسية .

والعرب ليسوا مواطنين لدولة قومية وإنما هم أعضاء فى جماعات مستقلة تتنافس بصورة سليمة أو عسكرية كى تصوغ الأمة وفق إراداتها ، ففكرة القومية فكرة غريبة على الحضارة العربية ، حيث أنها أساساً فكرة غربية فرضتها قوى أوروبية على العالم فى القرن العشرين .

ويمكن القول بوجه عام إن العرب قد عرفوا الدولة مؤخراً ، وأتوا إليها بقبيلتهم كاملة ، ومن ثم فإنهم يديرون شئون بلادهم كقبائل إلى حد كبير ، أما عن استمرار بقاء الدول العربية فذلك لأن ثمة رجال أقوياء يربطونها معاً بقوة السلاح والإرادة .

ورجال السلطة هؤلاء الذين تتدافعهم مصالحهم أو مصالح جماعاتهم أو دولهم كما يحددونها بأنفسهم يتنافسون على المستوى السياسى والاقتصادى والنفسى.. وهكذا كان عبد الناصر يناضل فى مصر بالجاذبية الشخصية ، بينما يقاتل الملك حسين عاهل الأردن بالدهاء والذكاء ، ويتحصن آل سعود بقلعة الدين، ويناور حافظ الأسد فى سوريا ، ويطلق صدام حسين العنان للقوة الغاشمة، لكنهم كلهم يواجهون العملية الشاقة لبناء دولة يمكن أن تقوم بعملها فى نهاية القرن العشرين .

وفى الوقت الذى تطور فيه هذه الدول هوياتها الخاصة فإن منافساتها على المصالح تزداد حدة .. ورغم ذلك لا يوجد زعيم عربى أو دولة عربية على استعداد التخلى عن العروبة ، وهى ظاهرة يفهمها العرب وحدهم ، إنه الالتزام العاطفى تجاه الوحدة يقحم نفسه فى كل نزاع ، وكل أزمة فى العالم العربى ..

وعلى هذا الأساس ، فإن العرب موحدون بالمشاعر ، وليس بالأطراف ، إنهم مرتبطون بجهاز عصبى خفى ضخم يوجد خارج هيكل عظمى ، وعندما

يتعرضون من جزء للضغط فإن رد الفعل يمكن أن يحدث فى أى مكـــان آخــر مختلف تماماً .

إن العرب يتحركون بسرعة للأمام والخلف بين عالم الإخــوة وارتـــدادات الخيانة ، وبين الوحدة والصراع ، إن قوى الوحدة بالغة الشدة ، وأسباب الفرقـــة بالغة القوة ، وعناصر الخلاف والوحدة هذه هى التى تقود إلى حالة الغليان فـــى العالم العربى ، ومن خلال إدراك وفهم كل من أسطورة الوحدة وواقـــع الفرقـــة يمكن للولايات المتحدة وعالم الغرب تعلم كيفية العيش مع العرب .

الفصل الأول

عبد الناصر : مُخَلِّص العرب

دخل جمال عبد الناصر ، الابن الأكبر لموظف بالبريد من مدينة أسيوط ، الكلية الحربية فى ١٩٣٧ ، عندما فتحت تلك الكلية أبوابها أمام الطلبة من خارج طبقة الاستقراطية الاقطاعية .. وكان طلبة هذه الدفعة على خلاف على خـــلاف من سبقهم من الارستقراطيين قد خبروا سياسة الشارع المسلمين وانتهاء بالفاشية الأوروبية .. وكانوا جميعاً داخل الكلية الحربية يشعرون بالاستياء والمرارة تجاه النظام السياسى المنحل والفاسد تماماً فى مصر ، من البريطانيين إلى الملك إلـــى العاملين الصغار بالحكومة ، الذين يعيشون فى كنف الطبقة المتميزة .

ومع حلول عام ١٩٥٠ ، كانت مصر ناضجة للثورة ، فقد كـــان ٢٪ مـــن السكان بالغى الثراء الذين يملكون ٥٠٪ من الأراضى الزراعية يـــتربعون فـــوق رؤوس ملايين الفلاحين المعدومين المحرومين ، وبسبب عـــدم قدرتهـــم علـــى مواصلة حياتهم فى القرى ، زحف المعدمون إلى المدن للبحث عن مورد للرزق وتكدسوا فوق بعضهم البعض . وبينما كانوا يحاولون التشبث بوجودهـــم ، كـــان رجال السياسة المصريون الذين يمثلون النظام الحاكم يتنازعون ويدبرون المكائد والدسائس لبعضهم البعض تاركين البلاد بلا قيادة حقيقية .

وفى نفس الوقت ، كان مائتا ألف من الأجانب الذين يعملون فـــى مجـــال الأعمال والتجارة والمال يعيشون كطبقة متميزة فوق أصحاب الأعمال المصريين وعدد متزايد من خريجى الجامعات الذين يجاهدون من أجـــل الحصـــول علـــى نصيب أكبر من الفوائد الاقتصادية المتقلصة . وعلى رأس كل هؤلاء كان يجلس فاروق ، البدين ، الفاسد المنحل – رمزا لكل مصائب مصر .

وهكذا ، أصبحت بلاد النيل فى انتظار فرعون جديد ليطهر مصر من النظام القديم الذى كان يسيطر عليه الأجانب وطبقة الصفوة المتميزة .

وفى عام ١٩٥١ ، بعد خمس سنوات من حصول دول المشرق على استقلالها ، كانت القوات البريطانية لا تزال تحتل مصر . وفى الذكرى الخامسة عشر لمعاهدة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا ، قام رئيس وزراء مصر الوطنى مصطفى النحاس باشا ، البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً ، بلوى ذيل الأسد الاستعمارى حيث طلب من بريطانيا سحب الخمسة وثلاثين ألف جندى الباقين لها فى القناة والجلاء عن مصر . وإتخذ المصريون بريطانيا كرمز ، وتدفقوا إلى الشوارع للتنفيس عن مشاعرهم تجاه الاستعمار وتجاه الحرمان الاقتصادى ، ونجاه العار الذى كانوا يشعرون به بسبب الهزيمة العربية فى عام ١٩٤٨ . ولأن بريطانيا كانت تعتمد على قناة السويس كشريان هام يربطها ببترول الشرق الأوسط ، أصدرت أوامرها إلى قواتها بأن تتهيأ للقتال وإلى الأسطول البريطانى بالتوجه سريعاً من مالطة إلى السويس .

وكان نتيجة ذلك أن انفجر الغضب الشعبى فى مدينة الإسماعيلية الواقعة فى وسط مدن القناة . وقام الجنود البريطانيون فى محاولتهم لاستعادة النظام بالهجوم على نطقة شرطة مسلحة تسليحاً خفيفاً ، مستخدمين الدبابات البريطانية، مما أسفر عن مقتل ستة وأربعين مصرياً . واشتعل غضب مصر كلها ونادت بالانتقام .

وفى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢ ، قامت حشود من المصريين الغاضبين التى انضم إليها عدد من العرب الذين يعيشون فى مصر بالخروج إلى شوارع القاهرة لتدمير رموز بريطانيا بدءاً من أصغر شىء إلى أكبر شىء . فقاموا بتدمير كل حانة تخدم الأجانب ، وبإحراق ثلاثة دور للسينما يمتلكها بريطانيون وأمريكيون . كما أحرقوا بنك باركليز . وقامت الجماهير بالهجوم على

"نادى السباق " وفى النهاية أشعلوا فيه النيران ، وهو الملعب الخاص بالبريطانيين. ولكن أكثر الأهداف تأثراً بهذه الاضطرابات كان فندق شبرد الذى كان يمثل التجسيد الحى للنفوذ البريطانى فى مصر ، ولكنه أصبح ركاماً وأنقاضاً يتصاعد منها الدخان .

بيد أن " السبت الأسود " وهو اليوم الذى قتل فيه إثنان وستون شخصاً ودمرت فيه ممتلكات قيمتها ثلاثمائة مليون دولار ، لم ينجح فى طرد البريطانيين من مصر . وبدلاً من ذلك كان بمثابة مقدمة ملتهبة للثورة التى قام بها الجيش المصرى ضد الملك فاروق ، وهى ثورة غيرت القوى المحركة للشرق الأوسط وقدمت للعرب " صلاح الدين الجديد " .

ولعدة شهور سابقة على يوليو عام ١٩٥٢ ، كانت مجموعة من ضباط الجيش عرفت باسم " الضباط الأحرار " برئاسة جمال عبد الناصر تقوم بوضع خططها . ولما كانت المجموعة تفتقد أى هيكل تنظيمى متماسك ، فقد كانت لها نواة من حوالى إثنى عشر عضواً ، وصف ثان من حوالى خمسين عضواً ، ثم مستوى ثالث ربما اقترب عدده من ألفى شخص ، وهم الذين كانوا يؤيدون بشكل غير واضح هدف الضباط الأحرار فى الإطاحة بالحكومة ولكن ليست لهم عضوية رسمية فى المجموعة ، وكانت المجموعة تضم نقباء ، ورروادا ومقدمين تتراوح أعمارهم بين ثمانية وعشرين وخمسة وثلاثين سنة ، ولم تكن لهم ايديولوجية مشتركة سوى الوطنية الصرفة .

لقد كانوا ثوريين أنصاف متعلمين جاءوا نتاج مزيج مضطرب من الإيمان الدينى ، والوطنية ، وأفكار مشوشة استقوها من النشرات السياسية الفاشيستية التى كانت موجودة فى الثلاثينيات . ولكن كانت تجمعهم علاقة الجيل الواحد . فبصفتهم جزءاً من الجيش المصرى ، قاتلوا فى حرب فلسطين وعانوا جميعاً من عار الهزيمة ، وهى هزيمة ألقوا بمسئوليتها على السياسة فى القاهرة . وبقيامهم

بالإطاحة بالحكومة الفاسدة ، وإزالة نير السلطة العسكرية والاقتصادية للغرب سوف يحرر الضباط الأحرار مصر . وعندما يتم ذلك يصبح فقط من الممكن التفكير في الاستراتيجيات الضرورية من أجل حل آلاف المشاكل الأخرى في مصر .

وفى ليلة الثانى والعشرين من يولية جاء خبر إلى عبد الناصر بأن رجال الصفوة العسكرية فى مصر كانوا يعقدون اجتماعاً فى مقر القيادة العامة لوضع خطة للوقوف ضد الثورة التى كانت تختمر بين صفوفهم فقام عبد الناصر بإخطار القواد الثائرين بأن تلك هى الليلة التى سوف يأخذ الجيش فيها مصر . وبمجموعة مكونة من تسعين ضابطاً فقط ، قام الضباط الأحرار بالاستيلاء على مقر القيادة العامة ، والوحدات العسكرية ، والمبانى الحكومية ، ومحطات الإذاعة، ومراكز الاتصالات الهاتفية . وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، تم إعلان مصر بأن الثورة قد تمت بنجاح .

ودون أن تعرف مصر أى شىء عن أهداف ونوايا نظام الحكم الجديد ، عمت القاهرة موجة من الفرحة والغبطة . وكان من الطبيعى أن تتم الإطاحة بساسة النظام القديم . وكانت البداية بالملك . ففى صباح السادس والعشرين من يولية أعطى نظام الحكم العسكرى إنذاراً إلى فاروق طالباً تخليه عن العرش ، والآن ذهب فاروق المكروه والمنحل ، ومعه كل آثار النظام القديم .

ومنذ قيام الجيش بثورته ضد الحكومة ، كان عبد الناصر هو القوة المحركة للسياسة المصرية ، وأصبح الضباط الأحرار تحت قيادة عبد الناصر يشكلون مجلس قيادة الثورة ، وهو مجلس أقلية كان يهيمن عليه عبد الناصر ، وكانت مهمته الأساسية هى رسم مسار الثورة ، ثورة عبد الناصر .

وفى الفترة من ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٥٤ قام عبد الناصر بتدعيم سلطته خطوة خطوة ، فالجيش الذى كان قد تم تطهيره من النظام القديم فى غضون ٤٨

ساعة من الثورة تم تطهيره مرة أخرى بعد ستة شهور من أولئك الذين قد يناقشون توجيهات عبد الناصر ، وفى أبريل عام ١٩٥٤ ، فرضت الإقامة الجبرية على الفريق أول محمد نجيب الذى كان يتمتع بالاحترام ، وكان أكبر الضباط الأحرار سناً والذى اختاره المجلس لمنصب رئيس الوزراء .

ومع تولى عبد الناصر رئاسة الوزراء تم الغاء الأحزاب السياسية ، ووضع الزعماء السياسيون فى السجن ، وأغلقت الصحف الحرة ، وفرضت القيود على النقابات المهنية واتحادات العمال ومنظمات الطلبة .. وفى عام ١٩٥٦ حمل عبد الناصر لقب الرئيس والقائد الأوحد والزعيم .

ولقد كان لنشأءة عبد الناصر وتركيبه الفكرى أبعد الأثر ليس على فعاليات السياسة فى مصر فحسب ، وإنما أيضاً فى كافة أرجاء الوطن العربى ، حيث عاش ناصر الذى توفيت والدته وهو فى الثامنة من عمره طفولة مضطربة ، إذ تنقل بين أقاربه ومنزل والده وعدد من المدارس الداخلية ، وفى مدرسة النهضة وهى مدرسة عرفت بأنها أرض خصبة لنو الوطنية المصرية بدأت تظهر اهتمامات عبد الناصر السياسية ، ففى هذه المدرسة كان أحد مدرسيه يقوم بتمجيد الأبطال المسلمين . وكان آخر يعلى من شأن الأيديولوجية الفرعونية وما تقوم عليه من فكرة البعث المصرى تحت قيادة زعيم معبود ذى شخصية جذابة . ومع بلوغه سن السابعة عشر ، إستحوذت على عبد الناصر تماماً فكرة البطل فى تاريخ مصر البالغ خمسة آلاف سنة .

وفى خطاباته لأصدقائه ، كان عبد الناصر يعبر عن عاطفته المتوهجة . " إن مصر فى حالة من اليأس الكامل من الذى يستطيع إزالة هذا الشعور أين الرجل الذى يستطيع إعادة بناء البلاد حتى يتمكن الشعب المصرى المهان الضعيف من النهوض مرة أخرى ، وأن يعيش أبناءه كرجال أحرار مستقلين ؟ " وقد كانت هذه الرؤية المتحررة من السيطرة الأجنبية هى التى دفعت عبد الناصر

لدخول الكلية الحربية ثم إلى العمل السياسى السرى وفى النهاية إلـــى الثــورة . وكانت صورة مصر - فخورة ، وقوية ، ومحترمة - هى التى دفعته إلى زعامة العالم العربى .

ومنذ البداية وعد ناصر المصريين بالعزة والكرامة . وبقيت الكرامة محور اهتمام وطنية عبد الناصر . وفى خطاب له فى الثالث من مـــارس عــام ١٩٥٥ تحدث عبد الناصر قائلاً : " إننا شعب لا ينسى أبداً الإساءة ، ولكن الإساءة إلينــا تزيد من عزمنا ومن صلابتنا " . وفى كل خطاب أو حديث له تقريبا على مـــدى الثمانية عشر عاماً من حكمه ، كان عبد الناصر يرتكز فى حديثه إلى مســـتمعيه على أن الكرامة تتطلب الاستقلال وأن الاستقلال يتطلب القضاء الكامل والنهـــائى على كل احتلال وتدخل أجنبى فى شئون العرب . ووفقا للعالم الذى يتحدث فيـــه كان المجرم الأساسى الذى يقف فى طريق الاستقلال العربى إما بريطانيـــا ، أو الولايات المتحدة ، أو إسرائيل .

ومن المفارقات فى شخصية عبد الناصر أنه كان حتى خريف عام ١٩٥٤ رجلا منطويا خجولا يقرأ خطبا جافة لمســـتمعين متململيـــن . وفـــى الســـادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٤ ، بينما كان يلقى خطابا أمام عشرة آلاف مـــن العمال الذين تجمعوا فى أحد ميادين الإسكندرية ، رفع أحـــد أعضـــاء الإخـــوان المسلمين ، وإسمه محمد عبد اللطيف بندقية وأطلق ست رصاصات تجـــاه عبـــد الناصر مباشرة . وعلى نحو ما أخطأته جميع الطلقات . وفجأة تحول عبد الناصر الذى كان لا يزال يقف فى مكانه على المنصـــة إلـــى خطيـــب حيـــث هتـــف : "أيها الرجال ، ليبقى كل رجل فى مكانه ... إن حياتى ملك لكم ، ودمـــى فـــداء لمصر . إننى أتحدث إليكم بعون الله بعد أن حاول الآثم قتلى . إن حيـــاة جمـــال عبد الناصر ملك لكم ، لقد عشت من أجلكم وسوف أستمر كذلك إلى أن أمـــوت مناضلاً من أجلكم " .

وقد كانت محاولة اغتيال عبد الناصر نتيجة لما قام به من الانقضاض على الجماعات السياسية المعارضة .. إلا أن هذه الحادثة قد أعطت عبد الناصر المبرر لسحق الإخوان المسلمين الذين كانوا يمثلون الخطر الوحيد الباقي الذى يمكن أن يهدد سلطته ، وبقيام ناصر بإصدار أوامره بالإعدام شنقاً لستة من الإخوان المسلمين وإعتقال عدة مئات منهم ، قمع بدرجة مؤثرة جماعة الإخوان المسلمين كقوة سياسية فى مصر . وبالتدريج تحول عبد الناصر إلى متحدث ذى تأثير مغناطيسى يجمع فى حديثه بين اللغة العربية الفصحى ولغة رجل الشارع والفلاح فى الحقل ، بالإضافة إلى الأسرار الخفيفة التى يحكيها أب لأسرته . ونتيجة لذلك أصبح عبد الناصر الأستاذ المتمكن فى فن الحديث الملقى وأكثر المتحديثين لباقة فى العصر الحديث . وفى ثقافة تعد اللغة فيها سحراً ، كان صوته هو مصدر قوته وتأثيره . وكان الجرس والنغمة ، والصورة تسحر الناس وتشدهم إليه . ولكن عبد الناصر لم يكن يقدم أسلوباً فقط وإنما أيضاً رسالة .

لقد كان عبد الناصر رجلاً وطنياً وفقاً للصورة التى كانت سائدة فى الخمسينات ، عندما كان نهرو ، ونكروما وسوكارنو ينددون بالاستعمار الغربى . وكوطنى مصرى ، ذهب عبد الناصر إلى مؤتمر دول عدم الانحياز الذى انعقد فى مدينة باندونج فى غرب جزيرة جاوة الناعسة فى أبريل عام ١٩٥٥ . واحتفاء من زعيم الهند جواهر لال نهرو وزعيم الصين شوين لاى تصدر عبد الناصر منصة المؤتمر . وعندما تحدث ، لم يكن يتحدث فقط باسم العرب وإنما باسم ١,٤بليون من المحرومين فى العالم .

وعندما قال " هناك تشابه كبير جداً بين الظروف السائدة فى دولنا ، إنه تشابه يعمل كقوة موحدة ، لقد خرجنا لتونا من فترة طويلة من النفوذ الأجنبى ، من الناحية السياسية وأيضاً من الناحية الاقتصادية " ، كان عبد الناصر يطلق دعوة واضحة ضد الغرب تردد صداها عبر معظم دول العالم الثالث ، ففى أندونيسيا البعيدة ، أعاد عبد الناصر مصر إلى مكانة بارزة على المسرح العالمى

وأعطى لشعبها الكرامة التى اشتاق إليها طويلاً . ونتيجة لذلك ، عاد عبد الناصر إلى الوطن بطلاً فى عيون شعبه .

وأصبح عبد الناصر بعد ذلك المعبود الذى تتعبد فى محرابه " ملايين من البشر" دون تفكير أو تعقل . وبدون صوت مستقل ينبعث من بين صفوفهم أصبحوا مجرد جموع من الأذرع الملوحة والأيدى المصفقة والأفواه المهللة . إنه الزعيم من موقعه المهيمن يعلو فوقهم من منصته ، يتحدث وحده لساعات طويلة ولا تقاطعه سوى الهتافات الهستيرية : ناصر ، ناصر ، ناصر وكان الحب الجارف يبلغ ذروته عندما كان عبد الناصر يمر فى عربته الكاديلاك المكشوفة ذات اللون الأحمر ، ويقتحم رجال من الفلاحين بجلابيبهم الواسعة صفوف رجال الشرطة بشكل هستيرى لتسلق السيارة ومعانقة "الريس". ومن هذا الحب الجارف الصادر عن العامة تجمعت حول ناصر حالة من عبادة الشخصية، وغذتها أبواق الدعاية الخاصة به . وفى ذروة ذلك ، كانت تعلق ألواح من الخشب على أعمدة النور بارتفاع عشرين قدماً فى شوارع القاهرة مرسوماً عليها عبدالناصر الوسيم الجرىء ، وهو يلوح بيديه لشعبه الذى يعبده ، وتعلو خاصرته راية كتب عليها " لقد أرسله الله عوناً لبلدنا " .

وفى دوره الجديد ، تملكت عبد الناصر شهوة للأسلحة ، الأسلحة التى كان يحتاجها ليستبدل بها ترسانة الأسلحة القديمة من أجل الوقوف فى وجه إسرائيل . وقد زاد اهتمام عبد الناصر بالأسلحة بسبب الأحداث التى وقعت فى منطقة غزة المصرية التى غزتها إسرائيل وإحتلتها فى فبراير ١٩٥٥ . وكانت المصادر الغربية للأسلحة قد أغلقت فى عام ١٩٥٠ بموجب الاتفاق الثلاثى بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، حيث اتفقت الدول الثلاث ، فى محاولتها الحد من خطر الحرب فى الشرق الأوسط على تحديد مبيعات الأسلحة إلى كل من إسرائيل والدول العربية . ولكن فى منتصف الخمسينات كان الاتفاق الثلاثى يستخدم كمانع لمبيعات الأسلحة لناصر والذى اعتبره الغرب العدو الشديد لكل ما هو غربى .

وفى أكتوبر عام ١٩٥٥ ، هز عبد الناصر الغرب بإعلانــــه أن مصـــر ســوف تشترى أسلحة من تشيكوسلوفاكيا وهى أكبر دولة تصنع الأســـلحة فـــى الكتلـــة السوفيتية فى أوروبا الشرقية . وأثارت هذه الصفقة أجواء العالم العربى . ذلك أن عبد الناصر بتحديه المفهوم الكامل بأن العرب جزء تابع للنظام الغربى ، قد أطلق الثورة العربية الثانية . غير أنه بالنسبة لمعظم أنظمة الحكم فى العالم العربى ، لم يكن عبد الناصر مقبولاً كزعيم أكثر مما كان الشريف حسين فى الثورة الأولى ، فقد كان عبد الناصر ثورياً ، مكروهاً من أنظمة الحكـــم الملكيـــة فـــى الأردن ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية . وكان معادياً للغرب ، ومزعجاً للحكومـــة المسيحية فى لبنان ، الموالية للغرب . وبالنسبة لسوريا ، كانت زيادة قـــوة عبـــد الناصر فى القاهرة تعنى تقلص نفوذ دمشق . ولكن جاذبية ناصر بالنسبة لجماهير العالم العربى أدت بشكل مؤثر إلى تحييد المعارضة له على القمة، وبين عشـــية وضحاها أصبح عبد الناصر زعيم الشارع العربى بسبب تحديه للغرب .

وفى أوائل عام ١٩٥٦ ، رست قافلة من السفن التى تحمل الأســـلحة مـــن الإتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية على شاطىء الاسكندرية . ومعها جاء مخطـــط استراتيجى كامل جديد للشرق الأوسط . فباتجاه عبد الناصر إلى السوفييت طلبـــا للأسلحة ، قذف بالروس داخل مصر والشرق الأوسط ، داخـــل إطـــار الحـــرب الباردة .

وإذا كانت الوطنية المصرية قد دفعت بمصر إلى داخل الحرب البـــاردة ، فإن عبد الناصر السياسى الموهوب قد عمل على استغلالها أفضل استغلال ، ففى ذروة المناورات السياسية أثناء الحرب الباردة فى الخمسينيات ، كانت الولايـــات المتحدة تغدق على أوروبا وآسيا وأفريقيا مساعدتها الاقتصادية من أجل إغـــلاق الطريق أمام السوفيت فى أى تحرك لهم . وأحس عبدالناصر بذلك وقرر أن يحذو حذو نهرو زعيم الهند وتيتو زعيم يوغوسلافيا بأن يضـــرب الولايـــات المتحـــدة

بالاتحاد السوفيتى . وكان عبدالناصر يحلم بالحصول على الطاقة الكهربائية ومياه الرى من بناء سد على النيل عند أسوان ، واستطاع أن ينـــتزع ســبعين مليـــون دولار منحة من ميزانية المساعدات الخارجية الأمريكية . ولأنه كـــان مفاوضـــا ذكياً، فقد أجل بمهارة قبوله للمنحة مشيراً إلى أن الإتحاد الســـوفيتى مســـتعد لأن يدفع أكثر ، وفى مارس عام ١٩٥٦ صعد مـــن المخـــاطر باعترافـــه بـــالصين الشعبية.

وقام جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية بالرجوع عـــن اتفـــاق المساعدات ، وكان رد عبد الناصر على ذلك هو تأميم قنـــــاة الســـويس ، أحـــد شرايين الملاحة الهامة التى تمد أوروبا ببترول الشرق الأوسط . وبأخذه القنـــاة ، راح عبدالناصر يضرب بقوة على وتر الكرامة المصرية ، حيث قال : " فى هذه اللحظة ، يقوم بعض من إخوانكم أبناء مصر بإدارة شركة قناة السويس وتولـــــى شئونها ".

وبينما كان عبد الناصر يأخذ وضعه والبريطانيين والفرنسيين يهددون بقطع يد عبد الناصر التى تأخذ بخناق أوروبا ، كان جون فوستر دالاس يحاول نـــزع فتيل الأزمة التى كان التناقض الأمريكى سبباً فيها بدرجة ما . ولكن فى أكتوبـــر ١٩٥٦ تلاقت مصالح بريطانيا وفرنسا فى حماية قنـــاة الســـويس مـــع مصـــالح إسرائيل فى الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء . وانضم الصهاينة المغتصبون إلى الإستعماريين الغربيين فلاى حرب قصد بها الإطاحة بجمال عبد الناصر .

وفى التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦ ، تم إنزال جنود المظــــلات الإسرائليين فى صحراء سيناء قرب " ممر متلا " الذى يبعد ثلاثين ميلا فقط مـــن قناة السويس ، ومع وصولهم للأرض ، اندفعت أرتـــال محمولـــة مـــن الجيـــش الإسرائيلى نحو جنوب سيناء وأصدرت بريطانيا إعلانها - بأن بريطانيا وفرنسا

سوف تغزوان السويس من أجل حماية القناة ، ومع صيحات العالم بـأن هنـاك مؤامرة ، أنكر أنتونى أيدن بوجه مكفهر أن تكون العمليات البريطانية والعمليات الإسرائيلية أكثر من مجرد سعى كل منهما لتحقيق مصالحها الخاصة .

وبعد ذلك بيومين ، قامت الطائرات المقاتلة النفاثة البريطانيـة والفرنسـية بضرب المطارات المصرية ومعسكرات الجيش وقطع خط السكة الحديد الرئيسى من الخرطوم إلى القاهرة ، وبعد ثلاثة أيام أخـرى قـامت القـوات البريطانيـة والفرنسية بالهجوم من البحر على بورسعيد بينما قام الإسرائيليون بهجوم شـامل بطول جبهتهم فى سيناء .

وقد تسببت القوات الجوية لإسرائيل وحلفائها فى إلحـاق الدمـار الكـامل ببورسعيد ، وضرب القوات المصرية على الأرض ، والقضاء تماماً على ربـع جيش عبد الناصر . وبينما كانت مصر على وشك الهزيمة كان زعمـاء معظـم الدول العربية يقفون متفرجين ، راضين عن أن ناصر سوف يتم القضاء عليه قبل أن تهدد شعبيته الكبيرة أنظمة حكمهم . ولم يكن فى مقدور عبد الناصر أن يـرد على الهجوم الذى شنته قوى أكبر من قوته بكثير سوى بتدمير سفنه لتسد تمامـا قناة السويس .

غير أن المعركة الحاسمة فى حرب عام ١٩٥٦ لم تتم فى منطقـة القنـاة وإنما فى الأمم المتحدة . فقد قام دوايت إيزنهاور ، الذى إستشاط غضباً لتصرفات حلفاء الولايات المتحدة والتى اعتبرتها مدخلاً لجر الاتحاد السوفيتى إلى منطقـة الشرق الأوسط ، بإلقاء ثقل أمريكا وراء عدة قرارات من الأمم المتحدة تهدف إلى إزاحة إسرائيل وحلفائها الغربيين عن مصر . وقام علنا بتوبيخ بريطانيا وفرنسا ، وفى السر قام بإخبار إسرائيل بأنها ستكون وحدها إذا قامت بضم سيناء . ومـع توتر العلاقات فى الحلف الغربى ووصولها إلى نقطة خطيرة، قام أنتونـى إيـدن العجوز المنهك بإقناع رئيس فرنسا بالموافقة على وقف إطلاق النار بشكل فورى،

وذلك فى الخامس من نوفمبر ، وفى السادس من نوفمبر أعلن ديفيد بن جوريون من فوق منصة الكنيست كما لو كان نبياً : وتحققت كلمات النبى-أشعيا- : " فى ذلك اليوم سوف يصبح المصريون مثل النساء ، وسوف يرتجفون من الخوف بسبب اهتزاز يد رب الجيوش فوقهم ، لقد أصبحت سيناء ملكاً لإسرائيل ، ولن يستطيع أحد إجبارها على الجلاء" .

غير أنه بعد يومين ، وقف بن جوريون على منصة الكنيست مرة ثانية ليعلن الإنسحاب الإسرائيلى من سيناء بمجرد أن تأخذ قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة مواقعها .

لقد قامرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على هزيمة سريعة لعبد الناصر ، ولكنها فشلت . وقد كسبت معركة السويس ، ولكنها خسرت الحرب من أجل السيطرة على وطنية ناصر المتقدمة . فقد أجبر استياء أمريكا ، والتهديد بالتدخل السوفيتى ، والاستياء المعنوى لغالبية العالم الحر ، الدول الثلاث على الانسحاب دون أن تحقق أهدافها .

ولكن خسارتها الحقيقية كانت على الصعيد النفسى . فقد أكد التؤاطو بين إسرائيل وبريطانيا وفرنسا فى عام ١٩٥٦ إيمان العرب الراسخ بأن إسرائيل كانت – كما يعتقدون دائما – خادمة للاستعمار ، وعازمة على إبقاء العالم العربى رهينة للمصالح الغربية . وكانت أقوال جمال عبد الناصر صادقة . واكتسبت الحقيقة التى كان يؤكد عليها – بأن إزالة الإستعمار تتطلب تدمير أو القضاء على إسرائيل – مزيداً من الحماس وبدلاً من الإطاحة بعبد الناصر أعطت الدول الثلاث المتواطئة فى حرب السويس شهادة ميلاد "للناصرية" ، وهى مزيج من القومية العربية ، والعداء للاستعمار ، والمبادىء الاشتراكية ، وعبادة الشخصية التى أطاحت بجمال عبد الناصر .

ومع انسحاب القوات الأجنبية من مصر وقف جمال عبد الناصر أمام الجامع الأزهر بالقاهرة ليستقبل هتاف وإعجاب مئات الآلاف من أتباعه الذين تملكهم الجنون . وفيما وراء القاهرة ومصر ، إتجه العرب بعيونهم وقلوبهم إلى عبد الناصر باعتباره الزعيم الذى طال انتظارهم له والقادر على طرد الغرب .

وفى غضون أربع سنوات ، بزغ نجم جمال عبد الناصر من مقدم غير معروف فى الجيش المصرى ليصبح الزعيم الذى لا ينازع للعالم العربى . لقد بدأ طريقه السياسى كمعارض لنظام ملكى فاسد وضعيف ، ثم ظهر كمدافع عن المصالح المصرية ، ثم وطد قدميه كزعيم لحركة عدم الانحياز ، ثم أصبح الأن على وشك الدخول فى حقبة جديدة سوف يصبح فيها الزعيم المعبود لحركة عربية شاملة تمتد من شمال إفريقيا إلى حدود إيران .

وفى اليوم التالى للانسحاب النهائى لقوات الحملة الانجليزية - الفرنسية ، كشف عبد الناصر فى خطاب له فى بورسعيد عن برنامجه للعمل العربى أمام قاعدة أعرض جديدة من العرب بأسلوب بارع انصهرت فيه العروبة مع الاسلام وقبل مجىء عبد الناصر كان مبدأ الأمة العربية الواحدة هو عالم المثقفين والصفوة . ومع تحقيق النصر فى حرب السويس ، أخذ ناصر النظرية والانجذاب العاطفى لها من العالم العربى وأعطاها للجماهير .... ومن خلال خطبه القوية كان ينقل إلى الفلاح ، والعامل ، ومن لا يجد عملا فى العالم العربى الاحساس المثير بالتحول ، والتطلع لغد أفضل . وبهذا الذى كان يقوم به ، أعطى ناصر لحركة القومية العربية وضعها تحت الشمس . وفى المقابل ، ساعد العرب فى خلق أسطورة عبد الناصر .

ومن سخرية القدر أن الناصرية ظهرت إلى الوجود بطريق الصدفة المحضة تقريبا وذلك كنتيجة لنجاح عبد الناصر فى تحلاكاته وسياساته التى قام بها باسم المصالح الوطنية الخاصة بمصر ، وعلى الرغم من أن العرب عبر

الشرق الأوسط كله احتشدوا من خلفه وأنه حقق أعظم أمجاده كزعيم عربى ، فقد ظل عبد الناصر مصريا يقرن سعيه لتحقيق المصالح الوطنية لمصر باهتماماته بالأمة العربية ككل ، غير أنه مع صعود عبد الناصر إلى أعلى مكانة كزعيم العالم العربى ، فإنه تسبب فى إثارة شكوك المصريين وإيمانهم بشخصيتهم الوطنية الخاصة ، لقد كانت مصر أقل الدول العربية عروبة ، ولكن تحديا للتاريخ والفردية كان عبد الناصر يطلب من المصريين أن يندمجوا بالكامل داخل الأمة العربية الأكبر وأن يضحوا باحساس مصر المعتزة بنفسها قربانا من أجل شخصية عربية أوسع وأكثر شمولا .

وباعلان عبد الناصر : " أن العروبة وليس الفرعونية هى أيديولوجيتنا السياسية" ، نبذ وراءه مدرسة كاملة من الفكر الوطنى المصرى .

وفى عام ١٩٥٨ ، اندفع عبد الناصر بحماس نحو تحقيق أوج قوته عن طريق إثارة القومية العربية بصورة لم تعهد فى أى زعيم عربى من قبل . وقد قام بذلك عن طريق سيطرته على سلاحين هامين . هما جهاز دعاية محكم ، وشبكة مخابرات رهيبة . وعمل أحد السلاحين على السيطرة على الشارع العربى، والآخر على الحكومات أو جهاز الدولة فى البلدان العربية . وعبر الشرق الأوسط ، كانت أجهزة الراديو الرخيصة التى وفرتها الثورة التكنولوجية فى أيدى الجماهير العريضة من الشعب تذيع كلمات عبد الناصر من خلال الإذاعة المصرية . وكانت إذاعة " صوت العرب " تغطى المنطقة من المغرب العربى حتى إيران ومن قبرص حتى موزمبيق ، وكانت تذيع على أربع موجات الأغانى العربية المليئة بالحماس للقضية العربية والتعليقات النارية التى تدفق بأسلوب يستحوذ على العواطف . وتضافرت الكلمات والموسيقى معا لتثير فى نفوس العرب كل كراهيتهم واستيائهم من القوى الاستعمارية القديمة . واستولى عبد الناصر بتحديه أو على الأقل بتأكيده لمكانته على أعمق مشاعر الجماهير

العربية . ولعب على نغمة الشعور بالاضطهاد لدى العرب بكشفه عن صورة الحروب الصليبية باعتبارها بداية عصور الظلام بالنسبة للعرب ، وصور الولايات المتحدة وإسرائيل على أنهما الخليفة الجديد للصليبيين ، وكان عبد الناصر يدعو إلى التمرد والثورة والعصيان ، وإلى كراهية المستعمرين .. كما كان يعد باستعادة شرف العرب ، ذلك الشرف الذى دمره الغرب وعميلته اسرائيل، وكان يؤكد على أنه من خلال الوحدة العربية سوف يتبوأ العرب مرة أخرى مكانتهم العظيمة بين العالم مرددا "اتبعونى ، اتبعونى " وقد اتبعوه . ومن القرى الساحلية فى اليمن إلى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين إلى قاعات الجامعة الأمريكية فى بيروت ذات القدسية الخاصة ، وكانت صورة عبد الناصر المفعم بالحياة والنشاط تملأ الحوائط وترفع فى المظاهرات الصاخبة فى الشوارع .

وما إن سيطر عبد الناصر تماما على رجل الشارع حتى انتقل إلى السيطرة على الحكومات العربية ، ففى الفترة بين عام ١٩٥٩ ومنتصف عام ١٩٦١ لم تفلت دولة عربية من اهتمام عبد الناصر أو تدخله . وخيم ظله على كل نظام حاكم ، وعاش أولئك الذين رفضوا إتباع عبد الناصر وبرنامجه السياسى فى رعب من ثورة الشارع وكان عبد الناصر يعكس فى خطاباته هجومه ضد أنظمة الحكم الهاشمية فى العراق والأردن بل إن حزب البعث حامل شعلة القومية العربية ، اتخذ ناصر بطلا له ، وأصبح جمال عبد الناصر أكبر من الحياة ذاتها بالنسبة لكل من العرب والغرب .

وفى أوائل عام ١٩٥٥ ، حاولت الولايات المتحدة التى أزعجها ازدياد نفوذ عبد الناصر أن تحتوى مصر داخل بغداد الذى كانت تتبناه بريطانيا ، وهو اتفاق أمن اقليمى ، اتخذ النظام الهاشمى فى العراق الموالى للغرب مركزا له . وراح ناصر بالاستعمار ، وكان له عذره فى ذلك . الا أن معارضة عبد الناصر لحلف غربى مع دولة عربية ، كانت تعنى أيضا استنكاره لمحاولة الغرب خلق منافس

لزعامته للعالم العربى . وفى الأول من فبراير ١٩٥٨ ، فاجأت مصر والنظـــام البعثى فى سوريا الغرب وأنظمة الحكم غير المستقرة والمعادية لعبد النـــاصر ، بإعلان الوحدة بين مصر وسوريا لتصبحا الجمهورية العربية المتحدة .

وثار الناصريون من عمان إلى عدن من أجل وحدة بلادهم مع مصر بقيادة عبد الناصر وخلال شهر مايو ، عمت الاضرابات والاحتجاجـات لبنـان ضـد سياسات الرئيس المسيحى كميل شمعون الموالية للغرب بينما انضمت وفود مـن العراق والأردن إلى المسلمين فى لبنان إلى التردد على القـاهرة لمقابلـة عبـد الناصر المهيب . وفى يولية أثمرت كراهية عبد الناصر لملك العـراق المـوالى للغرب ، ففى الساعات الأولى من يوم الرابع عشر من يولية اكتسحت فرقتان من الجيش العراقى بغداد وحاصرت القصر الملكى . وقتل الملك فيصل ملك العراق البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما ، أثناء عملية الاستسلام .

وقد كانت هذه لحظة من لحظات النصر الكبيرة لعبد النـاصر . فقـد تـم القضاء على أكثر منافسيه العرب قوة ، وانضمت العراق التى كانت فى يوم مـن الأيام ركيزة النفوذ الغربى فى العالم العربى ، إلى الدول العربية المحايدة . وفى دمشق أعلن عبد الناصر فى خطاب : " أخيرا تحررت القوميـة العربيـة مـن قيودها... وأصبحت الشعوب العربية واثقة فى نفسها ومطمئنة فـى وطنهـا ... ولسوف يرفرف علم الحرية أيضا فوق عمان وبيروت " . ولكن فى اليوم التـالى اقتحم خمسة آلاف من مشاة البحرية الأمريكية شواطىء بيروت . ومـن وسـط سفن المتعة والترفيه ومقاهى الشواطىء ، أعلنت الولايات المتحـدة بيانهـا – أن ناصر لن يطيح بحكومة لبنان الموالية للغرب .

وفى صيف عام ١٩٥٨ بدت القومية العربية ذات الصبغة المصرية لعبـد الناصر على وشك تحقيق نصر عظيم . ولكن فى سبتمبر ١٩٦١ بدأت الأمـور فى التفكك . فقد انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة لعجزها عن تقبل

حب السلطة الذى تملك عبد الناصر . وفى العام التالى أدخل عبد الناصر جيشه ومكانته فى حرب قبلية حول صراع أيديولوجى فى اليمن ... تلك الدويلة التى كانت متخلفة ، ومنقسمة بين السهل الساحلى الجنوبى والجبال الشمالية ، ولم يكن النزاع الداخلى بين الجنوبيين سكان السهل الذين تأثروا بالحضارة الحديثة ودولة الإمام فى الشمال المتخلفة ، يعنى الكثير خارج نطاق السياسة الناصرية .

وكانت هذه الحرب الأهلية فى اليمن البعيدة ، التى اعتبرها عبد الناصر صراعا بين القومية العربية الثورية ونظام حكم رجعى تؤيده المملكة العربية السعودية ، تتيح لعبد الناصر الأمل فى استعادة المكانة التى ضاعت مع تفكك الجمهورية العربية المتحدة ، ولكن بدلا من ذلك أغرقته فى مستنقع كبير ، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ وضع عبد الناصر فى الانحدار مع حلول عام ١٩٦٦ بسبب الهجوم الذى يواجهه من أولئك الذين أرهقهم تدخله فى شئون دولة عربية ذات سيادة وانتقاد تجمع جديد من الأنظمة العربية المحافظة بقيادة المملكة العربية السعودية ، وفى عام ١٩٦٧ ، سقط عبد الناصر من عل خلال ستة أيام من الحرب مع إسرائيل ، وكانت سياسة علد الناصر تجاه إسرائيل مرتبطة بشكل أساسى بسعيه من أجل تحقيق مصالح مصر .

وقد شكل هذا السياق أحد اعتراضاته الأساسية على إسرائيل ، فقد كان قيام الدولة اليهودية بين مصر والأرض الداخلية لبلاد العرب ، يحرم مصر من طريق برى يربط بينها وبين سوريا . وبخلاف ذلك فإنه حتى عام ١٩٥٤ كانت إسرائيل بالنسبة لناصر تمثل أحد توابع الخطر الحقيقى على العرب وهو الاستعمار الغربى. ولكن ما إن التزم عبد الناصر بتحقيق الوحدة العربية تحت قيادة مصر حتى وجد نفسه مضطرا الى ابراز فكرة الكفاح " العربى المستمر ضد إسرائيل ". وفى هذا الوقت فقط تحولت الصهيونية إلى قاعدة أمامية للاستعمار والتهديد القاتل للأمة العربية والدخيل الغريب الذى ينبغى ازالته من قلب الأرض العربية .

وبدءا من عام ١٩٥٦ أصبحت خطب عبد الناصر تركز على تواطؤ الاستعمار الغربى مع الصهيونية . فبريطانيا سلمت فلسطين للصهيونية . والولايات المتحدة ساعدت إسرائيل ، وبذلك مكنت اليهودية العالمية والصهيونية من غزو جزء حبيب من أرض العرب حتى تصبح رأس حربة للاستعمار داخل الأمة العربية ومصدرا للخطر والخوف . وبوضع قوات الطوارىء الدولية على الحدود بين مصر وإسرائيل فى نهاية حرب السويس أعطى ذلك لعبد الناصر فرصة عشر سنوات من النضال دون التعرض لخطر صدام عسكرى آخر .

ولكن عبد الناصر لم يستطع تحمل "حالة اللاحرب واللاسلم" للأبد .. وباشتباكها فى حرب إرادات منذ أزمة السويس فى عام ١٩٥٦ ، وجدت إسرائيل نفسها هى وجيرانها من الدول العربية متجهة نحو الحرب ، وفى هذا الوقت كان العرب منقادين للبعثيين أكثر من انقيادهم لمصر . وفى عام ١٩٦٣ ، تولى البعث ، الذى يمثل الأيديولوجية الداعية لوحدة الأمة العربية والتى كان يروج لها ميشيل عفلق ، والسلطة فى سوريا ، ومع حلول عام ١٩٦٦ ، كان نظام الحكم المتحمس وغير المفهوم فى دمشق يتهم عبد الناصر بأنه أصبح متساهلا بالنسبة لموضوع إسرائيل .

ولأن الحكومة السورية كانت تنوى الاندفاع فى حرب مع إسرائيل مهما كلفها ذلك ، قامت أو سهلت القيام بهجمات للفدائيين على الدولة اليهودية عبر حدودها ، ولخوف عبد الناصر من ثمن الحرب ، حاول أن يحد من اندفاع المسئولين المتهورين فى دمشق ولكنه فشل . وعندما هددت إسرائيل سوريا بالانتقام ، وجد عبد الناصر نفسه مضطرا إما للوقوف إلى جانب سوريا أو تعرض وضعه المهتز للانهيار .

ولما شعر أعداء عبد الناصر بضعفه راحوا يغرسون إبرهم فى الجلد الرقيق للرجل القوى الذى طالما هاجمهم ، وارتفع صوت إذاعة المملكة العربية السعودية قائلاً : "إن من يتصور أن مصر سوف تشن أى نوع من المعارك ضد إسرائيل دفاعاً عن سوريا أو أية دولة أخرى سوف ينتظر طويلا " وسخر الملك

حسين ملك الأردن من إزدواجية عبد الناصر الذى يرتدى عباءة بطـــل العـــرب بينما يسمح للسفن الإسرائيلية بالمرور فى المياه المصرية لتصـــل إلـــى مينائهـــا الجنوبى فى إيلات .

ووجد عبد الناصر نفسه مضطراً لاتخاذ قرار إما بدخول الحلبة أو فقـــدان لقبه . ولما كان إحساسه العظيم بنفسه يمنعه من الانسحاب ، قرر عبـــد النـــاصر المضى قدماً .

ومع حلول ربيع عام ١٩٦٧ ، دفعت خطب عبد الناصر النارية ، وهجمات جماعات الفدائيين من سوريا ضد المستوطنات فى شمال إســـرائيل ، وتهديـــدات إسرائيل القوية بالانتقام – دفعت عبد الناصر والعرب للدخول فى سلســـلة مـــن الأحداث أدت إلى الحرب بدرجة أسرع مما كان يتوقع السوريون أنفسهم ، وفـــى يونية قام عبد الناصر المختال بنفسه بإرسال مزيد من القوات إلى غزة ، وأطقـــم مدفعية مدربة لتعتلى مرتفعات شرم الشيخ التى تطل على مضيق تيران الضيق ، ثم أعلن إغلاق خليج العقبة فى وجه السفن المتجهة إلى ميناء إيلات الإســـرائيلى وقامت إسرائيل بدورها بإشهار أسلحتها ، وردت غاضبة بأن إغلاق خليج العقبة يمثل عملاً من أعمال الحرب .

وبوصول الجانبيين إلى حافة الحرب ، هرع " يوثانت " الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك إلى القاهرة لمقابلة عبد الناصر . وعندما وصل وجد الدبلوماســـى الهادىء ذو النظارات نفسه يصطدم بحشد من العمال خارج مكتب عبد النـــاصر يهتفون : " الله أكبر ، يحيا ناصر ، والنصر لمصر" .

وكانت الحسابات الخاطئة قد بدأت بالفعل ، فقد ارتكب عبد الناصر ، الذى حذر علانية مراراً وتكراراً من أن العرب تنقصهم القوة اللازمة لتحدى إسرائيل ، غلطته الأولى بتوقيعه إتفاق دفاع مشترك مع خصمه سوريا . وكان الهدف مـــن هذا الاتفاق هو أن يكون وسيلة لوقف هجمات الفدائيين الذين ترعاهم سوريا ضد

إسرائيل ، إلا أن الاتفاق فى جوهره جعل من عبد الناصر رهينة لما تقوم به سوريا من مغامرات رعناء ، وارتكب ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل الخطأ الثانى بتهديده بشن حرب على سوريا إذا لم توقف تلك الهجمات التى كان يخشاها ناصر بدرجة كبيرة .. وأخذت سوريا قول ليفى أشكول مأخذ الجد وطالبت عبد الناصر بأن يوفى بالتزاماته تجاه اتفاق الدفاع المشترك بينهما ، ولم يكن أمام عبد الناصر ، من أن يظل بطل العرب ، سوى الاستجابة لطلب سوريا .

ولكن كانت أمامه ورقة يلعب بها فى هذه الورطة ، وهى قوات حفظ السلام التى تقف على الحدود بينه وبين إسرائيل منذ عام ١٩٥٦ ، وقام عبد الناصر فى مناورة منه لاختلاق أزمة قد تدفع الأمم المتحدة للتدخل وفرض تسوية بإصدار أوامره لقوات حفظ السلام بالانسحاب من على الحدود . وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد ارتكب يوثانت الخطأ الأخير ، فقد استجاب السكرتير العام لطلب ناصر دون استشارة أحد أمام دهشة الجميع .

وفتحت الحدود بين مصر وإسرائيل . وتحركت قوات المشاة والعربات المدرعة السورية إلى مرتفعات الجولان ، وفى القاهرة تدافعت الدبابات والعربات نصف المجنزرة السوفيتية الصنع فى الشوارع فى طريقها إلى سيناء الوعرة .
ويبدأ راديو القاهرة فى إذاعة الموسيقى العسكرية ويدعو الدول العربية للانضمام من أجل الدفاع عن سوريا فى " المسيرة المقدسة نحو إسرائيل " ، بينما كانت تتردد الدعوة بين جنبات المساجد تدعو المؤمنين للجهاد ، بل إن الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية الحذر ، الذى كان يكره ناصر أعلن أن " أى عربى يتخاذل عن الدخول فى هذه المعركة لا يستحق أن يكون عربيا " وقام الملك حسين ملك الأردن خوفا من ثورة شعبه بابتلاع كراهيته لناصر ودخل فى اتفاق عسكرى مع مصر فى الأول من يونية عام ١٩٦٧.

وعند غروب يوم الرابع من يونيه عام ١٩٦٧ ، ظهرت مجموعة من جنود

المشاة الإسرائيليين تتبعهم عربات نصف مجنزرة على كلا جانبى طريق ترابـــى يؤدى إلى سيناء . وحتى يذهبوا عنهم ملل المرور الروتينى كانوا يثيرون الغبـــار بأحذيتهم العسكرية الثقيلة ليفزعوا أسراب الطيور الصغيرة خارج الشجيرات التى تغير لونها من أشعة الشمس . لقد كان يوماً عادياً آخر على حدود إسرائيل .

وطلع يوم الخامس من يونية ، وقبل أن يعلو ضوء الشمس الأرجوانى حافة التلال ، اندفعت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية واحدة تلـــو الأخـــرى مـــن علـــى الممرات الطويلة إلى أعلى المياه الزرقاء الهادئة للبحر الأبيض المتوسط .

وانحرفت واحدة بعد الأخرى فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الغرب ثـــم دارت مرتدة مرة أخرى تجاه الأرض وهى تزمجر . وأثناء إنخفاضهـــا كـــانت تســـقط حمولتها من المتفجرات على مطارات بير جفجافة ، وبـــير الحســـنة ، وفـــايد ، والإسماعلية ، وحلوان ، والقاهرة ، والاسكندرية ؛ حيث قضت علـــى طـــائرات مصر التى أمدتها بها روسيا ، وعلى المفرق والقاعدة الجوية قرب عمان حيـــث دمرت القوة الجوية الملكية الأردنية ، وعلى مطار ســـوريا الوحيـــد للطـــائرات المقاتلة شمال دمشق . وعندما انتهت الغارة كانت ٣٥٠ مقاتلة ميج-١٦ وهوك ، وبعض الطائرات الأخرى المتنوعة قد دمرت فوق ممراتها ، لقد دمرت إسرائيل القوة الجوية للدول العربية قبل أن تدرك معظمها أنه كانت هناك حرب .

ومع عودة الطائرات المقاتلة الإسرائيلية من أول طلعاتها ، إندفعت ألويـــة مدرعة تحت العلم الإسرائيلى ذى اللون الأزرق والأبيض جنوبـــاً فـــوق رمـــال سيناء، وتقدمت القوة الأساسية تجاه قناة السويس لإغلاق قطاع غزة . وفى اتجاه الشمال الشرقى ، أقامت المدفعية الإسرائيلية سداً من النيران على رجال المدفعية السوريين الذين كانوا يربضون فوق مرتفعات الجولان المســـيطرة علـــى ســـهل الحولة ، وفى الشرق تحركت الدبابات عبر حدود الضفة الغربية التى يبلغ طولها خمسة وسبعون ميلاً حيث التقت مع الجيش العربى للملك حسين .

وبدون غطاء جوى تبدد جيش مصر . ومع حلول اليوم الثـــانى للحــرب حوصر عشرة آلاف جندى مصرى فى جيب بطول حدود غزة مع سيناء . وعلى طول الطريق إلى السويس جلس آلاف الأسرى المصريين القرفصـــاء أو ألقــوا بأنفسهم على الرمال الصفراء الساخنة تحت الأعيـــن المنتقمـــة لجنــود المشـــاة الإسرائليين ، أما الباقون فقد تركوا دباباتهم وبنادقهم وأحياناً أحذيتهم وفروا إلـــى مصر .

وكان الجيش العربى للأردن الذى يدافع عن القدس هو الذى وقف بفاعلية أمام الهجوم الإسرائيلى . وخلال اليوم الثانى للحرب قصفت المدفعيـــة الأردنيـــة القدس الغربية اليهودية ، وبقوة مرعة أصابت هدفاً قريباً من منزل ليفى أشـــكول حيث سقطت القذائف فى حديقة فندق الملك داود واخترقت إحدى نوافـــذ مركـــز هاداسا الطبى ذات الزجاج الملون ، غير أنه فى الوقت الذى كان فيه الأردنيـــون يهاجمون القدس قامت القوات الجوية الإسرائيلية بضرب تلال عمـــان المنثـــورة بنبات الخشخاش ، كما قامت القوات البرية الإسرائيلية بشكل متواصـــل بإحكـــام كماشتها العسكرية ذات الثلاث شعب حول المدينة منزلاً منزلاً وبناية بناية .

وفى فجر اليوم الثالث للحرب ، بدأ هجوم إسرائيل الأخـــير علـــى مدينـــة القدس المسورة .. وزحفت ببطء شاحنات محملة بالقوات الإسرائيلية إلى أعلـــى المنحدرات المليئة بأشجار الصنوبر لجبل المكبر وجبل الزيتون ، وفوق القمـــة ، انتظروا حتى انتهت أربع طائرات نفاثة إسرائيلية من إسقاط قنابل النابـــالم علـــى آخر المدافعين الإردنين عن القدس ، ثم تحركوا بعد ذلك . وعندما اقتربوا مـــن الدفاعات الحجرية السميكة للقدس القديمة من ناحيـــة الشـــرق ، توقفـــت القـــوة الإسرائيلية المتقدمة عند بوابة سانت ستيفن ، على مسافة كافية تتيح لدبابـــة مـــن طراز باتون بالتقدم وتسديد نيرانها نحو البوابة القديمة لتدمرها تماما ، وصـــرخ الجنود مهللين واندفعوا بزيهم الكاكى الذى يحمل نجمة داود من خلال البوابـــة .

وتبعهم الحاخام " شلوموجورين " كبير حاخامات الجيش الإسرائيلى حاملاً التوراة، وخلال دقائق كان يقف أمام حائط المبكى قائلاً : "لقد أخذنا مدينة الله . إننا ندخل عهد خلاص الشعب اليهودى " .

وفى اليوم الرابع للحرب ، سعى الملك حسين المنهك الغائر العينين من أجل السلام . ثم تبعه عبد الناصر المقهور ، وكانت مصر قد خسرت سيناء وغزة، وخسرت سوريا مرتفعات الجولان ، وخسرت الأردن الضفة الغربية لنهر الأردن .

وخسر الإسلام معها القدس ، وفى التاسع من يونية ، اعترف بطل العروبة العظيم بهزيمة أوسع نطاقاً وأكثر تأثير من هزيمة عام ١٩٤٨ .. ولم تعد إنجازات حكم عبد الناصر فقط محل تساؤل وإنما أيضا منطق ورموز حقبة كاملة من الفكر والممارسة السياسية للعرب .

لقد وضعت الأيام الستة من حرب عام ١٩٦٧ نهاية الحقبة المصرية من تاريخ السياسة العربية ، فقد أجبرت الكبرياء المصرية نفسها على التراجع لتتوازن مع مواردها المادية المحدودة . وبالهزيمة توارت هالة المجد لتفسح الطريق أمام الواقع الأكيد للفقر .

وبدون عبد الناصر ككبير للوعاظ بالنسبة للعرب ، لم يعد فى مقدور مصر بعد الآن أن تشكل الأمة العربية وفقاً لإرادتها .. لقد مات جزء من عبد الناصر يوم الخامس من يونية عام ١٩٦٧ ، ولكن بقى الجسد الحى بطريقة أو بأخرى . وعلى الرغم من أن العلاقة السحرية بين عبد الناصر وجموع الشعب العربى التى تكونت أثناء الأيام المجيدة لباندونج وحرب السويس كانت قد ضعفت ، فقد بقى فى الحكم كشخصية تراجيدية ، رمزا لعزم العرب على مقاومة أولئك الذين يعتقدون أنهم يريدون تدميرهم . وبمعنى من المعانى ، استمر عبد الناصر لأنه كان كل ما يمتلكه المصريون ، وعلى مدى أحد عشر عاما ، منذ عام ١٩٥٦

وحتى عام ١٩٦٧ ، كان يثير عواطفهم ويعدهم بمستقبل أفضل ، ومن ثم فـــإنهم في الهزيمة كانوا لا يزالون يتطلعون إليه ليجمع الأجزاء المبعـــثرة ، وليعطـــى معنى للكارثة التى حلت بالعرب ، وقد كان حائر بين أولئك الذين كانوا يريدونـــه أن يتفاوض مع إسرائيل لينهى المشكلة الكبرى بين العروبة والصهيونية وأولئـــك الذين يصرخون طلبا للانتقام واستعادة الكرامة وكان محصورا بين قوة عظمـــى مستعدة دائما للدفاع عن عدوه والقوة العظمى الأخرى التى تهتم فقط باســـتغلاله من أجل خدمتها ، وهكذا وجد ناصر نفسه يسير فوق حبل مشدود .

وكان على عبد الناصر ، كى يستعيد الكرامة العربية ، أن يستعيد الأرض العربية ، ولكنه لم يستطع أن يؤثر على الولايات المتحدة لتضغط على إســـرائيل من أجل أن تتخلى عن الأرض التى احتلتها وأن تنسحب من قناة الســـويس دون اعتراف العرب بإسرائيل ، وهو ما رفض أن يقوم به العرب رفضا نابعـــا مـــن إحساسهم العميق بالإهانة .

وبانتزاعه المزيد من السلاح من الاتحاد السوفيتى غير الراغب فى ذلك ، استعد عبد الناصر لشن حرب استنزاف ضد القوات الإسرائيلية على طـــول قنـــاة السويس ، وقد تسببت هجمات جس النبض على المواقع الإســـرائيلية فـــى شـــن غارات انتقامية شديدة التأثير ، ولكنها أيضا أعطت عبد الناصر الوقت ليجد نوع من المسكن لما تعانيه الكرامة العربية المهدرة . وفى الهجمات الدموية المتبادلـــة عانت مصر أكثر مما عانت إسرائيل ولكن قوة الميزان المصرية حققت إصابات كافية لإثارة آلام الإسرائيليين ، ومع حلول عام ١٩٧٠ ، كـــان كـــلا الطرفيـــن مستعدين للدخول فى مفاوضات من أجل وسط تحت ما كـــان يســـمى " مبـــادرة روجرز " التى اضطلع بها وزير الخارجية الأمريكى .

وفى السابع من أغسطس ١٩٧٠ قبل الرجل الذى اكتسب صفات أسطورية وبطولية بتحديه للغرب وقفاً لاطلاق النار مع إسرائيل تحـــت رعايـــة أمريكـــا

وبذلك توصل عبد الناصر إلى تفاهم مع أولئك الذين كان يمقتهم مقتاً شديداً .

لقد ضعف عبد الناصر سياسيا ، كما أنه كان مريضا جسديا . فقد كان يعانى من مرض السكر منذ عام ١٩٥٨ . ثم بدأت صحته فى التدهور فى أوائل الستينات ، لتزداد سوءا عاما بعد آخر ، وقد تسبب السكر فى إصابته بمرض تصلب الشرايين ، كما كان يعانى من تورم فى الجزء العلوى من ساقيه كان يسبب له ألما شديدا خلال سنوات عديدة من سنوات مجده ، وفى عام ١٩٦٥ ، تعرض عبد الناصر لأزمة قلبية بسيطة . وفى صيف عام ١٩٦٨ أمضى عدة أسابيع فى الاتحاد السوفيتى للمعالجة بالماء من أجل إزالة التورم من ساقيه . وفى عام ١٩٦٩ ، رقد فى الفراش لمدة ستة أسابيع بسبب تعرضه لأزمة قلبية أكثر خطورة ، ومع هذا كان يدخن ما لا يقل عن ستين سيجارة يوميا .

وتوفى عبد الناصر نتيجة أزمة قلبية مفاجئة فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠ ، عن اثنين وخمسين عاماً . ومن سخريات القدر أنه أمضى الساعات الأخيرة من عمره فى التفاوض من أجل وقف إطلاق النار فى الحرب الأهلية الأردنية ، محاطا برؤساء الدول العربية ، ومثبتا لرفاقه المصريين أنه على الرغم من حرب يونية لا تزال مصر تحتل موقع الريادة فى المجالس العربية .

وفى يوم تشييع جنازة عبد الناصر ، هرع مئات الآلاف من المصريين على أسطح القطارات واعتلوا الشاحنات القديمة ، وركبوا الحمير والدراجات أو ساروا على الأقدام مندفعين من الدلتا ، وأسوان ومدن الصعيد نحو القاهرة ، وفى الوقت الذى كان يوضع فيه نعش عبد الناصر الخشبى البسيط الملفوف بالعلم المصرى فوق عربة مدفع ، كان أربعة ملايين شخص يصطفون على طول الطريق البالغ طوله ستة أميال من قصر القبة إلى مقبرته التى تم بناؤها على وجه السرعة ، وبالبكاء والنحيب الهستيرى ، وبرفع صور الزعيم الراحل ، ودع

المصريون الرجل الذى أعطاهم الإحساس بالكرامة ، وقد كانوا يعرفون على نحو ما أنهم لن يتمكنوا من استعادتها خلال حياتهم ، ولذلك يبكون على عبد الناصر وعلى مصر وعلى أنفسهم . وربما كان أصدق تعبير ما قاله أحد المسئولين في الحكومة باكيا : " لقد كان عبد الناصر كل شيء لمصر ، الصديق ، والأب ، والرئيس ، والملك . والآن أصبحنا وحدنا " .

وكان عبد الناصر رجلا ذا شخصية مركبة ، وكتوما بدرجة زائدة عن الحد وحذراً ، ومن ثم لم يكن له صديق حميم ، وقد قال السادات عنه بعد وفاته: " لم يكن من السهل على عبد الناصر أن يصادق أى شخص ، بالمعنى الكامل لهذه العبارة ، وذلك بسبب ميله للحذر والتشكيك والمرارة الشديدة والتوتر العصبى البالغ" .

وفيما يختص بذوقه وعاداته اليومية ظل مثل أى رجل بسيط ينتمى للطبقات الدنيا ، ولم يكن يقرأ الأدب ، وإنما فقط الصحف ، وعن ذوقه الموسيقى كان متشبعاً بأم المغنيات المصريات الشهيرات ، أم كلثوم ، التى كانت تعبر بآهاتها عن آلام شعبها . أما وسائل الترفيه الأجنبية فلم تدخل حياته إلا في التنس ، والسجائر الأمريكية ، وأفلام هوليود من حين لآخر .

وقد عاش عبد الناصر فى منزل بسيط فى أحد ضواحى القاهرة ، كزوج وفى ، وأب مخلص . ومثل معظم المصريين كان يأكل الجبن الأبيض المحلى ، والخيار، والطماطم والأرز والخضار . وكانت متعته الكبيرة الوحيدة هى الملابس، وبصفة خاصة أربطة العنق التى كان يعلق منها فى دولاب ملابسه ما لا يقل عن مائتين وخمسين . ومثل كل العرب الذين حققوا مستوى من النجاح، كان عبد الناصر يكدس حمامه بعشرات من زجاجات الكولونيا والعطور.

لقد كانت مكانة عبد الناصر فى مصر أقرب ما تكون إلى مكانة السيد الذى لا ينازع . وكان يظهر للناس على أنه الشديد الكراهية للأجانب ، والسياسى

البارع المستعد دائما للوقوف إلى جانب الفقراء والمضطهدين من جماهير الشعب فى الريف والحضر ، والرجل المعارض لأنظمة الحكم الراسخة والمحرك للجماهير، والزعيم الشعبى دمث الخلق الذى حقق الولاء بين أتباعه المتعصبين لشخصه ، والقائد الذى يسأل بصفة دائمة وبأسلوب بلاغى الفريق الذى يقوده إذ كانوا يحافظ على عهده معهم فيردون عليه من اللاوعى فى صوت واحد بالإيجاب .

وكان عبد الناصر يؤمن بأن العالم العربى المتحرر من النفوذ الأجنبى سوف يتيح لمصر القيام بدور قيادى فى شئونه وتقرير مصيره . وكزعيم لمصر فإن جمال عبد الناصر نفسه يقود الأمة العربية .

لقد كانت فترة حكم عبد الناصر خليطاً من القومية المصرية والعروبة . وقد اجتمعت الاثنتان فى الناصرية التى أصبحت ملحمة العرب العظيمة فى العصر الحديث .

الفصل الثانى

السادات : الثعلب السياسي

وفى الفترة الساداتية شهدت مصر تداعيات وتغيرات عميقة فـى سياسـتها الداخلية ، والخارجية لم تلق بأثارها على مصر وحدها ، وإنما على جميع أقطار ما يسمى بالوطن العربى .

وقد ولد أنور السادات فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٩١٨ بقرية ميت أبو الكوم بدلتا النيل ، وبرغم الصورة التى رسمها بعد ذلك عـن طفولتـه القروية البسيطة ، فقد نشأ أنور السادات فى واقع الأمر فى القاهرة كواحـد مـن ثلاثة عشر طفلا لإحدى الأسر المتعلمة . وكان أبوه ، الموظف بالجيش ، أفقـر فى المال من المكانة . ومن خلال إتصالاته داخل الجيش ، حصل لإبنـه علـى مكان فى تلك الدفعة الأولى من غير الأرستقراطيين التى دخلت الكلية الحربية فى عام ١٩٣٧ ، وهى نفس الدفعة التى التحق بها عبد الناصر .

وحينما تخرج السادات فى عـام ١٩٣٨ كـان وطنيـا متحمسـا لطـرد البريطانيين من مصر . وفى عام ١٩٤٢ ، حينما كان شابا برتبة نقيب ، شـارك فى تهريب أحد اللواءات المصريين السابقين إلى ألمانيا كان على دراية بالمنشآت الحربية البريطانية ، وكما نشاهد فى أحد أفلام لوريل وهاردى ، تعطلت السيارة التى فروا بها وتحطمت طائرة الهروب عند إقلاعها ، وفى النهاية تمت الوشـاية بالسادات إلى المخابرات البريطانية ، وتم ايداعه فى سـجن الأجـانب ومعـه جاسوسان من النازيين .

وفى الفترة بين ١٩٤٤ ، ١٩٤٩ كان أنور السادات ، يتزعم مجموعة من الضباط الراديكاليين داخل الجيش المصرى ، وإنطلاقا من قناعته بممارسة القوة كوسيلة مقبولة ضد حكومة فاروق البغيضة ، قام بإلقاء قنبلة يدوية عبر زجـاج

سيارة رئيس الوزراء مصطفى النحاس واشترك فى محاولة اغتيال أمين عثمان وزير المالية المصرى ، وعاد إلى السجن مرة أخرى ليقضى واحداً وثلاثين شهراً وبعد خروجه فى أواخر عام ١٩٥١ نجح فى العودة إلى مركزه السابق فى الجيش ، وحينما تم استدعاؤه للمشاركة فى ثورة يوليو ١٩٥٢ اقتصر دوره على قراءة إعلان الثورة فى الإذاعة .

وبعد عام ١٩٥٢ اختفى السادات تقريباً من ثورة عبد الناصر ، ولكن بعد كارثة عام ١٩٦٧ ظهر من جديد على السطح وأصبح قريبا من عبد الناصر الذى وجد فيه فيما يبدو الصديق القنوع الذى يمكن أن يثق به ، وقد تمت ترقيته رغم عدم ذيوع صيته إلى نائب الرئيس فى عام ١٩٦٩ ، وفى سبتمبر ١٩٧٠ تم استدعاؤه باعتباره نائباً للرئيس لإعلان خبر وفاة عبد الناصر ، ثم تولى بعد ذلك رئاسة مصر لكونه نائب الرئيس عبد الناصر المطيع والذى وقف إلى جانبه طوال ثلاثين عاما من الثورة والمأساة الوطنية . وقد أيدت دائرة عبد الناصر الداخلية أنور السادات وهى كارهة . بيد أنه لم يكن هناك حماس لذلك ، وكانت صحيفة الأهرام الناطقة بلسان مؤسسة عبد الناصر السياسية ، هى الوحيدة التى استجمعت قدرا من الشجاعة لتقول إن تعيين أنور السادات كان " تعبيرا ناضجا ومسئولا عن المقتضيات التى تحكم الوضع المعقد الراهن " . وكانت رغبة زمرة عبد الناصر القوية فى الاستمرار هى العامل الوحيد الذى سمح ببقاء السادات بعد استفتاء عام دستورى ليصبح رئيسا بحكم حقه الشخصى . وعند هذه النقطة ، وقف أنور السادات وجها لوجه أمام مصر وتركة عبد الناصر الثقيلة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتى تصدرتها على الإطلاق عار عام ١٩٦٧ وردت الجماهير صائحة ، "سنقاتل .. سنقاتل .. معك حتى النصر يا سادات " . ولكن قبل أن يستطيع السادات مواجهة إسرائيل ، كان عليه أن يدعم أساس سلطته لإحكام قبضته الضعيفة على مصر .

وقد تبين أن أنور السادات ، الذى وافقت عليه دائرة عبد الناصر الداخلية لأنه كان الرفيق المطيع الذى وقف إلى جانب عبد الناصر ، كانت له أنياب حادة. ففى أوائل ١٩٧١ ، حاول على صبرى ، أحد المقربين إلى عبد الناصر ، وأقوى حليف للإتحاد السوفيتى داخل الحكومة المصرية ، تقييد حق السادات فى الحكم بمراسيم رئاسية كما كان يفعل عبد الناصر ، وقبل أن ينجح فى ذلك ، أعطت رزمة صغيرة من الأوراق التى تضم ملخصا لمؤامرة يسارية للإطاحة بالسادات المبرر الذى يحتاجه الرئيس لتنفيذ " ثورة التصحيح " فى مايو ١٩٧١ ، وقام السادات بطرد على صبرى وأودع بقية رجال موسكو السجن ، ومع القضاء على اليسارين المتشددين ، أخرج السادات مجموعة من الناصريين من السلطة ، بمن فيهم بعض رفاقه القدامى من الضباط الأحرار . وفى الخامس عشر من مايو ١٩٧١ ، قضى أنور السادات على الجهاز السياسى الذى خلفه عبد الناصر ثم تحول إلى الروس .

وأثناء العام الأخير من حكم عبد الناصر ، كانت علاقة مصر بالإتحاد السوفيتى ، القائمة على التحالف الذى تم فى منتصف الخمسينات ، تتخبط فى بحر من الإحباطات ، إذ أن هذا التحالف لم يحقق النصر على إسرائيل ، وقيد استقلال مصر الغالى الذى حققته بثورة ١٩٥٢ بأصفاد المعونة الاقتصادية والعسكرية السوفيتية الحديدية ، وعند وفاة عبد الناصر ، كان هناك ما يقرب من خمسة عشر ألف خبير عسكرى سوفيتى يشرفون على تدريب القوات المسلحة المصرية ، وكان الطيارون السوفيت يحلقون بطائرات الميج -٢١ المصرية ويديرون نظام الدفاع الجوى ، وكان القادة العسكريون السوفيت يتحكمون كذلك فى الدخول إلى أهم المنشآت العسكرية المصرية .

وكان الضباط السوفيت يشغلون مناصب فى جهاز المخابرات والشرطة والوزارات المدنية الحساسة ، ونظرا لقدرته على ممارسة نفوذه فى عملية صنع

القرار المصرى فقد كان وضع السفير السوفيتى يمثل صورة طبق الأصل من وضع المندوب السامى البريطانى فى أيام الاحتلال البريطانى ، وكان المصريون يرددون فى ثكنات الجيش والمقاهى أن التخلص من الروس سيكون أصعب من خروج الإنجليز .

وكان السادات يكره قبضة الروس الثقيلة ، وكانت القيادة السوفيتية قد دأبت على الكذب عليه بشأن التعهد بتقديم الأسلحة التى لا تستطيع ، أو لن تستطيع ، تسليمها ، ولكن أهم من ذلك كله ، أن التحالف مع الاتحاد السوفيتى جر مصر إلى التنافس الخطير بين القوى العظمى ، فالاتحاد السوفيتى لن يسمح بنشوب حرب فى الشرق الأوسط من شأنها أن تجعله يقف وجها لوجه أمام الولايات المتحدة ، والولايات المتحدة لن تسمح بنشوب حرب بين مصر وإسرائيل طالما ظلت مصر مرتبطة بموسكو ، وإذا كان أنور السادات يريد الانتقام بسبب مهانة ١٩٦٧ ، فإن عليه أن يضع تصرفاته خارج نطاق المصالح المدمرة للقوى العظمى ، وفى الثامن عشر من يوليو ، وقبل خمسة أيام من الذكرى العشرين على قيام ثورة ١٩٥٢ ، أمر السادات بطرد جميع الخبراء العسكريين السوفيت من مصر ، وكان عبد الناصر قد احتضن السوفيت لما أصابه من إحباط من جراء رفض الولايات المتحدة تزويد مصر بالسلاح ، وها هو السادات يقوم بطرد الاتحاد السوفيتى من أجل تحييد الأسلحة الامريكية . ودارت الأحداث دورة كاملة .

وقبل انتهاء العام الثانى على توليه مهام الرئاسة ، انتصر أنور السادات على منافسيه وحد من النفوذ السوفيتى فى مصر . وكان شبح جمال عبد الناصر هو الشيء الوحيد الذى كان يحول بينه وبين النظام الجديد الذى كان يحلم بتنفيذه فى مصر .

لقد كانت روح عبد الناصر تطارد السادات ، فأنور السادات لم يستثر أبدا

جموع جماهير العرب . ولم يكن أبدا بطلا بالنسبة للجماهير العربية من بغداد إلى الدار البيضاء ، وكانت أسطورة عبد الناصر تشل السادات خارج حدود مصر .. وأصبحت الناصرية بمثابة سلاح يسدده منافسو السادات فى النظام العربى فى وجهه ، خاصة معمر القذافى ، غير أنه داخل مصر ، استطاع السادات منافسة عبد الناصر ... فقد كان السادات يحض المصريين على فضح زيف الأسطورة ، وإبعاد عبد الناصر عن وجودهم السياسى وقد استجابوا له ، فقد خانت دولة عبد الناصر البوليسية الكثير من مبادىء ثورة ١٩٥٢ ، وإذا كان الفلاحون رفضوا الاعتراف بهذه الحقيقة وتعاموا عنها ، فإن الطبقة المثقفة أكدتها ، واحتشدوا أمام دور السينما عام ١٩٧١ لمشاهدة فيلم " الكرنك " المقتبس من رواية نجيب محفوظ ولم يكن هذا الكرنك هو المعبد الفرعونى المصرى العظيم وإنما كان اسم مقهى يتردد عليه الطلبة المنشقون فى الستينيات ، وفى هذا الفيلم كان بوليس ناصر السرى يمارس أعمال التعذيب السادية الوحشية ضد الأبرياء ويهمل مصالح مصر الحقيقية ، وقد تلاشت أية شكوك حول مغزى القصة من خلال المشهد الذى يقوم فيه حراس السجن الواقفون تحت صورة شخصية لعبد الناصر وهو يبتسم ، بضرب شاب من الطلبة حتى الموت بينما كانت الطائرات الإسرائيلية تقصف مصر العاجزة عن الدفاع عن نفسها أثناء حرب ١٩٦٧ .

وقد استطاع السادات تخليص مصر من تأثير عبد الناصر لسبب بسيط وهو أن المصريين قد ضاقوا بتغطية فقرهم وعجزهم تحت شعار العروبة والوحدة العربية الشاملة ، وأفسح السادات الطريق لنظام جديد بامتطاء صهوة "المطالبين بمصالح مصر أولا " وهم الذين يطالبون بأن تأتى المصالح المصرية فى المقدمة قبل المطالبة بالعروبة والوحدة العربية ، ولم تكن ثمة مصالح تفوق فى أهميتها استعادة سيناء والتوصل إلى تسوية مع إسرائيل مما يخفف عن مصر أعباء الحرب الاقتصادية .

وأعلن أنور السادات أن عام ١٩٧١ هو " عام الحسم " الذى تستعيد فيه

مصر أرضها التى فقدتها فى ١٩٦٧ وبعد أن أوقفت القيادة السوفيتية تزويده بالإمدادات العسكرية عقابا له على طرد الروس من مصر ، قلب السادات التقويم وأصبح عام ١٩٧٢ هو " عام المعركة الحاسمة " ، وتغير الموعد مرة أخرى وأصبح عام ١٩٧٣ هو " موعد المواجهة الشاملة " مع إسرائيل ، والواقع أن السادات –إن لم يكن جيشه أيضاً– ، كان عازما تماما على الخروج من الورطة مع إسرائيل فى عام ١٩٧١ ولكن الهجوم الذى كان من المقرر أن تشنه مقاتلاته القاذفة الخمسون داخل عمق سيناء المحتلة لجذب اهتمام العالم ، جرى التراجع عنه عندما احتلت أزمة هندية – باكستانية أخرى مسرح الأحداث العالمية .

وفى عام ١٩٧٢ أصدر السادات أوامره لفرقة من المظليين بالهبوط داخل سيناء لإحتلال رأس جسر لمدة أسبوع أو عشرة أيام ، وكان السادات يرى أن هذه العملية ستكون بمثابة أداة تدفع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إلى عقد جلسة للخروج من المأزق الدبلوماسى فى الشرق الأوسط ، وتمهيد الطريق أمام ليبيا لإغلاق محابس نفطها ، التى كانت تزود أوروبا الغربية بخمسة وعشرين بالمائة من احتياجاتها النفطية ، ودفع الولايات المتحدة للتوسط من أجل انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية ، وقد قام جيش السادات نفسه بإجهاض هذه الخطة. وفى عام ١٩٧٣ بدأ السادات فى قرع طبول الحرب من جديد ، ووافق الاتحاد السوفيتى هذه المرة –ربما لأنه كان يتوقع أن يمنى العرب بهزيمة أخرى مما يؤدى إلى الإطاحة بالسادات وعودة حكومة موالية لليسار– على استئناف تزويد مصر بالمعدات وقطع الغيار العسكرية التى كانت قد توقفت عقب عملية الطرد السوفييتى المهين من مصر ، ومع ضمان إمداده بالأسلحة ، حذر السادات الجميع قائلا : " أن الجميع يغطون فى سبات عميق بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط. لكنهم سوف يستيقظون عما قريب ...."

وفى الفترة بين ١٩٧٠ و١٩٧٣ عمل السادات على تكوين التحالف الذى يضم مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية والذى سيقاتل فى حرب ١٩٧٣ ،

وكانت المملكة العربية السعودية أهم من سوريا كحليف قوى بالنسبة للســـادات ، ففى عهد السادات تحسنت العلاقات بشكل واضح مع الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية ، فقد ذهب السوفييت رعاة الماركسية ، التى يخشـــاها الملـــك فيصل ، فى العالم العربى ، كذلك ولت خطب عبد الناصر الطنانة التـــى كـــانت تقسم الأنظمة العربية بخبث إلى نظم تقدمية وأخرى رجعية ، ولم يكن ذلك يعنى أى فرق بالنسبة للسادات .

ومع قناعة آل سعود بأن أنور السادات كان يخطط لشن حـــرب محـــدودة لوضع نهاية للمأزق العربى - الإسرائيلى وليس القيام بمغامرة عسكرية طويلـــة الأمد قد تدفع المنطقة كلها إلى حالة من الفوضى ، انفتحت أبواب خزائن الأموال السعودية عن آخرها ، وفى الوقت نفسه استغل الملك فيصل تحالفه الأمريكى فى تحذير واشنطن من أن السادات لا يخادع وأن المملكة العربية السعودية ســـتنضم إلى صفوف إخوانها العرب فى حالة نشوب حرب ، وذلك فـــى " إشـــارة إلـــى تضامنها مع مصر " .

وفى شهر سبتمبر ، اتصل السادات بالرئيس السورى حافظ الأسد ، الـــذى وافق على الانضمام للتحالف فى محاولة لاستعادة مرتفعـــات الجـــولان . وفـــى النهاية تم الصفح عن الملك حسين عاهل الأردن ، الخاسر الكبـــير فـــى حـــرب ١٩٦٧ بسبب الحرب التى شنها عام ١٩٧٠ ضد الفلسطينيين ، وإقناعه بأن يكون شريكا ذا دور محدود .

ومع ذلك كانت الحرب تبدو مستحيلة ، ففى شهر أكتوبـــر ١٩٧٣ كـــانت مصر مفلسة ، وعاجزة عن خدمة ديونها الخارجية أو شراء ما يلزمها من القمح لإطعام شعبها ، وعلى أرض المعركة ، كانت إسرائيل تمتلك قوة عسكرية هائلة، وكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد اتجهتا نحو الانفراج فى علاقاتهما، مما أدى إلى استبعاد ضمان المساعدة الروسية لموازنة الالتزام الأمريكى تجـــاه إسرائيل ، وهكذا فإن تفكير السادات فى الحرب كان يؤكد مدى رغبته فى إيجـــاد

مخرج من عملية تعذيب الذات والأزمة الاقتصادية الملحة التى كـــانت تعيشـــها مصر ، وكان على المصريين حل عقدة عدم الثقة بالنفس حتى يستطيعوا التحكـــم فى مستقبلهم .

وكان نجاح مصر فى شن حرب محدودة يعنى عبور مصر إلى المســـتقبل وقيام أنور السادات بأعظم إنجازاته .. يقول السادات فى هذا الصدد .. " ورأيـــت إنه من الأفضل لنا ألف مرة - لأربعين ألفا من أبنائى فى القوات المسلحة ولـــى شخصيا - أن ندفن ونحن نعبر القناة من أن نقبل هذا الخزى والعـــار" ، وكـــانت الأيام الأولى من شهر أكتوبر تمر طبيعية ، وكان ذلك فى شهر رمضان (شـــهر الصوم عند المسلمين) . وغادر عدد من الجنود والطيارين المصريين وحداتهـــم العسكرية لقضاء أجازاتهم الدورية مع عائلاتهم فى هذا الشهر المقدس من أشهر السنة الإسلامية ، وكانت أوامر الرئيس دعوة لحمل السلاح ... وكان ذلك كلـــه خدعة .

ففى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، قـــامت القوات العربية بالهجوم على إسرائيل من جبهتين ، وفـــى يـــوم كيبـــور ، يـــوم الغفران، أقدس أيام السنة عند اليهود قام العرب بتنفيذ ما كانت تعتقد إسرائيل أنه أمر مستحيل التحقيق ، وهو شن هجوم مباغت ، وراحت المدفعية السورية الثقيلة تمطر المستوطنات الإسرائيلية فى مرتفعات الجولان بوابل من القصـــــف بينمـــا اندفعت خمسمائة دبابة وفرقتان من فرق المشاة عبر خطوط وقف إطلاق النـــــار لعام ١٩٧٠ وواصلت تقدمها نحو حدود إسرائيل .

ولكن مجد العرب الحقيقى كان ينتظرهم فى سيناء ، حيث قام المصريـــون بعبور قناة السويس الذى طالما تدربوا عليه ، وأدت شحنات الديناميت الضخمـــة التى زرعها رجال الضفادع البشرية المصريون فى الليلة السابقة إلى فتح ثغرات فى الحاجز الدفاعى الرملى الذى يصل ارتفاعه إلى ستين قدمـــا والـــذى أقامتـــه

إسرائيل على الجانب الشرقى للقناة ، وعلى الجانب المصرى ، وثب مائة جندى من جنود الفرقة السابعة داخل القوارب المنتظرة ، وانطلقوا بأقصى سرعة تحت وابل من نيران المدفعية الثقيلة ، واندفعوا عبر إحدى الثغرات فى الحاجز الرملى لرفع العلم المصرى مرة أخرى فوق سيناء ، وباستخدام مضخات المياه ذات الضغط العالى التى صنعت خصيصا فى ألمانيا الغربية فى الحائط الرملى الإسرائيلى ، استقبلت طلائع القوات المصرية المهاجمة ثلاث دبابات من خلال معبر تم إنشاوه عبر القناة ، وامتدت من خلفهم الجسور العائمة من جنوب القنطرة حتى شمال الإسماعيلية عبر الممر المائى الضيق الذي يفصل المصريين عن الأراضى التى تحتلها إسرائيل ، ومع تثبيت آخر حلقة من حلقات الربط فى مكانها، اندفعت الشاحنات التى تحمل القوات التى ترتدى السترات العسكرية الخفيفة والخوذات لحمايتهم من الرمال التى تذروها الرياح فى موجات متلاحقة عبر الضفة على الجانب الغربى من القناة وشقت طريقها فوق الجسور ، وما إن كانت أقدامهم تلامس الضفة الأخرى ، حتى كان الرجال الذين كانوا لا يزالون يتذكرون ١٩٦٧ يهتفون " الله أكبر " وكان رجال المشاة ذووا الخوذات الذين يشعرون بالتعب يتدفقون سيرا على الأقدام فوق رمال سيناء ويرفعون بنادقهم الآلية إلى السماء ، لقد تم عبور القناة واسترد العرب كرامتهم .

لقد ولد العرب المقهورون ، الذين لحق بهم الخزى والعار ، من جديد وتشبع العالم العربى مرة أخرى بالكبرياء العربى وروح الوحدة العربية ، ولم يعد يهم فيما يبدو أن تظل عناصر النصر النهائى فى أيدى إسرائيل ، ففى هذا اليوم ، وفوق أرض سيناء القاحلة ، تم الدفاع عن شرف العرب ، وكتب أحد محررى الصحف اللبنانية العديدة فى هدوء " لقد انتصرنا ، لقد انتصرنا ، حتى وإن تحولت مدننا إلى خرائب فى الأسابيع المقبلة " .

وسرعان ما سقط خمسة وعشرون من التحصينات الإسرائيلية ، ثم سقط خط بارليف كله (خط ماجينو الإسرائيلى فى سيناء) ، وتشهد القضبان الحديدية

التالفة والملتوية داخل الغرف المحصنة المحترقة تحت الأرض بمدى ضراوة المعركة على الخطوط الأمامية ، وبالإضافة إلى ذلك ، كانت الأحذية التى تركها أصاحبها فى الصحراء دليلا على التراجع المتعجل قبل تقدم الدبابات الشرس الذى لا رجعة فيه . وكانت الطوابير الطويلة من أسرى الحرب المذهولين الجالسين على الأرض ، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم ، تنطق بالهزيمة ، بيد أن الخسائر المعركة المادية والبشرية هذه المرة ، كانت إسرائيلية وليست عربية . وأخذت إذاعة إسرائيل هذه المرة –وليس إذاعة صوت العرب– تصيح فى هلع " سوف نحيل نهاركم إلى ليل حالك ، وسنريكم النجوم فى عز النهار ، سنمرغ وجوهكم وأنوفكم فى الوحل ، سوف نجعل قادة العدو يدفعون ثمن ذلك غاليا ، سوف نسحق عظامكم " .

وفى اليوم الثانى من الحرب ، بدأ الهجوم الإسرائيلى المضاد ، وأخذت الدبابات الإسرائيلية والمصرية تندفع عبر سيناء وتتبادل إطلاق النيران لساعات طويلة ، وحينما انتهت المعركة ، كان النصر حليف المصريين ، حيث دمروا اللواء الاسرائيلى المدرع المائة والتسعون تدميرا تاما ، وفى مساء هذا اليوم ، كان قائد هذا اللواء المذهول وطاقم خمس وعشرون دبابة تم الاستيلاء عليها يصطفون لاستعراضهم كتذكار للحرب على شاشة تليفزيون القاهرة ، ومع إصابتها بالرعب الجماعى أدركت إسرائيل أن قواتها الجوية البرية الممتازة وتفوق قواتها الجوية الهائل الذى حسم حرب ١٩٦٧ لصالحها قد تم كبح جماحها بالصواريخ السوفيتية والروح المعنوية المدهشة للجيوش العربية ، وتلاشت الثقة بالنفس التى كانت سائدة فى ١٩٦٧ .

ودخلت الحرب يومها الثالث ، وأخذت مرتفعات الجولان تقع بفعل أصوات الدبابات الإسرائيلية والسورية التى تقف وجها لوجه فوق أرض الهضبة الجرداء المغطاة بالعليق ، بينما توغل المصريون فى سيناء مسافة ثلاثة عشر ميلا شرقى القناة ، وأصبحوا على بعد تسعة أميال فقط غربى ممر متلا ، الرمز المؤلم للهزيمة العربية المنكرة فى حرب ١٩٦٧ .

وترددت كلمات عبد الناصر التى وردت فى خطابه استقالته من جديد: "إن الامبرياليين يعتبرون ذلك هزيمة شخصية لحقت لعبد الناصر . ولكنهـا هزيمـة لحقت بالشعب العربى بأسره ولن يقبل الشعب العربى الهزيمة " .

ولكن بدخول المعركة أسبوعها الثالث ، انقلب المد على نحو حاسم ليصبح ضد العرب . ففى مدينة العريش ، التى تقع فى سيناء خلف الجبهـة مباشـرة ، كانت طائرات النقل الأمريكية تفرغ حمولتها من الدبابات والأسلحة بغرض قلـب الموازين فى أرض المعركة ، وردت الدول العربية المنتجة للنفط بفرض حظـر على تصدير النفط إلى الولايات المتحدة ، بيد أن وقف تدفق النفط لم تكن له آثار فورية عاجلة على الحرب البرية ، فقد كان الإسرائيليون ، بعد أن أعيد تسليحهم ، بمد جسورهم الخاصة عبر القناة ، وسرعان ما وضعوا مائتى دبابة وخمسة عشر ألفا من القوات على الضفة الغربية للقناة . وقامت الوحدات الإسـرائيلية ، التـى انتشرت لمسافة خمسة عشر ميلا على طول الممر المائى ، بضـرب بطاريـات الصواريخ أرض – جو ، وفتحت ثغرة فى الدفاعات الجوية المصرية وسـرعان ما تلبدت سماء سيناء بالمعارك الجوية التى إشتبكت فيها المقاتلات التـى قـامت أمريكا بتزويد إسرائيل لها مع الطائرات الميج المصرية .

وعلى الجبهة السورية ، توقفت القوات الإسرائيلية عند قرية سعسة ، على بعد عشرين ميلا فقط من دمشق ، وعلى الضفة الشرقية ، تشـبث المصريـون بالكاد برأس جسرهم الضيق فى سيناء . وفى نيويورك ، أصدر مجلـس الأمـن التابع للأمم المتحدة القرار رقم ٣٣٨ الذى يدعو إلى وقف فورى لإطلاق النـار وإجراء مفاوضات للتوصل إلى تسوية سلمية تحت " الرعاية المناسبة " وكـانت تلك اللحظة التى ينتظرها أنور السادات ، وقبلت مصر وقف إطلاق النـار دون تشاور مسبق مع سوريا ووافق السوريون على وقف الأعمال العدائية ، حيث لـم يكن أمامهم خيار آخر . وبدأ سريان وقف إطلاق النار فى الساعة السـابعة مـن مساء الثانى والعشرين من أكتوبر ولكنه إنهار حينما سارعت القوات الإسـرائيلية

بالتقدم نحو مدينة السويس على الضفة الغربية لقطع الطريق على الجيش الثالث المصرى . وفى الثالث والعشريم من أكتوبر توقف إطلاق النار نهائيا .

وقد استمرت الحرب ثمانية عشر يوما من القتال الشرس - أى ثلاثة أضعاف الفترة التى استغرقتها حرب ١٩٦٧ المشينة . وقد منيت جميع الأطراف بخسائر فادحة فى الأفراد والمعدات ، ولكن العرب كسبوا الحرب النفسية ، وبصرف النظر عن نتائج الحرب النهائية ، فقد حقق العرب نصراً نفسيا بعبورهم قناة السويس ، الرمز الأكبر للتخلص من وهن الماضى .

لقد أشعلت حرب أكتوبر من جديد خيال أكثر أنصار الوحدة العربية الشاملة طموحا ، الذين رأوا أمامهم عالما عربيا يتغلب على عجزه والإهمال الدولى له . ودام ذلك لمدة عامين .

وقد تلاشت أحلام العصر الذهبى للعرب حينما وجد السعوديون والكويتيون وشيوخ الإمارات العربية قدراً أكبر من الرضا فى بناء المطارات والطرق السريعة والقصور والإنفاق الاستهلاكى الذى يفوق ما توفره لهم الوحدة العربية ، وتوارى الفصل المجيد من تاريخ العرب الذى سطرته أكتوبر ، على المستوى النفسى والتى هى حرب كل العرب ، بعد أن اتضح على النحو محزن أن الارتفاع الهائل فى أسعار البترول والثروات التى نتجت من ذلك لم يستفد منها إلا القلة المحظوظة فقط . ووقف الباقون فى الخارج ، لا يملكون شيئا سوى عبء الإحباط والعجز . ولم يشعر أحد بذلك مثلما شعر به المصريون . فهم الذين تحملوا عبء الحرب ولم يجنوا شيئا يخلصهم من فقرهم المدقع . وبدلا من ذلك "ازداد الأثرياء ثراء ، بينما تعين على من أراقوا دماءهم منذ البداية أن يريقوا ماء وجوههم طلبا للقليل من الثروة المادية التى حصل عليها الآخرون نتيجة التضحيات التى قدمها الفقراء " ، لقد أحدث الازدهار البترولى جرحا نافذا فى النفسية الجماعية فى مصر ، ومن آلامها برزت قناعة مريرة بأن العرب يريدون مصر أن " تتضور من الجوع وحدها ، وتموت وحدها ، وتحارب وحدها ، وتفلس وحدها " . وكانت مصر ورئيسها قد عانيا الكثير ، وكانا يريدان الخروج من المستنقع العربى .

إن أنور السادات لم ينظم حرب أكتوبر باعتبارها محاولة عربية شاملة على الإطلاق ، إذ لم تكن حرب ١٩٧٣ بالنسبة له وللمصريين الذين عرفوا معنى الحرب ، بداية لنضال جديد ومستمر ضد إسرائيل ، ولامرحلة أخرى من مراحل خضوع مصر للسياسة العربية . وربما تنتمى حرب ١٩٧٣ للعرب نفسيا- لكنها تنتمى لمصر وحدها سياسيا . وبمعنى من المعانى ، إنها لم تكن أبدا حربا تقليدية وإنما كانت عملا عسكريا استهدف تحقيق هدف غير عسكرى هو تسوية مشكلات الأراضى التى نشأت عن حرب ١٩٦٧ .

غير أنه بعد حرب ١٩٧٣ ، واجهت مصر باعتبارها جزءا من المجموعة السياسية العربية ، نفس المعضلات التى كانت تواجهها قبل عبور القناة . فقد طالبت إسرائيل بإجراء مفاوضات مباشرة مع الدول العربية ، مما يعنى اعتراف العرب بالدولة الصهيونية دون ضمانات بإعادة الأراضى وأصرت الدول العربية على مفاوضات جماعية وتعهدت برفض أى اتفاق يخفق فى إقامة دولة للفلسطنيين ، ولم تستطع مصر تحمل انتظار تغيير الموقف الإسرائيلى أو العربى، فقد كانت بحاجة إلى سلام عاجل . فبعد جرح إسرائيل واسترداد كرامة العرب الممزقة ، خلق السادات السلطة التى تمكنه من التخلى عن نهج عبد الناصر العربى الشامل إلى الأبد ، وبعد أن أصبح ينافس عبد الناصر القوى ، فى الوقت الراهن ، أمكنه تجاهل احتياجات سائر العرب والبدء فى السعى من أجل السلام مع إسرائيل ، ذلك أنه هو ، وليس هم ، الذى تحدى العدو ، والذى كان بطلا فى الحرب . وفى قمة انتصاره كقائد عربى ، شرع أنور السادات فى البحث عن سلامه الخاص مع إسرائيل . وفى المرحلة الأخيرة من مراحل نبذ الناصرية تقبل الولايات المتحدة كشريك له .

وفى السادس من نوفمبر ١٩٧٣ ، وصل إلى القاهرة هنرى كيسنجر ، وزير خارجية الرئيس نيكسون . وفى أواخر أكتوبر ، التقت مصر وإسرائيل عند الكيلو ١٠١ على الطريق بين القاهرة والسويس لتوقيع إتفاق وقف إطلاق النار .

بيد أن جيشيهما ظلا متشابكين على طول قناة السويس . وبحلول شهر يناير استطاع كيسنجر ، الذى كان يقوم برحلات مكوكية بين تل أبيب ومنتجع السادات فى أسوان ، إقناع إسرائيل بالتراجع خمسة عشر ميلا من الضفة الغربية للقناة ، مما أدى إلى إطلاق سراح ثمانية عشر ألف رجل من رجال الجيش الثالث المصرى المحاصرين ، وكان نصيب مصر من الصفقة ، التى تم توقيعها بموجب الاتفاقية التى عرفت باسم اتفاقية سيناء الأولى ، هو التخلى عن سوريا ، وترك حافظ الأسد لعقد صفقة خاصة مع إسرائيل حول مسألة الجولان وجاء ريتشارد نيكسون بنفسه إلى القاهرة فى شهر فبراير ورفعت نفس الجماهير التى كانت تهتف لتوجهات عبد الناصر المعادية للغرب أصواتها تهتف بفرحة غامرة للرئيس الأمريكى واستئناف العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة ومصر ، وبدا أن أنور السادات لم يجانبه الصواب فى تحليل السأم من الحرب الذى خيم على شعب النيل ... وغادر نيكسون مصر وعاد إليها كيسنجر . وطوال فترة الصيف ، أخذ صديق السادات "العزيز هنرى" يقوم برحلات مكوكية مرة أخرى بين عواصم الشرق الأوسط . وفى شهر سبتمبر ، تفاوض بشأن اتفاقية سيناء الثانية ، التى استردت مصر بموجبها ألفى ميل مربع من أرض سيناء ، ولكن بتحقيق هدف مصر الخاص بالأراضى تخاصم السادات مع العرب . وفى بيان ذى دلالات عميقة بالنسبة العربية الجماعية تجاه إسرائيل ، تعهدت مصر "بألا تلجأ إلى التهديد باستخدام القوة لحا النزاعات مع إسرائيل" وتوارت الوحدة العربية والحقائق الملحة الخاصة بالأراضى والقضية الفلسطينية ، حينما حصلت مصر ، ومعها شريكها الأمريكى ، على أراضيها . وطوال عهد عبد الناصر ، كانت القاهرة وحدها هى التى ترفع علم العروبة ، وكانت ملاذ العرب غير المصريين ووجهتهم من أجل الحصول على الدعم المالى والمعنوى ، وكان أصدقاء القاهرة هم المؤمنون بالوحدة العربية والتضامن ، وكان أعداؤها هم عملاء الإمبريالية

وجواسيسها ، وأتباع الغرب والانفصاليين الذين أخفقوا فى الالتزام بضـــرورات الوحدة العربية الملحة ، بيد أن مصر لم تعد تصدر عنها صيحة العروبة ، وبدلا من ذلك عقد أنور السادات ، بطل حرب ١٩٧٣ ، صفقة من أجل مصر وتحدى الإرادة العربية الجماعية . وإذا كانت حرب أكتوبر التى خاضها السادات تمثـــل أوج الوحدة العربية ، فقد كانت اتفاقية سيناء التى وقعت فى سبتمبر ١٩٧٥ تمثل بداية تفكك هذه الوحدة .

وقد أخفق فض الاشتباك فى سيناء فى وقف انزلاق مصر داخل البالوعـــة الاقتصادية ، فبرغم جهود هنرى كيسنجر ، كانت مصر لا تزال تنفق ما يقـــرب من ٢,٢ بليون دولار سنويا على قواتها المسلحة ، وكانت لا تزال فى حاجة إلى بليونى دولار أخرى سنويا كمساعدة خارجية كى تظل طافيـــة علـــى السـطح ، فمنطقة روض الفرج ، القريبة من وسط القاهرة ، تكتظ ب ٢٦١,٣٤٨ نسمة فى المتر المربع – أى عشرة أضعاف الكثافة السكانية فى نيويورك .

ونظرا لندرة المساكن فى مختلف أنحاء القاهرة ، تدافع الناس واحتلوا مقابر الموتى . وقامت الحكومة ، التى رأت فى هذا التصرف حلا وليس مشكلة ، بمـد الخطوط الكهربائية إلى هذه المساكن الأضرحة . ومع تزايـــد الســكان ونـدرة الوظائف بلغ متوسط دخل العامل فى المدينة ٧٢ دولار شـــهريا . وكـــان دعـم الحكومة للسلع الأساسية يساعد معظم الناس على الاستمرار فى الحياة ، ولكـــن هذا الدعم كان يمتص دماء خزانة مصر التى تعانى من فقر الدم المزمن .

وفى ربيع عام ١٩٧٣ ، سعى السادات إلى تحسين الوضع الاقتصادى من خلال التخلص من شريحة صغيرة من نظام عبد الناصر الاشتراكى بالمبادرة إلى سياسة الانفتاح ، أى الانفتاح على الاستثمارات الغربيـــة . وقـد نفثـت سياســة الانفتاح بعض الطاقة فى الاقتصاد المصرى ، لكنها أيضا خلقت نوعا جديدا مـــن

الباشوات والقطط السمان ، فمن خلال تقاضي العمـــولات والمكافـآت الأخـــرى المشروعة وغير المشروعة ، من المستثمرين الأجانب ، ظهرت طبقة برجوازية أصبحت معروفة بتلك الصفة البغيضة وهى " طبقة الانفتاح " .

لقد كانت طبقة تستمد أسباب عيشها من الإتجار مع الغرب ، وتقوم هويتها على تقليدها المزرى للتصرفات الغربية . وبرغم بعض الآثار المفيدة الهزيلة التى ترتبت على سياسة الانفتاح ، فإنها لم تفعل شيئا لتخفيف حدة الفقر المدقع الـــذى جعل الدعم الحكومى أمرا حيويا بالنسبة للكثير من الناس .

وفى الثامن من يناير ١٩٧٧ ، استيقظ المصريون على الأنباء المزعجـــة بأن الحكومة تعمل على وقف نزيف خزانتها من خلال خفض الدعم الضـــرورى لمعظم المصريين وبين عشية وضحاها ، قفزت أسعار السلع الأساسية كـــالدقيق والأرز والصابون والبنزين بنسبة واحد وثلاثين فى المائة . وبحلول الظهـــيرة ، كانت البلاد تشهد أسوأ أعمال شغب منذ السبت الأسود عـــام ١٩٥٢ . وطـــوال اليومين التاليين ، أخذ العامة فى كل المدن الكبرى يشعلون الحرائـــق ويقومـــون بالسلب والنهب ، بينما كانت الجماهير تعبر عن سخطها علـــى أنـــور الســـادات وغليونه الدانهيل ورابطة عنقه الباريسية وحلله اللندنية .

وبرغم أن السادات ألقى مسئولية الشغب على الشـــيوعيين ، فـــإن المائـــة والستين قتيلا تشهد بمدى اليأس الفظيع الذى كان يعانيه المصريـــن العـــاديين . وكان على مصر إيجاد وسيلة للخروج من العجز الاقتصادى والمأزق العسكرى .

ولكن لم يكن ثمة صيغة تبدو فى الأفق لجمـــع مصـــر والأردن وســـوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل معا والجلوس إلـــى مـــائدة المفاوضـــات ، ناهيك عن التوصل إلى تسوية ، ولم يعد بإمكان السادات الانتظار طويلا ، كمـــا كان الحال فى الماضى لمزيد من جولات المهاترات والمزاج النفسى والتهديـــدات

المتخفية وراء الدبلوماسية . ولكى تظل مصر ورئيسها على قيد الحياة ، كان عليه أن يخرج من هذه الورطة بأسرع ما يمكن .

وانطلاقا من الثقة بالنفس أو اليأس ، رأى السادات أن مصر تستطيع العمل بمفردها ، وكانت مصر برغم كل شيء مركز الثقل فى العالم العربى . وكان السلام الإقليمى يتطلب مشاركتها ، مثلما تطلبت الحرب قيادتها . وإذا رفضت الدول العربية مساعدة مصر على التخفف من عبء المواجهة مع إسرائيل ، فإن السادات سوف يبعد عن المعادلة العسكرية ، وبذلك تتدنى قدرات العرب لتصبح قوة لا يعتد بها . ولكنه كان بحاجة إلى وسيلة . وقد قدم الوسيلة وولتر كرونكايت المعلق التليفزيونى الأمريكى ... ففى خريف عام ١٩٧٧ ، كان يتردد عبر الأثير حديث عن لقاء قمة بين أنور السادات ومناحم بيجن ، بل إن أنور السادات أعلن أمام برلمانه أنه سيذهب إلى القدس بحثا عن السلام إذا وجهت إليه الدعوة ... بيد أنه لم توجه إليه أية دعوة وفى الساعة التاسعة من صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من نوفمبر ، قام كرونكايت بتسجيل مقابلة مع السادات لبرنامج أخبار هذا المساء الذى تقدمه محطة سى بى اس . وعند سؤاله عما إذا كان على استعداد للتوجه إلى القدس بحثا عن السلام ، أجاب السادات بقوله : " إننى فى انتظار الدعوة المناسبة " . وتبع كرونكايت ذلك بسؤاله عن كيفية توجيه هذه الدعوة بين بلدين لا تربطهما علاقات دبلوماسية . وقفز السادات إلى إجابة السؤال قائلا : " لماذا لا يتم ذلك من خلال أصدقائنا – أصدقائنا المشتركين الأمريكيين؟ " .

وخلال الساعات الست التالية ، قام مكتب محطة سى بى اس فى تل أبيب بتسجيل مقابلة مماثلة مع مناحم بيجن ، وبعد فترة وجيزة من جس النبض ، قال رئيس الوزراء العنيد أنه يعتزم إرسال رسالة إلى السادات فى اليوم التالى من خلال سفيرى الولايات المتحدة فى تل أبيب والقاهرة ... "فلنجلس معا .. ونتحدث عن السلام" . وفى مساء هذه الليلة ، تم ترتيب اللقاءين معا باستخدام التكنولوجيا

الحديثة ، ووضع السادات وبيجن على شاشة واحدة منقسمة كما لو كانا يجريـــان حوارا مع كرونكايت معا فى وقت واحد . وفى اليوم التالى وصلت رسالة بيجـــن إلى القاهرة وقام أنور السادات بزيارته إلى القدس .

لقد كان أنور السادات بمثابة الأداة التى صنعت تاريخ مصـــر ولـــم يكـــن بالضرورة هو صانع هذا التاريخ ، فقد انتهز الفرصة وتوجه إلى القدس ليس لأنه كان ذا خيال واسع ولكن لأنه أدرك أن موظفى مصر وأصحاب المحلات فيهـــا ، وطلابها وفلاحيها غير مستعدين بعد الآن للقتال والنزيف من أجل الأمة العربية ، ولكن إذا كان أنور السادات قد أدرك مدى إنهاك مصر واستنزافها ، فـــإن بقيـــة العالم العربى لم يدرك ذلك . وانهالت الاتهامات من كافة العواصم العربية تتهـــم السادات بإحداث صدع فى النظام العربى كله . وأدى فشل السادات فـــى تمهيـــد الأساس مع الزعماء العرب الآخرين قبل أن يقدم على إعلانه المفزع ، إلى زيادة حدة هذه الاتهامات ، وأعرب السعوديون على وجه الخصوص ، وهـــم ممولـــو مصر ، عن سخطهم الشديد لعدم استشارتهم فى ذلك .

وكانت ليلة التاسع عشر من نوفمبر من الليالى الباردة التى أضاءها هـــلال القمر الباهت بضوئه الخافت ، وصعد أنور السادات ، الذى كـــان يرتـــدى حلـــة رمادية ذات ترابيع ورباط عنق تقليدى فضى اللون ، ســـلم إحـــدى الطـــائرات العمودية من استراحته فى الإسماعيلية الواقعة على قناة السويس متجها إلى مطار أبو صوير العسكرى . ولدواعى الأمن ، ظل مكان وساعة رحيله ســـرا . وبعـــد ترجله من الطائرة بخطى واثبة ، قام بتحية مجلس وزرائه والقليلين من أعضـــاء البرلمان الذين كانوا فى انتظاره قبل تفقده حرس الشرف .

وتوقف فجأة ليبتسم ابتسامة عريضة ويقهقه قائلا : " باربـــارا ، إذن فقـــد حضرت " وبينما كان يمد يده لمصافحة باربارا وولترز ، بشبكة ايه بـــى ســـى ، صاح قائلا : " وولتر " موجها كلامه لوولتر كرونكايت المذيع الرئيسى فى محطة

سى بى اس . حيث كان ممن يهتم السادات حقا بوجودهم ، وكان السادات أستاذا فى الدعاية ، وظاهرة فى الثقافة العربية . وكان يتودد إلى الغـــرب علـــى نحـــو طبيعى أمام أضواء التليفزيون وأصبح أسير ذاته فى سياق هذه العملية . وليعبس العرب وليقطبوا جبينهم ، فقد كان معه من يستطيعون اقناع حكومـــــة الولايـــات المتحدة والرأى العام الأمريكى بأن مصر ، مثـــل إســـرائيل ، صديـــق يســـتحق رعايتها .

وارتفعت طائرة الرئيس فى عنان السماء المظلمة ، وبعد أقل من أربعيـــن دقيقة ، وفى الساعة السابعة وثمانية وخمسين دقيقة ، هبطت الطائرة البوينج ٧٠٧ التى كانت حافتها الحمراء المزركشة تتلألأ تحت الأضواء الساطعة ، فى مطـــار بن جوريون فى تل أبيب ، وعزف نافخو الأبواق فى الجيش الإســـرائيلى لحنـــا ترحيبا بالضيف القادم . وبينما كان آلاف الإسرائيليين يلوحون بأعلام مصر ذات اللون الأحمر والأبيض والأسود ، تقدم أنور السادات ، رئيس مصر ، عبر بـــاب الطائرة ليبدأ مهمته المقدسة .

ووقف السادات على أرض المطار مشدودا بينما كانت إحدى فرق الجيش تعزف السلام الوطنى المصرى والنشيد الإسرائيلى " هاتيكفاه " ، ذلك النشيد الذى أشعل الاضطرابات عام ١٩٢٩ فى القدس . ثم بدأ فى تفقد الطابور الذى كان فى استقباله – رئيسا الوزراء السابقان جولدا مائير وإسحاق رابين ، وموشى ديـــــان وزير الخارجية فى حرب الأيام الستة ، وإريل شارون قائد القوات الإسرائيلية فى سيناء فى حرب أكتوبر ، ووقف على رأس الطابور مناحم بيجـــــن ، المحـــارب القديم الذى خاض حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

وأمضى السادلت ليلته فى فندق الملك داوود ، وهو الفندق الـــذى قصفتـــه جماعة الأرجون بزعامة بيجن عام ١٩٤٦ . وفى اليـــوم التـــالى ، يـــوم عيـــد الأضحى ، ذلك اليوم الإسلامى المقدس الذى يمثل ذكـــــرى قبـــول أب الأنبيـــاء

إبراهيم التضحية بابنه ، أدى السادات الصلاة فى المسجد الأقصى . وتكريما لأقباط مصر المسيحيين ، توجه الى كنيسة القيامة ، وعرج إلى "يادفاشم" النصب التذكارى الإسرائيلى لضحايا المحرقة (الهولوكست) النازية ، ومن المفارقات الشديدة فى هذه الرحلة غير المتوقعة أن رئيس مصر وضع إكليلا من الزهور على النصب التذكارى للجندى الإسرائيلى المجهول .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر ، صعد السادات إلى منبر الكنيست وألقى خطابا باللغة العربية استغرق سبعا وخمسين دقيقة ، وفى أقوى اعتراف يدلى به زعيم عربى بحق إسرائيل فى الوجود ، قال السادات : ".. إننا نوافق على العيش معكم ، لقد أصبحت إسرائيل أمرا واقعا يعترف به العالم العربى " .

غير أنه تمسك بمبدأ العرب الأساسى بمطالبة إسرائيل بإعادة جميع الأراضى العربية التى احتلتها أثناء حرب الأيام الستة – بما فيها مدينة القدس القديمة – والاعتراف بأن إيجاد وطن فلسطينى هو لب المشكلة بين العرب واليهود ، وكان أنور السادات حريصا على حماية وضعه المتداعى فى المجموعة العربية ، لكون التفاوض حول اتفاق منفصل مع إسرائيل من " شأنه أن يؤدى إلى انقسام العالم العربى ووضع مصر ووضعى فى موقف مستحيل " . وفى اليوم التالى توجه عائدا إلى الوطن .

وانفجر خمسة ملايين مصرى – من النساء المصريات اللاتى اعتقدن أن أبناءهن لن يؤخذن من أحضانهن بعد الآن ، والطلبة الذين يرتدون الجينز ورأوا فى النظام الجديد الأمل فى الحصول على وظائف ذات معنى ، والفلاحون ذوو البشرة الخشنة بجلابيبهم ، الذين كانوا على استعداد للتعلق بأى شىء قد يخفف من أعباء حياتهم – انفجروا فى فرحة غامرة يحدوهم الأمل ، لقد كان شعب بلد منهك القوى تحمل عبء النضال والكفاح العربى ثلاثين عاما يقول نعم للسلام . "مرحباً بالسادات " . " مرحباً ببطل السلام " .

وأصبح هؤلاء الذين هتفوا لعبد الناصر حينما كان يحكم كرسول للوحـــدة العربية الشاملة يحيون الآن السادات من أجل مصلحة مصر ، وكانوا فـــى تلـك اللحظة لا يهتمون كثيرا بموافقة السعوديين أو السوريين على مـــا يفعلونـه ... وأصبح الفلسطينيون ، رمز الوحدة العربية طي النسيان ، فقد كـان المصريـون يتبعون السادات فى طريق العودة إلى " الوطنية الفرعونية " وفى هذا اليوم ، عاد عهد الفراعنة .

لقد تحدى حج أنور السادات إلى القدس مبدأ الوحدة العربية كما لم يتحـداه شيء آخر . فرغم أن العرب كانوا يريدون تجاهل تمزقهـم وتـأكيد أسـطورة الوحدة، فقد أظهرت مصر حقيقة تفسخ العرب وتفككهم ... وقد اســتطاع أنـور السادات ، الذى يرأس مجتمعا كثيف السكان ، يتميز بالتجانس الواضـح ويتمتـع بإحساس متميز بالذات خارج نطاق العروبة ، أن يسلك طريقا لم يستطع أن يسلكه الآخرون ، ولو إنه كان أقل إصرارا على السفر بمفرده وأكثر إحساسا بمشكلات الملك حسين أو حافظ الأسد أو حتى بيت آل سعود الهـش ، فربمـا كـانوا قـد تسامحوا معه قليلا ، ولكن هذا الأسلوب لم يكن أسلوب السادات .

فبمجرد قيامه بحركته التاريخية ، طالب الآخرين بـأن يتبعـوا مصـر ، ونتيجة لذلك ، استمر ابتعاد مصر عن المجال العربى تدريجيا فى الفـترة بيـن ١٩٧٧ و١٩٧٩ . وحينما أقامت مصر سلاما منفردا مع إسرائيل ، أصبح هـذا الابتعاد كاملا .

وقد أدانت المملكة العربية السعودية رحلة السادات للقدس بـاعتدال ، أمـا سوريا فقد شجبتها بعنف . غير أنه لم يكن أى من الزعماء العرب يريد معاقبـة السادات إلى الدرجة التى تدفع المصريين ، الملتفين حول علـم بلادهـم ، إلـى الارتماء فى أحضان إسرائيل . وحتى المتشددون –فى سوريا وليبيـا والعـراق والجزائر واليمن الجنوبى – الذين اجتمعوا فى طرابلس فى ديسـمبر ١٩٧٧ لـم

يذهبوا إلى ما هو أبعد من تجميد العلاقات الدبلوماسية مع مصر وأعلنوا أنهم سيقطعون حضور اجتماعات الجامعة العربية فى القاهرة . وثار السادات وقام بقطع العلاقات الدبلوماسية وطرد دبلوماسي الحكومات الآثمة .

ونتيجة لذلك تزايد انفصال السادات وعزلته عن العالم العربى . وحينما التقت الدول العربية فى قمة بغداد فى أكتوبر ١٩٧٨ ، عرضت سوريا والسعودية، اللتان تمثلان الخطين المنشدد والمتساهل فى معارضة السادات ، شراء خروج مصر من التحالف الإسرائيلى الناشىء ، ورفض السادات ذلك . وفى داخل مصر أخذ الناس موقفا هجوميا حول الاتفاق مع إسرائيل . فاتهمت وسائل الإعلام المصرية سائر العرب بأنهم كانوا يسمحون بأن تقاتل مصر دائما مع إسرائيل . وكانت الرسوم الكاريكاتورية فى الصحف توجه اللكمات للفلسطينيين الذين يمارسون كفاحهم الثورى من النوادى الليلية فى بيروت .

وكان الكاتب الروائى نجيب محفوظ والكاتب الوطنى توفيق الحكيم يريان أن مصر لم تجن إلا الكوارث من ارتباطها بالعالم العربى ، غير أن أكثر أشكال الهجوم قسوة على العرب تمثل فى الملصقات على السيارات التى ظهرت فجأة فى القاهرة وكتب عليها " مصر : إما أن تحبوها أو تتركوها "

وتحت التظاهر بالشجاعة توقفت عملية السلام مع إسرائيل حتى شهر سبتمبر ١٩٧٨ ، حينما قام الرئيس الأمريكى جيمى كارتر بأسر مناحم بيجن وأنور السادات فى غابات ميريلاند .

وطوال ثلاثة عشر يوما ، أخذ الزعماء الثلاثة يتشاورون داخل حجرات كامب ديفيد الريفية ، وفى منتجع الرئيس الأمريكى ، بينما كان العالم ينتظر فى الخارج ، ومع قيام جيمى كارتر بدور القابلة ، توصل السادات المتلهف وبيجن العنيد إلى قدر قليل من الاتفاق . وبالنسبة لمصر ، كان السادات يساوم من أجل استرداد سيناء وإنهاء حالة الحرب المكلفة مع إسرائيل ، وفيما يتعلق بالعرب ، كان يطالب بالقدس ووقف بناء المستوطنات اليهودية التى احتلتها اسرائيل وحل مشكلة الفلسطينيين .

وأخذ المؤتمر يتقدم ويتأخر ، وكاد ينهار فى يوم الخميس الرابع عشر من سبتمبر ، وفى يوم الجمعة قام السادات بإبلاغ الأمريكيين أن الوضع لا أمل فيه وأنه سيعود أدراجه ، وأقنعه كارتر بالبقاء . وفى النهاية ، فى يوم الأحد السابع عشر من سبتمبر ، خرج جيمى كارتر ، بوجه شاحب بادى الإرهاق ليعلن التوصل إلى اتفاق ، وأن مصر وإسرائيل ستوقعان معاهدة سلام فى غضون ثلاثة أشهر مع تطبيع العلاقات بين البلدين خلال عام واحد ، وفى مقابل معاهدة السلام. ستنسحب اسرائيل فى غضون ثلاثة أعوام ، وكانت هى تلك القضية المصرية .

ولم يكن ثمة ذكر للقضايا العربية الكبرى - إعادة الضفة الغربية أو غزة أو الجولان ، أو تجميد بناء المستوطنات اليهودية فى هذه الأراضى ، أو أى شكل من أشكال الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ووضع القدس . وكل ما حققه السادات فيما يتعلق بهذه القضايا هو مجرد اتفاق غامض تعهدت إسرائيل بمقتضاه بإجراء محادثات للحكم الذاتى مع سكان الضفة الغربية وغزة بهدف التوصل إلى حكم ذاتى بعد انقضاء خمس سنوات وتجميد بناء مستوطنات جديدة مع تقدم المفاوضات ، ولم يحصل فلسطينيوا الشتات على شيء .

وفى اليوم التالى ، تراجع مناحم بيجين عن تعهده بتجميد المستوطنات . ونبذ السادات الرمز الأكبر للوحدة العربية - الفلسطينيين . فبالنسبة له ، كانت مصر هى القضية .

وفى التفكير الأمريكى ، كانت اتفاقات كامب ديفيد تمثل بداية لسلسلة من اتفاقات السلام بين إسرائيل والدول العربية ، وطبقا لهذه الخطة ، كان الملك حسين يتقدم الخطوة التالية لإبرام سلام مع إسرائيل . ثم السعوديون ، وأخيرا المتشددون الذين تتزعمهم سوريا ، وأدركت الولايات المتحدة جيدا أن ليس ثمة شيء فى الاتفاقات يروق لأى من الدول العربية فيما عدا مصر .

ولكى يحظى بأى فرصة للنجاح ، كان يتعين على أنور السادات أن يروج

السلام مع إسرائيل لسائر العرب ، وكان قد تعهد لكارتر بأن يتوجه إلـــى الأردن والمملكة العربية السعودية لشرح الاتفاق ، ولكنه لم يفعل ذلك على الإطلاق . إذ رفض السادات ، الذى استبد به إحساسه الكبير بذاته ودفاعه عن صورته التـــى رسمها له الأمريكيون باعتباره صانع السلام العظيم ، والتقرب من أولئك الذين قد ينافسونه على حب واشنطن . ونتيجة لذلك أغلــق البــاب دون ظهــور خــلاف محتمل. وقد قال الملك حسين بعد كامب ديفيد : " لنكن صرحاء ، إننى لـــم يتــم التشاور معى أبدا ودعوتى للمشاركة على الإطلاق " .

وقد تردد السعوديون ثم رفضوا أى اتفاق انطلاقا مـــن عقليـــة آل ســـعود القبلية، التى تتمسك بضرورة بقاء الدول العربية داخل إجماع الـــرأى العربـــى ، والتفت " جبهة الصمود والتصدى " التى تتألف مـــن ســـوريا والعـــراق وليبيـــا والجزائر واليمن الجنوبى ومنظمة التحرير الفلسطينية فى فندق شـــيراتون فـــى دمشق لنصب متاريسها ووضع العقبات أمام ما تراه تواطؤ مصر مع إسرائيل .

ومع ذلك ، وفى السادس والعشرين من مارس ١٩٧٩ ، نصبت خيمة ذات ألوان صفراء وبرتقالية زاهية عبر المروج الجنوبية من البيت الأبيض لاســـتقبال أنور السادات ومناحم بيجين . وشاهد ألف وخمســـمائة مـــن الضيـــوف ســـليل الصهيونية وسليل الفراعنة وهما يوقعان باسميهما معاهدة للسلام بين مصر ودولة إسرائيل . وكانت الأنخاب والابتسامات والأحضان وعلامات البهجـــة والفـــرح تضيء مائدة العشاء الرسمى الذر أعقب التوقيع .

ولكن فى الشرق ، كان المزاج العام فى مصر مقهورا ، ذلـــك أن الوقـــت الـــذى تصرف فيه السادات بمفرده فى عزلة عن الآخرين ، حينما مثل مشاعر مصر الداخلية ، واستعدادها للتخلى عن الكفاح المقدس والانزواء خلف هويتها العربية ، كان وقت انحسار المد ، وكانت معاهدة السلام انتصارا شخصيا لأنور السادات وجيمى كارتر .

وكانت بالنسبة لمصر شيئا مجهولا تحيطه الشكوك . وقد عمل الســـادات حرفيـــا

ومجازيا ، على إبعاد مصر تماما عن العالم العربى من خلال دفعها إلى عقد سلام منفرد مع إسرائيل ، وقد رفض السادات أية محاولة لإصلاح ما ترتب على ذلك من أضـــرار ، وبدلا من ذلك أخذ يهدد ويتوعد قائلا : " إن العرب لا شيء بدون مصر " .

وحينما أدان الملك حسين بأنه حفيد عبد الله ، رد حسين بتحفظـــه الدمـــث المعتاد " أنه من الصعب إلى حد ما أن يشجب السادات جدى لمـــا يـــتردد عـــن اتصاله بالصهاينة ، بينما قام هو نفسه بتوقيع سلام منفرد مع إســـرائيل". وكـــان الرئيس السورى حافظ الأسد ، زعيم جبهة الرفض ، هو الوحيد الذى رد علـــى هذه المهاترات . غير أن السادات لم يلن على الإطلاق . ورغـــم أن المصرييـــن قبلوا الكثير مما قاله عن سائر العرب ، إلا أن لغة السادات الحادة المسرفة تركت جراحها على شعب يعانى معاناة عميقة من الإحساس بالعزلة .

لقد أدى قرار السادات باختيار الخروج من الساحة العربية إلـــى تمزيـــق إحساس المصريين بالذات ، فقد ظلت رؤية جمال عبد الناصر ، التى جعلت مـــن مصر زعيمة للوطن العربى ، محتفظة بواقعيتها ، مهما كان احتمـــال فهمهـــا أو اتباعها على نحو منقوص . وبرغم محاولة السادات الإبقاء على صـــورة مصـــر حتى بعد انتقال مقر الجامعة العربية من القاهرة ، فإنه لم يكن يخفى على شعبه ، فى واقع الأمر ، أنه جعل مصر مركز للاشىء .

وقد ظلت مصر على قيد الحياة اقتصاديا بسبب المساعدات الأمريكية التى كـــانت جزءاً من اتفاقات كامب ديفيد ، ولأن الدول العربية كانت تفرق بين الشـــعب المصـــرى وحكومة السادات ، فقد ظل الثمانمائة ألف مصرى الذين يعملون فى الخليـــج محتفظيـــن بوظائفهم وواصلوا إرسال مدخراتهم إلى الوطن . وباسم الشعب المصرى أبقـــت الـــدول العربية المعتدلة على علاقاتها التجارية وخطوط طيرانها مع مصر .

وبغض النظر عن سياسات السادات ، كان معظم العالم العربـــى يـــرى أن المصريين مازالوا عربا .

وأصبحت قضية عقد سلام منفرد مع إسرائيل قضية ثقافية بشكل حتمـــى ، فمع ابتعاد السادات عن المجال السياسى العربى ، تزايد اعتماده علـــى شـريكه الأمريكى . ونظرا لالتزام الولايات المتحدة بالدور الذى يخدم مصالحها ومصالح السادات ، فقد ظهرت من جديد مخاوف وشكوك المصريين القديمة بشأن الغرب القوى ووسائله الشريرة . وأعقب ذلك إثارة التساؤلات حول مدى سلامة ثقافتهم.

وقد اتخذت التحذيرات التى أثارها اليسارى خالد محيى الدين عندما أقامت مصـــر علاقات دبلوماسية مع إسرائيل أهمية وبعدا جديدا : " إننا نلاحظ ضياع الهويـــة الممـــيزة لثقافتنا الوطنية ومن ثم شخصيتنا التى تعتمد على الأفكار الوطنية والأيديولوجية التحررية المعادية للاتجاهات الاستعمارية الأجنبية والتبعية الاقتصادية وعزلة الثقافة المصرية عـــن القاعدة العربية العريضة التى يستلهم منها المثقف المصرى أفكاره والتى يوجه إليها بالتالى خبرته التقنية وإبداعاته الأدبية والفنية والعلمية " .

وحينما اختار المصريون السلام ، فإنهم لم يكونوم يعـــتزمون التخلـــى عـــن زعامتهم الثقافية والسياسية للعالم العربى ، كما أنهم لم يختاروا أيضا الانفصال عـــن وعيهم العربى . فأيا كان مدى اعتقاد المصريين بتفوقهـــم الفطـــرى علـــى عـــرب الصحراء ، فإنهم يشتركون مع كل العرب فيما يصفه بطرس بطرس غالى بـــ"سوق التفكير المشترك " . فهم جزر من النسيج الثقافى الذى تتكون خيوطه من اللغة والدين والتجربة المشتركة ، وقد تبين بعد ذلك تدريجيا وعلى نحو قسرى أيضا أن الســـادات فصم مصر عن جذورها حينما جرها بعيدا عن العالم العربى .

وبحلول عام ١٩٨١ أصبح السادات معزولا تماما . وقد تعـــرض طـــوال حياته السياسية للعديد من التحولات النفسية العميقة ، فالرجل الذى كان يشكو فى أوائل الخمسينيات من أن " الغرب يكره العرب لأنهم يظنون أنهم زنوج " أصبـــح من أشهر الشخصيات العامة فى الغرب ، خاصة فى الولايات المتحدة . والرجل الذى كان يكره الغرب ذات يوم صار يحتضن رموز ثقافته الشعبية .

وواجه السادات الاتهام الذى وجهه له الكثيرون من أفراد شعبه بأنه أصبح غربيا ويعتزم جعل مصر قطعة من أوروبا ، وكان ذلك اتهاما مبالغا فيه . غير أنه لا يزال من المؤكد أن السادات قد أخطأ ، حينما عمل على ترسيخ وعى مصر الفرعونى وهويتها قبل الإسلامية ، فى حساب مدى تعلق المصريين بتراثهم العربى ، وتبين أنه ليست لمصر هوية وطنية مستقلة كما اعتقد البعض .

وبعد انقضاء سنتين على توقيع السادات لمعاهدة السلام مع إسرائيل ، فتر الكثير من الحماس الذى صاحب هذه المعاهدة ، إذ أن التلميحات العامة أخفقت فى منع إسرائيل من دمج القدس فى الدولة الصهيونية أو ضمها التدريجى للأراضى المحتلة . وبينما كان التوسع الإسرائيلى يفتت روابط مصر الجغرافية بعرب المشرق على نحو يهدد بالخطر ، كانت مصر تعيش كدولة محبطة تشعر بقلق بالغ إزاء دورها الإقليمى والعالمى .

فقد تحولت اتفاقية السلام التى أعلن عنها لتصبح كما وصفها به منتقدوها تماما – سلام منفرد بين دولة مصر وحدها ودولة إسرائيل . كذلك لم يسفر التحالف الكبير الذى أبرمه السادات مع الولايات المتحدة عن الرخاء المنتظر .

وفى السادس من أكتوبر ١٩٨١ ، وهو اليوم الذى كان يمثل الذكرى الثامنة لحرب ١٩٧٣ ، وأثناء العرض العسكرى الذى أقيم بهذه المناسبة اغتيل السادات على يد شخص يدعى خالد أحمد شوقى الاسلامبولى ، والذى كان على علاقة بأحد أفرع جماعة الإخوان المسلمين المصرية المحظورة .

وقد خلف محمد حسنى مبارك السادات كرئيس للجمهورية ، وشرع مبارك فى إعادة مصر إلى الأمة العربية التى كانت تنتظرها ، وأثبتت الحرب العراقية – الإيرانية مرة أخرى أهمية مصر فى المجموعة العربية ، وأدى تحسن العلاقات مع المملكة العربية السعودية إلى وجود من يرعى عودة مصر إلى القافلة العربية. وفى عام ١٩٨٤ انفتح باب منظمة المؤتمر الإسلامى لمصر . وفى عام

١٩٨٧ تم استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الجامعة العربية ، التى اعترفت مرة أخرى بمركزية مصر وأهميتها فى النظام العربى ، وفى عام ١٩٩٠ حينما تفجرت الأزمة فى الخليج ، كانت مصر مرة أخرى طرفا أساسيا فى الشئون العربية . وقبل أن تنحسر هذه الأزمة ، أصدرت الجامعة العربية قرارا بإعادة مقرها من تونس إلى القاهرة ، التى تعتبر دائما المقر الطبيعى للجامعة .

وقد عمل مبارك ، مثل عبد الناصر والسادات ، على حماية مصالح مصر الوطنية، وبينما عمل على إعادة مصر ثقافيا إلى جذورها العربية ، فقد أبقى سياسيا واقتصاديا على الارتباط بالولايات المتحدة ، إن لم يكن قد دعمه ، وتجعل المساعدات الأمريكية التى تقدم بموجب سلسلة اتفاقيات السلام مع إسرائيل ، مصر ، معتمدة اقتصاديا على الولايات المتحدة ، وعندما احتاجت القوات العسكرية الأمريكية التى أرسلت إلى المملكة العربية السعودية إلى شريك عربى، كان مبارك هو الشريك . ولا يزال السلام المنفرد مع إسرائيل قائما برغم أنه تعرض أحيانا للتوتر إلى حد الانهيار .

وبرغم ما يثقل كاهلها من مشكلات هائلة تؤثر على استقلال البلاد ، فإن مصر تقوم بدورها بالنسبة للأمة العربية وتحدد مصالحها الخاصة وتحميها كما لو كانت لا تعانى من أية متاعب ، ومثلما وجد المصريون فى عهد عبد الناصر أنهم لا يستطيعون أن يكونوا أنصارا للعروبة الشاملة على حساب مصالح مصر الخاصة ، كذلك وجد المصريون فى عهد السادات أنهم لا يستطيعون أن يكونوا مصريين يسعون إلى مصير منفصل عن العالم العربى الذى يرتبطون به تاريخيا وعاطفيا، وفى عملية التوازن الدقيق التى لا يفهمها إلا المصريون حق الفهم ، وجدت مصر أنه يتعين عليها التعايش مع النيل والصحراء.

الفصل الثالث

الملك حسين والخيانة الهاشمية

مع اقتراب حرب فلسطين ، كان حسين البالغ من العمر ثلاثة عشر عامـــا يرقب جده عبد الله وهو يرقص حول العرب ويتودد إلى الصهاينة . عندما نشبت الحرب بين دولة إسرائيل الجديدة والعرب ، قام عبد الله بضم الضفة الغربية لنهر الأردن ، بما فى ذلك الخليل وأريحا ونابلس والقدس الشرقية . وبتحرر عبد اللـــه من قيود الوحدة العربية ، واجه تهديد الجامعة العربية لـــه بطـــرد الأردن مـــن عضويتها بسبب نفاقه وسياسته المزدوجة .

وكان على عبد الله أن يختار بين أقل الشرين ضررا - إما العزلـــة فـــى العالم العربى أو الأراضى التى احتلها فى فلسطين . واختار الحفاظ على ماجنـــاه من مكاسب فى فلسطين . وبإظهاره عدم احترامه وثقته بالزعماء العرب الذيـــن تجمعوا ضده ، استمر عبد الله فى تدعيـــم علاقاتـــه مـــع إســـرائيل ورعايـــاه الفلسطينيين الجدد .

وفى ديسمبر ١٩٤٨ ، اجتمع عبد الله بمجموعة من الفلسطينيين المرنيـــن فى مجلس مدينة أريحا ، وبعد أن أقروا عبد الله على رأيه بأن فلسطين والأردن تربطهما تاريخية مشتركة ، منحت الوفود الفلسطينية ملك الأردن تفويضا كـــاملا بتمثيلهم ، حيث كان الفلسطينيون منقسمين انقساما شديدا فى مواقفهـــم ، ولكنهـــم عبروا عن ترحيبهم بقبول عبد الله لأنه لم يكن لديهم ملجأ آخـــر وعقـــب ذلـــك مباشرة تقريبا ، انقسم رعايا عبد الله بين أردنيين وفلسطينيين .

وكان تغيير اسم البلاد من شرق الأردن إلى المملكة الأردنية الهاشـــمية ، فى يونيو ١٩٤٩ ، انعكاسا لتطلع عبد الله إلى امتداد مساحة بلاده وليس توحـــد السكان داخل الحدود الممتدة ، وفى عام ١٩٥٠ ، أحس عبد اللـــه والأردنيـــون

بالتأثير الكامل للتسعمائة ألف فلسطينى من سكان الضفة الغربية وما يقرب من خمسمائة ألف من اللاجئين الفلسطينيين ، فالفلسطينيون الذين منحهم عبد الله حقوق المواطنة الكاملة فى عام ١٩٤٨ فاق عددهم عدد الأردنيين بنسبة اثنين إلى واحد .

ونظرا لأنه كان هناك عدد قليل للغاية من الأردنيين يعيشون غربى النهر ، فقد تركزت التوترات الاجتماعية المثيرة بين السكان الأردنيين المحليين والفلسطينيين الذين اندمجوا معهم فى الضفة الشرقية ، حيث كان رعايا عبد الله الأصليون يمثلون الحدود السكانية .

وتفاقمت عداوتهم للفلسطينيين ، الذين سرعان ما تحول كثيرون منهم بحكم أنهم نتاج مكتمل النضج لسواحل البحر المتوسط أو المشرق ، إلى الطبقات المهنية ، حيث أصبحوا تجارا وملاك أراضى وحرفيين مهرة وأصحاب محلات. ونظرا للفجوة الاقتصادية الكبيرة التى ظهرت بينهم وبين الأردنيين الأقل مهارة، فقد أصبح الفلسطينيون ضيوفا غير مرغوب فيهم ومتهمين بحرمان الأردنيين من مكانتهم وحقوقهم كأسياد لبلادهم ، ومن جانبهم لم يشعر الفلسطينيون بولاء كبير أو عرفان بالجميل للأردن .

وكان المتعلمون والمهرة منهم يمثلون خطرا على مملكة عبد الله . غير أنه انطلاقا من اعتبار أنفسهم أفضل وأرقى من الأردنيين على نحو مطلق ، كان الفلسطينيون ممن ينتمون إلى الطبقات الوسطى والعليا ، استنادا إلى الحتمية العربية للكرامة ، يرون أنه من المستحيل تصور أن يحكمهم حاكم "بدوى " ، أما بقية الفلسطينيين –غير المهرة ، والأميين غالبا ، والقطاعات الفقيرة عادة من اللاجئين– قلما شعروا بالولاء لعبد الله حتى على أساس المصلحة الاقتصادية . ولأنهم كانوا يعتبرونه صنيعة إسرائيل وأصل مصيبتهم وسببها ، فإنه لم يكن بالنسبة لهم سوى حاكم أجنبى آخر .

وبالنسبة لعبد الله ، فإنه لم يكن يثق بالفلسطينيين ولا يحترمهم على وجه الخصوص ، غير أنه فى الوقت نفسه ، كانت مصالحة السياسية ، والإقليمية والمحلية تتطلب أن يكون له قاعدة بين أولئك الذين يحتقرونه ، على الأقل ، وبحصوله على بعض التأييد من الفسلطينيين المميزين ، حاول عبد الله محو أى شعور بوجود كيان فلسطينى منفصل داخل مملكته . وتم استبعاد التاريخ والثقافة الفلسطينية وكذلك علم فلسطين من المدارس والمنتديات العامة .

ودفاعا عن مصالحه الخاصه ، استنكر عبد الله النزعة الانفعالية الفلسطينية باعتبارها "ضربة موجهة لمعنى الوحدة المقدسة فى ضمير كل عربى". غير أن الحاج أمين الحسينى ، الذى يضطرم غيظا فى منفاه ، لم يكن ليدع الكيان الفلسطينى يموت .

وفى اليوم العشرين من شهر يوليو عام ١٩٥١ ، غادر عبد الله عمان متوجها إلى القدس لأداء صلاة الجمعة ، وكان على علم بمؤامرة لاغتياله. وكان السفيران الأمريكى والبريطانى قد توسلا إليه ألا يذهب إلى القدس وخاصة المسجد الأقصى .

ولكن عبد الله كان يدرك أنه لن يستطيع دمج الضفتين الشرقية والغربية معا بالاختباء فى عمان ، وقبيل الظهيرة مباشرة ، بمجرد أن عبر عبد الله عتبة المسجد اغتاله صبى يدعى مصطفى شكرى كان ينتمى إلى جيش الخلاص القادم التابع للحاج أمين الحسينى ، وفى أعقاب اغتيال عبد الله ، تحول العداء الكامن بين الأردنيين والفلسطينيين إلى عداء علنى ، حيث هاجم العرب عربا آخرين بينما فر الفلسطينيون الذين يحملون السلاح باسم الحاج أمين إلى التلال الشمالية وجنود الفيلق العربى فى أثرهم .

وأخذ الشاب اليافع حسين ، الذى كان يرتدى غطاء الرأس ذا التربيع الحمراء والبيضاء الذى يرتديه البدو ، يتجول فى أرجاء الضفة الشرقية طلبا

للمساعدة. وعملا بتقاليد أهل الصحراء ، راح يتودد إلى الشيوخ المحليين ويقـوم بزيارتهم ، ويعرض خدماته على من يرى أن ولاءهم له فى المستقبل من الأمور الحاسمة . ولكن طلال ، والد حسين وأكبر أبناء عبد الله ، كان هو الملك .

وكان طلال يعانى من الوحدة وتقلب المزاج ، ومصاباً بالفصـام وكثـيرا ماكان يسقط صريع نوبات من الهياج ... وفى الحادى عشر من أغسطس عـام ١٩٥٢، أصدر البرلمان قرارا بخلعه عن العرش ، لخطورة حالته . وكان نايف، الابن الثانى لعبد الله ، الذى لم يكن يصلح لقيادة دولة وتسيير أمورها ، والـذى كرس حياته لمطاردة النساء ، غير جدير بتولى مقاليد الحكم .

وهكذا أصبح حسين بن طلال ملكا للمملكة الأردنية الهاشمية وهو فى سن السادسة عشرة . وبعد فترة قصيرة من الوصاية على العرش والقيد فى كلية ساند هيرست بلغ حسين السابعة عشرة من عمره ، واعتبر عمره ثمانية عشـر عامـا بحساب التقويم الهجرى ، حيث وقف أمام رعاياه ليحلف اليمين كملـك للبـلاد . ولأن القدر فرض عليه تبعات البلوغ ، فإنه لم يمر مطلقا بمرحلة المراهقة .

ويتسم حسين بشخصية انقباضية وانطوائية على العكس من عبد الله الـذى كان يتسم بالمرح والشخصية المنبسطة . ويطارده إحساس عميق بالقدرية نـابع من تعرضه لإحدى عشرة محاولة اغتيال ، حتى إن احتمالات موته كانت تفـوق احتمالات بقائه على قيد الحياة .

ومع ذلك فإنه يتباهى بثقته الطبيعية فى نفسه كملك ويتضح ذلك من خلال إحساس طاغ بالكرامة والنظام ، ونظرا لأنه ينتمى مباشرة إلـى سـلالة النبـى وباعتباره الحفيد الأكبر للرجل الذى أشعل نار الثورة العربية يعد حسين من أقرب الحكام الحاليين فى الشرق الأوسط إلى العرب . ومع ذلك فإنه أكثرهم ميلا إلـى الغرب. ولغته الانجليزية تخلو من الأخطاء نتيجة ما تلقاه من تعليم فـى إحـدى المدارس التبشيرية فى عمان ، وكلية فيكتوريا فـى الإسـكندرية وكليـة سـاند هيرست.

وهناك زوجتان غربيتان من بين زوجاته الأربع ، اللاتى تلقيــن تعليمهــن جميعا فى الغرب وفى العاشر من نوفمبر ١٩٥٨ ، تسلل أتباع عبد الناصر عــبر القطاع السورى من الجمهورية العربية المتحدة التى تسيطر عليها مصر ، وكان حسين يحلق بطائرته فوق الأراضى السورية فى طريقه لقضاء أجازته فى أوروبا حينما أصدرت دمشق أوامرها له بالهبوط ، وبعد أن سلم مهمة القيادة إلى طياره الاسكتلندى ، شاهد حسين الطائرة تغوص فى شاشة الــرادار ، وتــنزلق نحــو الأرض بسرعة مائتى ميل فى الساعة وتسابقت طائرتين ميــج -١٧ ســوريتين حتى حدود الأردن . وكان هذا الحادث مجرد بداية لحملة ماكرة من جانب عبــد الناصر لتخليص الأردن من ملكه .

وفى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ ، كانت حياة حسين فى أيدى القوميــين العرب المرتبطين بعبد الناصر . وداخل قصره ، اكتشف أن طباخ حســين كــان عميلا لعبد الناصر بعد أن قتل خمسة عشر قطة من قطط القصــر التــى كــان يجرب فيها جرعات مختلفة من السم . وقام شخص آخر بوضــع حــامض فــى زجاجة نقط الأنف الخاصة بالملك ولم يكتشف ذلك إلا حينما قامت إحدى مديرات المنزل التى كانت تصب ما تبقى فى إحدى الزجاجات فى زجاجة أخرى بملاحظة تآكل الجزء العلوى من القطارة .

وكثيرا ماكانت تحاك المؤامرات أيضا خارج القصر ، فأثناء توقفــه لتفقــد موقع جامعة عمان الجديد ، نجا حسين من محاولة تفجير قنبلة وضعــت داخــل مكتب رئيس الوزراء ، حيث كان الملك سيلتقى بأحد عشر شخصا قتلوا جميعــا عند انفجارها . ومع كل محاولة ، كان غضب حسين وحنقه على عبــد النــاصر يزداد باطراد ويجد فى بحثه عن مزيد من الحماية .

وبحلول عام ١٩٦٠ ، كان حسين يقدم نفسه بشجاعة باعتباره الحصن الذى يقى الغرب ضد ضربات موجات عبد الناصر النضالية المعادية للغــرب وضــد شحنات الأسلحة السوفيتية للعالم العربى . ومن خلال تلاعبــه بالمخــاوف مــن

الشيوعية ، والتى ترهب المسلمين والغرب على حد سواء ، وضع حسين نفســـه فى مراكز السياسة الأمريكية فى العالم العربى .

ونتيجة لذلك ، كانت الولايات المتحدة تقوم بضخ الأموال بانتظـــام داخـــل الاقتصاد الأردنى . وقد جعل المصدر الجديد للمال وصورة البطل العربى الـــذى يمكن الدفاع عنه والذى يقف فى مواجة الزحف الشيوعى ، حياة حســـين أكـــثر سهولة إلى حد ما .

بل إن حسين أبدى استجابة مقبولة للقومية العربية ، فمن خلال اعتراضـــه على الوحدة العربية على أساس قيام دولة عربية واحدة ، عمل حســـين بحمـــاس على تدعيم فكرة أن النموذج الأمثل للوحدة العربية يمكن أن يتحقق علـــى نحـــو أفضل من خلال الإبقاء على الحدود العربية القائمة . وإذ أعـــاد إلـــى الأذهـــان موضوعا مماثلا لموضوع دعاة الفرعونية فى مصر فى الثلاثينيات ، أشار حسين ببلاغة إلى أن قوة العرب تكمن فى التنوع والتباين ، وأن وجود مزيج من النظم الملكية والجمهورية يعطى قوة وحيوية للأمة العربية العظيمة بأسرها .

وخلال فترة أوائل الستينات ، تحسنت القوى المحركـــة الداخليـــة لمملكـــة حسين ، فقد كان اللاجئون الفلسطينيون يتركون باطراد بيئة المخيمـــات الكئيبـــة لينضموا للأنشطة الاقتصادية الأساسية . وبأعداد صغيرة بالنسبة لنسبتهم المئوية من السكان ، انضم الفلسطينيون للمؤسسة الحاكمة ، ومـــع انتشـــار الضواحـــى المزدهرة التى بنيت بأموال فلسطينية حول عمان والقدس ، بدا أن حســـين ، لـــو أتيح له الوقت الكافى ، قد يستطيع بالفعل تحويـــل الفلســـطينيين إلـــى أردنييـــن مخلصين .

بيد أن حسين استطاع فقط تهدئة شعبه الفلسطينى ، وليس الهـــرب منـــه . وفى عام ١٩٦٤ ، فكر عبد الناصر فى تكوين منظمة التحريـــر الفلســـطينية ، ككيان يجمع الفلسطينيين المشتتين ووافق حسين على مضض ، ولكن بشـــرط ألا

تصبح منظمة التحرير الفلسطينية منافسا لسلطته التى يمارسها على الفلسطينيين فى الأردن . ولكنه فشل فى الحصول على تعهد بعدم قيام الفدائيين الفلسطينيين باستخدام الأراضى الأردنية فى الإغارة على إسرائيل .

وكانت جماعات الفدائيين من الضفة الغربية تخترق الحدود الإسرائيلية وتوجه ضرباتها ، ثم تنسحب داخل الأردن . ونظرا لخشيته من الأعمال الانتقامية، قام حسين بوضع جيشه البدوى على الحدود لقطع الطريق على الفدائيين الذين يمرون بين الأردن وإسرائيل ، وفى المحصلة النهائية قام جيش حسين بقتل أعداد من الفدائيين الفلسطينيين يفوق ما قتله الإسرائيليون ، بيد أن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لحكومة إسرائيلية لاتتحمل الحدود التى يحكم حسين بموجبها .

ومع مشرق اليوم الثالث عشر من نوفمبر ١٩٦٦ ، كانت قوة إسرائيلية من أربعة آلاف رجل وخمس دبابات من طراز باتون تقعقع بأصواتها المرتفعة فى طريقها صوب قرية السموع بالضفة الغربية . وباسم تحقيق الأمن ضد الفدائيين ، قام الجنود الاسرائيليون باستخدام أسلحة عوزى فى إخراج مواطنى السموع المذعوريين إلى الشوارع وقامت الفرق الإسرائيلية ، أمام ناظريهم ، بتدمير المنازل ، وعيادة ومدرسة ومسجد القرية . ثم انسحب الإسرائيليون ، مخلفين وراءهم ثمانية عشر قتيلا فلسطينيا من رعايا الملك حسين.

وراح سكان الضفة الغربية يرددون عبارات الشجب ضد حسين لإحجامه عن مهاجمة إسرائيل . وأخذت مصر وسوريا فى توبيخه وتعنيفه . وبين عشية وضحاها ، انفجرت أحزان الفلسطينيين المكبوتة ومشاعرهم الغاضبة ضد نظام حسين وخرج رعاياه الثائرون من الفلسطينيين إلى الشوارع ، وأخذوا فى انتزاع صور الملك من الأماكن العامة وتمزيقها ، بينما كانوا يصرخون بعبارات الاتهام ضد العرش الهاشمى . ومع تحول المظاهرات إلى أعمال شغب ، أخذت مصر

وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ترقص حول النيران المحدقة بحسين . وبينما كان جيشه البدوى يمقع الاضطرابات كانت إذاعة القاهرة تصرخ منددة بالملك المحاصر .

وكان الدخول فى حرب مع إسرائيل هو آخر مايريده حسين ، ومثل عبد الله من قبله ، كان يسعى إلى التوصل إلى تسوية مع الدول الصهيونية . بيد أن هذا الخيار تلاشى بعد أحداث السموع ، على الأقل فى الأمد القريب . ومع الدعم والتأييد الكاملين من العالم العربى ، كان فلسطينيوا الأردن يطالبون بالدم الإسرائيلى ولم يكن بوسع حسين القيام بأى شئ سوى توزيع شحنة أخرى من شحنات الأسلحة الأمريكية على الفيلق العربى .

وخلال الستينات بذل حسين غاية جهده فى العناية بمعنويات قواته ورفاهيتها ، ولم يكن يمر أسبوع واحد تقريبا فى عمان دون أن تكون هناك فرحة التقاء الملك بأنصاره العسكريين وعلى رأسها الفيلق العربى البدوى ولكن حتى الفيلق العربى لم يكن يستطيع حماية حسين من الأحداث الدائرة خارج نطاق سيطرته .

وفى شتاء ١٩٦٧ وبينما كان عبد الناصر على شفا الحرب مع إسرائيل عن طريق المخادعة ، أصبح حسين واقعا فى شرك الوحدة العربية أكثر من أى وقت مضى . فقد كانت الإرادة الشعبية ، خاصة فى الضفة الغربية ، تطالب حسين بدعم عبد الناصر فى تحديه لإسرائيل . وإدراكا منه بأنه يواجه قدره ، رأى حسين أنه إذا دخل عبد الناصر الحرب فسيتعين عليه إما السير معه أو يواجه حربا أهلية مع الفلسطينيين داخل حدوده . وفى نهاية مايو ١٩٦٧، استسلم حسين ودخل عرين الأسد مع جمال عبد الناصر .

وفى صبيحة الثلاثين من مايو اتجه الملك حسين إلى القاهرة مرتدياً الزى العسكرى وكان حسين قد تحمل لسنوات الإهانات التى تبثها إذاعة القاهرة . وها

هو الآن يواجه عبد الناصر وجها لوجه . وما حدث بعد ذلك لا يمكن لأحد وصفه حتى حسين نفسه . واقترح عبد الناصر إبرام معاهدة بين البلدين للدفاع المشترك ووقعها الملك حسين بعد ذلك بوقت قصير ، وبجرة قلم ألزم نفسه بمعاهدة للدفاع المشترك لمدة خمس سنوات يتولى بموجبها لواء مصرى قيادة قواته العسكرية العزيزة على نفسه إذا نشبت حرب .

وقد طيرت إذاعة القاهرة النبأ على الفور ، ورفعت حسين من "حاكم هاشمى" إلى بطل مقدام . وعاد حسين إلى عمان فى اليوم نفسه . وحينما خرج من طائرته ، تسابق آلاف المتظاهرين الذين توافدوا من كافة أرجاء الأردن لتحية ملكهم . وفر منهم داخل سيارته التى رفعتها الجماهير تعبيرا عن النصر . فقد كان رجل الشارع يرى الملك قد تخطى العقبات التى تثير الخلاف والشقاق بين العرب .

وفى عام ١٩٦٧ ، لم يحارب الأردن سوى ثلاثة أيام فقط فمع الساعات الأولى من بعد ظهر اليوم الأول ، كانت إسرائيل قد دمرت إحدى وعشرين طائرة مقاتلة من طائرات حسين الإثنتين والعشرين من طراز هنتر . ولم تكن إسرائيل تريد استمرار الحرب مع الأردن تماما مثل الأردن . وبرغم أن رئيس الوزراء أشكول بعث برسالة إلى حسين من خلال قائد قوات الأمم المتحدة فى القدس بأن إسرائيل لن تبادر بالحرب ضد الأردن ما لم يهاجم الأردن إسرائيل ، فإن الرسالة لم تصل إلى حسين فى الوقت المناسب . نتيجة لذلك لم تترك الموجة الأولى من الهجمات الجوية الإسرائيلية لحسين سوى قواته البرية .

وكانت أربع فرق من المشاة تسيطر على الضفة الغربية . وكانت فرقتان مسلحتان أخريان تتمركزان فى المؤخرة ، إحداهما عند جسر دامية فوق نهر الأردن والأخرى فى مدينة أريحا . وكانت بقية الجيش فى الضفة الشرقية .

وطبقا لبنود اتفاق حسين مع عبد الناصر ، كانت جميع هذه القوات تحت قيادة اللواء المصرى عبد المنعم رياض .

وفى اليوم الثانى للحرب ، أصبح رياض متشائما ، وحث حسين على سحب كل قواته إلى الضفة الشرقية وأن يسعى للسلام . ورفض حسين ذلك وأصدر رياض أوامره بالانسحاب ، ونقض حسين هذا الأمر وألغاه . فكان الجنود الأردنيون الذين تتجاذبهم أوامر قائدين يتقدمون ويتقهقرون ويقاتلون أحيانا ويستسلمون أحيانا أخرى نتيجة لحالة الفوضى . وانسحبت الوحدة شديدة البأس التى كانت تسيطر على مدينة القدس القديمة المسورة ولم تترك سوى بضعة رجال من القناصة .

وفى ثالث أيام الحرب فقد حسين القدس وجميع أراضى الضفة الغربية . وهكذا كلفته حاجته إلى إثبات ولائه للقضية العربية ميراث عبد الله . وانتقلت المدن العربية الآهلة بالسكان مثل بيت لحم والخليل ورام الله ونابلس من أيدى الأردن إلى إسرائيل ، وخرجت القدس ، بما فيها قبة الصخرة المقدسة ، من قبضة الهاشميين . وكان إحساس حسين بالعار واليأس أفظع من أن يلاحظه المرء . فقد راح يتجول على نحو مستمر فى أرجاء مملكته برفقة عدد كبير من الحرس من قوات البدو ، وكان نادرا ما يخلع عنه زيه العسكرى .

وكان الضغط العصبى والعاطفى يدفعه إلى أن يصر على أسنانه بقوة لدرجة أنه اضطر فى يناير ١٩٦٩ إلى إجراء عملية جراحية بالفك فى لندن . وكان الأردن يعانى أيضا مثلما يعانى حسين . فعلى الصعيد السياسى ، دفعت حرب يونيو بمائتين وخمسة وخمسين ألف لاجئ فلسطينى آخرين إلى داخل المملكة ، جاءوا محملين بغضبهم وحنقهم . وعلى الصعيد الاجتماعى ، خسر الأردن سكان الضفة الغربية الأفضل تعليما والأكثر مهارة ، الذين يمثلون العمود الفقرى للخدمات المدنية والحياة الثقافية والفكرية فى الأردن .

وعلى الصعيد الاقتصادى ، ضاع ٨٥ بالمائة من إنتاج المملكة الزراعى و٤٨ بالمائة من إنتاجها الصناعى مع ضياع الضفة الغربية .

لقد تحطم اقتصاد الأردن . ولكى ينقذ ما تبقى من مملكته ، كان على حسين أن يحصل على أموال جديدة . ومع احتفاظه بالمساعدات الغربية ، جمع مائة واثنى عشر مليون دولار أخرى تقريبا من ليبيا والنظم الملكية فى الخليج . وسعى إلى توجيه المتعلمين من سكانه نحو الحصول على وظائف فى دول الخليج النفطية لكى يوفروا الأموال اللازمة لاقتصاد الأردن المتداعى من خلال التحويلات . وأعاد حسين بالتدريج التوازن إلى اقتصاده المحفوف بالمخاطر . بيد أن ذلك لم يعوضه عن الضفة الغربية الثمينة .

وكان يرغب بشدة فى بدء التفاوض مع إسرائيل أملا فى استعادة أراضيه. غير أنه لم يكن يستطيع الالتقاء علنا بالإسرائيليين خارج إطار مؤتمر عربى . وقد فسر ناشر إحدى الصحف العمانية بقوله : " فى اللحظة التى يجلس فيها الملك مع اليهود ، فإنه يوقع تفويضا بقتله . فمن المؤكد أنه سيقتل على يد أحد الفلسطينيين تماما كما قتل جده " .

لقد أصبح حسين يواجه راديكالية الفلسطينيين ، بعد أن تعرض لسنوات عديدة لخطر راديكالية عبد الناصر . ونظرا لما لحق بها من عار من جراء هزيمة ١٩٦٧ أفسحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التى أقامها عبد الناصر الطريق أمام منظمات الفدائيين التى كانت تشن غارات فدائية داخل إسرائيل . وأصبح الفدائيون يمثلون الأبطال العرب الذين لا يشق لهم غبار والمثال الجديد للوحدة العربية .

ومع ظهور منظمة فتح بقيادة ياسر عرفات فى مقدمة الصفوف ، استقر الفدائيون فى مملكة حسين وأدى قيام منظمات الفدائيين بإقامة أسوار جديدة من الأسلاك الشائكة وقام فدائيون يحملون الأسلحة الآلية عند المداخل إلى إبعاد

الموظفين الأردنيين عن المخيمات الفلسطينية . وبالتدريج ، أحكموا سيطرتهم الكاملة على هذه المخيمات ، وأنشأوا دولة داخل دولة الأردن .

وبرفضهم تذكرة حسين بأن الأردن قد أتاح للفلسطينيين المشردين فرصا تفوق كثيرا ما يتمتعون به فى سائر الدول العربية ، قام الفدائيون بشن حملة شعواء ضد محاولات حسين لإخضاعهم للحكم الأردنى ، وبحلول عام ١٩٦٨ ، كان حسين يواجه عشرين ألفا من الفدائيين المسلحين وعددا من السكان .

وبينما كان حسين يكافح للإمساك بزمام سلطته ، كان الفدائيون الذين يحملون أسلحتهم الآلية يجوبون شوارع عمان وسائر مدن الأردن ، وفى حين كانوا يشعرون بالخوف فى البداية ، فإنه بحلول خريف عام ١٩٦٨ بدأوا يختالون أمام الجنود ورجال الشرطة الأردنيين الذين كان الكثير منهم من أصل بدوى ، ويبدون احتقارهم للفدائيين من أبناء المدن .

ورد حسين على جرأة الفدائيين بإصدار أوامره بوضع حواجز للطرق وعربات تفتيش معرضا نفسه لمزاعم الفدائيين بأنه يعتزم وقف العمليات الفدائية ضد إسرائيل . ونظرا لعدم ارتداعهم ، أصدر الملك أوامره بتشكيل قوات من الجنود الأردنيين لجمع الشبان الفلسطينيين من الشوارع وترحيلهم إلى معسكرات صحراوية نائية للحيلولة دون انضمامهم إلى صفوف الفدائيين وكان حسين والفدائيون يدورون حول بعضهم البعض ويوجه كل منهما الطعنات واللكمات الاستكشافية للآخر ... ففى ديسمبر ١٩٦٩ ، أوقف الفدائيون زوجة الملك، الأميرة منى ، أثناء تجوالها بالسيارة فى شوارع عمان واحتجزوها ولم يطلق سراحها إلا بعد إصدار أوامر عاجلة من الحرس الملكى .

وفى العاشر من فبراير ١٩٧٠ ، أصدر حسين مرسوما من أحد عشر بندا حظر فيه على الفدائيين حمل الأسلحة داخل المدن وأمر فيه الفدائيين بترخيص عرباتهم وحمل بطاقات هوية . وكان ذلك كافيا لإشعال أعمال شغب استمرت

أربعة أيام وأسفرت عن مقتل ثمانية عشر شخصا وسيطرة الفدائيين على نصف عمان . وفى أواخر يونيو ١٩٧٠ ، اصطدم جيش حسين والفدائيون مرة أخرى حينما قام أحد الفدائيين بإطلاق النار على ضابط بالجيش الأردنى من إحدى الوحدات شديدة الولاء لحسين .

وفى اليوم التالى وجه الفيلق العربى نيران غضبه إلى معسكرات الفدائيين التى رد عليها الفدائيون بالمثل . وازداد العنف بين جيش حسين والفدائيين فى كافة أرجاء البلاد مع امتداد القتال تجاه عمان . وفى التاسع من يوليو ١٩٧٠ ، ترك الملك فيلته الصيفية خارج عمان وانطلق نحو العاصمة ... وبينما كان ينعطف فى إحدى الطرق ، دخل بسيارته فى كمين للفدائيين الفلسطينيين الذين أخذوا فى إطلاق النار من رشاش روسى الصنع عيار ٥٠ مم على موكب السيارات المرافق له والمؤلف من ست عربات لاندروفر مصفحة وسيارة الملك المرسيدس ، ورد حسين على النيران بإطلاق الرصاص من مسدسه عبر نافذة السيارة ، ونجح فى النهاية فى الفرار بفتح باب السيارة والتدحرج نحو خندق على الطريق .

وفى اليوم التالى رد الجيش الإهانة التى لحقت بمليكه بصب وابل من القصف المدفعى على مخيمات الفلسطينيين . وفقد حسين السيطرة على مملكته. فمع تصاعد أعمال العنف ، قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باقتحام فندق إنتركونتننتال الفخم فى عمان واحتجزت اثنين وستين من النزلاء الأجانب كرهائن.

وكان بينهم أصغر أبناء الرئيس اللبنانى الأسبق كميل شمعون ، وأربعة عشر أمريكا ، ومجموعة من الأوربيين وعددا قليلا من الجنسيات الأخرى ربضوا فى الدور السفلى من الفندق ، حيث كانوا يعيشون على الهمبورجر والبيرة المثلجة والبوظة إلى أن قصفت صواريخ الفدائيين محطة الطاقة الرئيسية فى عمان ، كذلك قام الفدائيون اليساريون بالاستيلاء على فندق فيلادلفيا

واحتجزوا خمسة عشر رهينة أخرى قبل هجومهم على إذاعة عمان . وتصاعد غضبهم وثورتهم . فقاموا بسرقة السيارات ونهب المنازل .

ثم وجهوا ضرباتهم إلى نصير حسين ومؤيده – الولايات المتحدة – فقام فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باحتجاز موريس درابر ، السكرتير الأول بالسفارة الأمريكية ، وهو فى طريقه لحضور حفل عشاء وقتلوا روبرت بيرى ، الملحق العسكرى الأمريكى البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاما والذى يتحدث العربية ، حينما فتح باب شقته .

وكان حسين يتجاذبه قطبان – قطب التوصل إلى تسوية مع الفدائيين وقطب الحرب الشاملة – ولكن القرار لم يكن لحسين وحده . فجيشه البدوى المعتز بكبريائه ، والذى لحق به الخزى بسبب الإهانات التى وجهها إليه الفدائيون ، كان على وشك إعلان التمرد والعصيان ، فحينما كان حسين يتفقد إحدى الوحدات المسلحة فى الزرقاء ، رفعت إحدى الدبابات صديرية للثديين فى هوائى الراديو الخاص بها ، كإشارة بالغة القسوة من جيش يرى أنه يعامل كامرأة .

ولدى عودته إلى قصره ، تحمل الملك الذى كان عمره أربعة وثلاثين عاما لوم قواده ثم مناشدتهم له لإطلاق العنان للجيش لضرب الفدائيين . وصرح حسين الذى بدا عليه الاكتئاب بوضوح ، فى حفل عشاء : "إننى لا أستطيع أن أكبح جماح جيشى أكثر من ذلك " .

وقد أجبر حسين على اتخاذ قراره فى السادس من سبتمبر ١٩٧٠ ، حينما كانت طائرة شركة تى دبليو إيه رقم ٧٤١ تئز فوق ألمانيا الغربية . فعند حدود لوكمسبورج ، قفز فدائيون من مقاعدهم وأمروا قائد الطائرة بالتوجه صوب البحر المتوسط . وبعد ساعات كانت الطائرة البوينج ٧٠٧ تدور فى سماء حالكة السواد فوق الأردن ، وفجأة ، بدأت الكشافات وأضواء عربات الجيب توضح الطريق عبر الأرض الصحراوية ذات الصخور الصلبة .

وهبطت الطائرة لتضرب بقوة وتتوقف فوق أحد الممرات الجوية المهجورة التى كانت تستخدم فى الحرب العالمية الثانية يعرف بإسم ممر داوسون ، وفى غضون أربعين دقيقة أخرى ، كانت أصوات محركات طائرة شركة سويس أير دى سى -٨ التى تم اختطافها غربى باريس تتز فى السماء نفسها حالكة السواد . وأسرع الرجال حاملوا الكشافات الضوئية مرة أخرى وعادت الكشافات الأمامية للسيارات للإضاءة من جديد وهبطت الطائرة للتوقف على بعد خمسين ياردة فقط من الطائرة البوينج ٧٠٧ .

وبعد ذلك بثلاثة أيام تم اختطاف طائرة بى . أو . إيه . سى - ١٠ كانت فى طريقها بين البحر ولندن لتأخذ مكانها فوق "مهبط طائرات الثورة" .

ومع الأزمة الناشئة عن مصير ثلاث طائرات وأربعمائة وتسعة وثلاثين راكبا ، بدا الأمر كما لو أن حكومة الأردن لم يعد لها وجود . بل إن مفاوضى الصليب الأحمر كانوا يتعاملون مباشرة مع الفدائيين وليس مع الحكومة .

وفى أحد المؤتمرات الصحفية ، قال متحدث باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عرف نفسه باسم بسام فقط ، "إن الحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئا لإيقافنا وإذا اقتراب الجيش من الطائرات ، فسيتحمل النتائج المترتبة على ذلك . نحن نخاطب من يطلقون النار وليس الحكومة " .

وفى الثانى عشر من سبتمبر أطلقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين سراح جميع الرهائن باستثناء ستة وخمسين منهم ، وفى هذا الفصل من مأساة ممر داوسون، قام المختطفون بتفجير الطائرات الثلاث المعبأة بالمتفجرات فى السماء الصافية غير الملبدة . وتوجه الركاب الذين أطلق سراحهم إلى فنادق فى عمان واختفى بقية الرهائن فى المعسكرات الفلسطينية وأمضوا الأيام التسعة الأخيرة من أسرهم وسط الحرب الدائرة بين حسين والفلسطينيين .

وفى السادس عشر من سبتمبر ١٩٧٠ توجه الملك حسين إلى إذاعة عمان

لإعلان الأحكام العرفية " لقد أصبح لزاما علينا اتخاذ سلسلة من التدابير لفرض القانون والنظام لحماية أرواح المواطنين وممتلكاتهم وشرفهم " وكان أيلول الأسود.

وأغلقت عمان ؛ ووضع أصحاب المحلات أقفالا ثقيلة على أبواب محالهم وأسرعوا بالعودة إلى بيوتهم . وتوقفت الحافلات وسيارات الأجرة . وترك رجال الشرطة مواقعهم . وأغلق المطار . وقبيل طلوع فجر السابع عشر من سبتمبر ، تحركت دبابة من فيلق حسين العربى وعشرات من حاملات الجنود المصفحة من الاستاد الرياضى الذى تكلف ملايين الدولارات فى الجزء الشرقى من المدينة وبدأت فى الزحف على المدينة .

وفى غضون دقائق ، كانت الطوابير الطويلة المغبرة تجوب الشوارع الضيقة والموازية لجبل عمان وجبل وحدة وتنتشر فوق تلال عمان السبعة ذات الألوان القاتمة . وفى مدينة مبنية بالحجر الجيرى ، قام الجيش المزود بالآليات بشق طريقه بتوجيه وابل من قذائف المدفعية التى ضربت بعنف مواقع الفلسطينيين المحصنة وهدمت مبانى كاملة وسوتها بالأرض للحيلولة دون وجود أى مواقع للقناصة أعلى المبانى ، ورد الفدائيون الأكثر تفوقا ، والذين كانوا يقاتلون من وراء حواجز من أكياس الرمل وحواجز الشوارع ، بوابل من نيران الرشاشات والصواريخ المضادة للدبابات .

وكان حسين يتوقع أن يسفر هجومه السريع المفاجئ عن نصر مؤزر خلال ساعات . وكان يريد أن يكون الحرب قصيرة ، لأن صراعاً طويلا ضد الرمز الحالى للعروبة كان من شأنه أن يوجه الرأى العام العربى الواحد ضده . ولكن بدلا من الاستسلام تمركز الفدائيون خلف جدران مئات المنازل ذات الحجارة السميكة المنتشرة فى أنحاء عمان والمدن الأخرى .

وساعة بعد ساعة ، ويوما تلو آخر ، ظل الجانبان مشتبكين فى القتال بينما كان ياسر عرفات والملك حسين يسعيان على نحو محموم للتوصل إلى صيغة من شأنها إنقاذهما معا . بيد أنه حينما دعا الملك إلى وقف إطلاق النار أصدر قادته "إنذاراً نهائيا" للفدائيين بالاستسلام أو التعرض للإبادة . وبإستخدام تفوق قوتهم ، قام جيش حسين البدوى بشق طريقه عنوة من منزل إلى آخر بحثا عن الفدائيين الفسطينيين وكان الأردنيون والفلسطينيون على السواء يقبعون وهم فى مسيس الحاجة للطعام والماء ، فى الأدوار السفلى وداخل الغرف .

وبعث الصليب الأحمر والهلال الأحمر العربى ، اللذان لم يستطيعا الوصول إليهم ، رسالة تقول : " إن أطفالكم يموتون من العطش . ولن نستطيع مساعداتكم إلا بإبلاغكم أنكم قد تستطيعون إنقاذ أرواحهم بأن تدعوهم يشربون بولهم " .

وبتصميمهم الذى لا رجعة فيه على القضاء على الفدائيين قضاء مبرما ، قام جنود وحدات الصفوة التابعة لحسين بإحياء العادة البدوية القديمة بتكسير أصابع أسراهم حتى لا يستطيعوا إطلاق النيران عليهم مرة أخرى بعد فترة وجيزة . ومع ذلك إستمرت عجلة الحرب فى الدوران .

وصمد الفدائيون باتحادهم مع السكان الفلسطينيين . ومن ثم أصبحت المخيمات أهدافا رئيسية لهجوم الأردنيين . ومنذ الأيام الأولى للحرب . زحفت الدبابات نحو مخيمات اللاجئين المعروفة بأنها معاقل قوية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفتحت عليها النيران . وتحولت أجزاء من مخيم وحدات اللاجئين الذى تعمه الفوضى ، على الفور إلى مجمع للموتى والقتلى . وفى مخيم الحسينى ، الذى كان يسكنه خمسة وأربعون ألف فلسطينى تحولت عشرة أكواخ إلى أجزاء متناثرة . وبعد أربعة أيام متتالية تحت وابل القصف المدفعى ، لم يبق قائما من المنازل الأيلة للسقوط سوى عشرين بالمائة فقط . ومع ذلك لم ينكسر الفدائيون .

وبالنسبة لحسين الذى يؤمن بالقضاء والقدر ، بدا الوضع ميئوسا منه . فقد تبين أن سائقه الخاص واحد من الفدائيين ، وحاول طباخ آخر من طباخيه أن يدس له السم فى الطعام ، وحينما ألقى القبض على هذا الطباخ وجدوا فى حوزته قنبلة يدوية . وقام العراق وسوريا ، باسم الوحدة العربية ، بوضع قوات فى حالة استعداد لمساعدة الفدائيين . وإذ أعد نفسه لنهاية حكم أسرته ، أمر حسين جميع نساءه وأطفال عائلته بالتوجه إلى العقبة .

وطوال فترة صيف عام ١٩٧٠ ، وبينما كانت الأحداث فى الأردن تتجه نحو أيلول الأسود ، كان الرئيس ريتشارد نيكسون يعد ويخطط للرد الأمريكى على ذلك ، ومع اختطاف طائرة شركة تى دبليو أيه فى شهر سبتمبر ، تم وضع طائرات الطوارئ الأمريكية التابعة للقوات العسكرية الأمريكية فى شرقى البحر المتوسط وأوروبا فى حالة استعداد للقتال ، وفى الوقت الذى بدأت فيه الحرب الأهلية ، كانت الولايات المتحدة قد حشدت قدرا كافيا من القوة فى المنطقة لدعم حسين ، وتبعتها إسرائيل من خلال القيام بمناورات عسكرية واسعة على طول حدودها مع الأردن ، وعلى الجبة العربية ، تردد العراق ثم قرر سحب قواته المتمركزة فى شمال الأردن ، ولم يتبق سوى سوريا . ولكن حينما عبرت الدبابات السورية الحدود الأردنية من الشمال ، صعدت الولايات المتحدة حالة الاستعداد للقتال مرة أخرى كتحذير للسوفيت لإبعاد السوريين ، فقد كانت مصالح الاتحاد السوفيتى ومصالح حافظ الاسد ، وزير الدفاع السورى وأحد المعارضين لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ملتقية معا . وتراجعت الدبابات صوب الشمال وفى النهاية أعلن عبد الناصر ، الأب الروحى للقومية العربية ، "أننى غير مستعد لإرسال قوات للأردن " ، فعبد الناصر الذى طحنته حرب ١٩٦٧ ، لم يكن على استعداد للقيام بأى شئ سوى لعب دور الوسيط فى حرب تمزق روح الوحدة العربية .

وفى السابع والعشرين من سبتمبر ، وقف عبد الناصر مبتسما بين عرفات وحسين فى قاعة ألف ليلة وليلة بفندق هليتون القاهرة ليعلن انتهاء الحرب بين الملك والفدائيين . وفى السابع من نوفمبر قام آخر الفدائيين بتسليم سلاحه لحسين وغادر وسط عمان مكرها . وأصبح يفصل حسين عن الفدائيين وعن الكثيرين من سكانه الفلسطنيين خمسة وثلاثون ألف قتيل وجريح ونهر من الدماء وقد انتصرت الروابط الروحية التى أقامها الهاشميون مع البدو وانحياز عدد كبير من الفلسطينيين إلى جانب الملك ضد منظمة التحرير الفلسطينية مما سمح لحسين بالحفاظ على التوازن السياسى .

وفى النهاية لم تفعل الدول العربية شيئا لمساعدة الفدائيين المحصورين ، المحببين إلى قلوب الجماهير العربية .

غير أن حسين خرج من الحرب ضعيفا من كل النواحى فيما عدا علاقته بالبدو التابعين له . فالإسرائيليون ، الذين استولوا على أراضيه أصبحوا يحتقرونه لما أشاع من فوضى فى مملكته . والسوريون والعراقيون ، بحكومتيهما الثوريتين كانوا يكرهونه ويتطلعون للاستيلاء على أجزاء من صحاريه لأنفسهم ، والأمريكيون ، الذين استمرت علاقته بهم ثابتة طوال أربعة عشر عاما ، قاموا بتعويضه عن الأسلحة التى خسرها بمعدات عتيقة تماما .

وبرغم أن الدول العربية كانت ترقب بنوع من الرضا قيام حسين بالقضاء على الفدائيين الفلسطينيين الذين خرجوا عن نطاق السيطرة ، فإن متطلبات الوحدة العربية كانت تملى عليه طرد المسئولين عن كبح جماح حركة الفدائيين من الحظيرة العربية . وأصبح حسين خائنا عربيا وظهرت على حسين ، الذى كان لايزال فى الخامسة والثلاثين من عمره ، الآثار الجسدية لأزمة أخرى ، حيث كان يخضع لفحوص طبية فى إحدى مستشفيات لندن لعدم انتظام ضربات قلبه .

وفى أعقاب الحرب الأهلية ، اتجه الملك إلى رعاياه الفلسطينيين الذين أيدوه وساندوه ووضع الذين وقفوا ضده منهم تحت المراقبة الشديدة ، وفى الوقت نفسه أخذ فى البحث عن وسيلة للتوصل إلى تسوية مع إسرائيل يستعيد بها الضفة الغربية . ومن وقت لآخر ، كان الملك وأبا ايبان ، وزير خارجية إسرائيل ، ينزلان على نحو غامض فى فندق واحد فى لندن . وفى أكثر من مناسبة واحدة، كان هناك قاربان ، أحدهما أردنى والآخر إسرائيلى ، يتعطلان عن السير مصادفة فى ساعة متأخرة من الليل على مقربة من مياه خليج العقبة . وفى مارس ١٩٧٢ ، عرض حسين خطته بشأن "مملكة عربية متحدة" وهى اتحاد فيدرالى لضفتى الأردن مما يتيح للفسطينيين قدرا كبيرا من الحكم الذاتى تحت العلم الأردنى . والواقع أن حسين كان يؤكد من جديد أحقيته فى الضفة الغربية بلغة كان يأمل أن تروق للفلسطينيين المعتدلين . ولكن الرفض الإسرائيلى وأد هذه الخطة قبل أن يعرف حسين رد فعل رعاياه السابقين فى الضفة الغربية .

وبينما كان حسين يفكر فى مستقبل مملكته وينتظر طرده من الحظيرة العربية ، كان أنور السادات يدبر حرب ١٩٧٣ العربية ضد إسرائيل . ولم تكن حرب مصر هذه المرة حرب الأردن . فقد وافق حسين ، الذى يدرك تمام الإدراك كارثة ١٩٦٧ ، فى آخر لحظة أن يكون بمثابة جبهة ثالثة لمصر وسوريا. غير أنه لم يفعل شيئا سوى وضع جيشه فى حالة استعداد وانتظار الأحداث . وحينما التزم الجيش الأردنى فى النهاية بالمعركة ، كان ذلك لتبقى جبهة حسين الداخلية هادئة ، وليس لرفع راية الوحدة العربية . ومع خسارته لثمانية وعشرين رجلا وثمانية عشر دبابة وتسع عشرة عربة مصفحة ، خرج حسين من الحرب وهو يشعر بالرضا عن شرفه العسكرى ودون أن تمس مملكته فى الضفة الشرقية . ولكن الضفة الغربية بعيدة عن متناول يده . وإذا كان عليه إقناع إسرائيل بالتخلى عنها ، فقد كان عليه أولا إقناع الفلسطينيين بالسماح

بتمثيلهم . وقد حاول حسين منذ عام ١٩٦٧ إقناع الفلسطينيين والعرب الآخرين بأن الأردن يعد الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن يمارس الفلسطينيون من خلالها أى شكل من أشكال الحكم الذاتى . وكانت تلك رسالة موجهة للعرب الذين لا يريدون الإنصات إليها . وفى أكتوبر ١٩٧٤ ، انعقدت الجامعة العربية فى الرباط بالمغرب لتحديد من يمثل الفلسطينيين . وفى الفترة بين ١٩٧٠ إلى ١٩٧٤ كان ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية يزحفان للخروج من هوة الهزيمة التى منيا بها فى الأردن ليمسكا مرة أخرى بزمام القضية الفلسطينية التى كانت لاتزال تمثل بوتقة الوحدة العربية .

وقد جاءت منظمة التحرير الفلسطينية إلى الرباط وهى ترتدى عباءة تفويض الفلسطينيين . وبينما كان حسين يجلس بلا حول له ولا قوة ، أعلنت الجامعة العربية ، التى كانت تتحدث باعتبارها صوت الأمة العربية ، أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى .

وقامت الدول العربية ، التى تلعب بوحدة وهمية ، بدفن حسين فى مقبرة الذل والخزى . ولكنه قبل القرار علنا على الأقل ، وقد أدى قبول حسين على نحو كريم للقرار العربى إلى إعادته داخل حظيرة السياسة العربية . وأدرك الواقعيون السياسيون بين العرب وحتى بين قطاع من الفلسطينيين أن إسرائيل لن تتفاوض مطلقا مع منظمة التحرير الفلسطينية .

ومنذ عام ١٩٧٤ وحتى ١٩٨٨ ، كان حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية يتصارعان حول مسألة أيهما يمثل فلسطينيى الضفة الغربية ، الذين لايزالون يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلى بعد انقضاء سبع سنوات على حرب ١٩٦٧ .

وكان التنافس حاسما بالنسبة لحسين ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، فبالنسبة لحسين ، كان اعتراف الفلسطينيين بحقه فى التفاوض مع

إسرائيل نيابة عنهم من شأنه أن يهيئ له فرصة استعادة الضفة الغربية . وبالنسبة لعرفات ، كان إبرام اتفاق مع حسين يعنى تسليم سيطرة الفلسطينيين على مصيرهم إلى الشخص الكريه الذى قام بهزيمة الفلسطينيين عام ١٩٧٠ . وبالنسبة لفلسطينى الأردن والضفة الغربية ، كان حسين يمثل فرصة سانحة لكسر سيطرة إسرائيل على الأراضى الفلسطينية ، بينما كان عرفات يتمسك بشدة على نحو لاسبيل إلى مقاومته بوعده المحير بدول فلسطينية .

إن استطلاع رأى الفلسطينيين فى الأردن يعد دائما عملا غير دقيق ومحفوفا بالمخاطر ، فالمخيمات بقرار حكومى وبالسيطرة الفلسطينية الداخلية تكاد تكون محظورة تماما بالنسبة للصحفيين . وتستطيع أجهزة الأمن التابعة لحسين تحويل أى فلسطينى يعتمد على الاقتصاد الأردنى إلى مؤيد متحمس للملك فى وجود أحد الأجانب ، ولايتم إرساء أساس من الثقة إلا بعد فترة طويلة من الاتصالات لكى تظهر أعماق مشاعر الفلسطينيين الذين يتوقون إلى قيام حكومة خاصة بهم وبمجرد عبور هذا الجسر ، يقوم أى فلسطيني بتحويلك إلى آخر .

إن إمكانية قبول حسين كأداة تفاوض للفلسطينيين كانت ترتفع وتنخفض وفقا لظروف منظمة التحرير الفلسطينية وقدرة حسين على بقاء الباب مفتوحا أمام إسرائيل دون أن ينأى بنفسه عن العرب ، وقد حدث الاختبار الحاسم الأول عام ١٩٧٩ ، حينما التقى الرئيس المصرى أنور السادات ومناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلى بالرئيس الأمريكي جيمى كارتر فى كامب ديفيد . ولم توجه الدعوة إلى حسين . ورفض أن ينحو منحى مصر لتصبح الأردن الدولة العربية الثانية التى تعقد سلاما مع إسرائيل .

وكان حسين يرفض اتفاقات كامب ديفيد لأنها فشلت فى معالجة أكثر الأمور الحيوية بالنسبة له – وهى مستقبل الضفة الغربية والقدس العربية– . وقام

جيمى كارتر ، الذى أغضبه ذلك ، بإرسال مستشاره للأمن القومى ، زيجنيو بريزينسكى ، إلى عمان لتهديد حسين بشأن شحنات الأسلحة الأمريكية القادمة ، ولكن سايروس فانس ، وزير خارجية كارتر آنذاك كان يفهم موقف حسين من حيث كونه يسير فى طريق وعر تحفه المصاعب ، فالضغوط التى تعرض لها إبان كامب ديفيد كانت ضغوطا شديدة لدرجة أنها لاتدع مجالا للدهشة من أنه لن يتقدم على المخاطر - فهناك المخاطر الاقتصادية المحيقة بالبلاد ، والمخاطر الجسدية التى تنتظره هو شخصيا . كما أنه يعتمد اعتماداً كبيرا على المعونات السعودية . وهناك عملية التوازن الصعبة مع سوريا والعراق ، بالإضافة إلى المشكلات المعروفة مع الفلسطينيين .

واتباعا لخطى "جبهة الرفض العربى" قام حسين بقطع علاقاته الدبلوماسية مع مصر بسبب ما اعتبره خيانة أنور السادات للقضية العربية . غير أنه بينما كان يلتزم بخط العناد والتصلب العربى ، كان حسين يناور ليحتل موقعا مجوريا يصبح فيه لاغنى عنه فى أى حل للقضية الفلسطينية بالنسبة للدول العربية المعتدلة ، وبالنسبة للولايات المتحدة وبالنسبة للفلسطينيين أنفسهم .

وقد تجمع ذلك كله فيما يبدو فى صيف ١٩٨٢ م حينما تحولت الحرب الأهلية اللبنانية إلى حرب بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فقد كان ناقوس الموت يدق حول ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية فى الوقت الذى كان يبدو فيه الملك حسين آمنا داخل مملكته أكثر من أى وقت مضى ، وتحسن الاقتصاد ، هذه المرة ، بسبب البليون دولار التى كان يحولها الثلاثمائة وخمسون ألف أردنى الذين كانوا يعملون فى دول الخليج إلى الوطن ، وأدى انتعاش السوق العقارية إلى انتشار المنازل الفخمة والشقق الواسعة ، التى كانت ملكا لكثيرين من الفلسطنيين ، فوق تلال عمان .

وبلغ حسين حدا من الثقة حتى أنه عند طرد منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت فى أغسطس ١٩٨٢ ، وافق على بقاء ألفين من الفدائيين داخل الأردن.

وفى أول سبتمبر ١٩٨٢ ، تقدمت الولايات المتحدة ، انطلاقا من سعيها للبحث عن وسيلة لتهدئة الوضع فى الشرق الأوسط بعد الصيف الذى قامت خلاله القوات الجوية الإسرائيلية بتحويل بيروت إلى جحيم ، بمبادرة ريجان التى كانت فى جوهرها إحياء لمشروع حسين لعام ١٩٧٠ الذى دعا فيه إلى أن يتولى الأردن مسئولية الضفة الغربية وفلسطينييها مقابل اعتراف العرب بإسرائيل . ووافق حسين على الخطة ، مثلما كان سيقبل أية خطة من شأنها أن تعيد الضفة الغربية إلى السيادة الأردنية .

غير أنه لم يستطع التقدم بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية على اتفاق يسمح لحسين برئاسة وفد أردنى – فلسطينى مشترك للتباحث مع إسرائيل . وتوجه ياسر عرفات جوا إلى عمان ، حيث مكث يومين بحث خلالهما مع حسين كافة التفاصيل .

بيد أن ياسر عرفات ، الذى كان يواجه معارضة من فصائل منظمته التى تدعمها سوريا ، لم يستطع إعطاء موافقة منظمة التحرير الفلسطينية . وفى العاشرة من أبريل ١٩٨٣ ، اعترف حسين ، والدموع تترقرق فى عينيه بفشل جهوده فى إقناع منظمة التحرير الفلسطينية بالانضمام إليه . وألقى حسين باللائمة لفشل محادثاته مع منظمة التحرير الفلسطينية على أشقائه العرب . " إنه لمن المؤلم أن نرى فرقتنا التى تجعلنا هدفا لمطامح الكثيرين " .

وحينما بدا أن المرض قد أبعد الرئيس السورى حافظ الأسد –ذو المصلحة فى عرقلة التعاون الأردنى الفلسطينى– عن المعادلة السياسية ، حاول حسين

اجتذاب الفلسطينيين مرة أخرى إلى عملية التفاوض . وطوال عام ١٩٨٤ ، أخذ فى إطلاق سراح الفلسطينيين من معتقلاته ، والتقى بعرفات ، وعمل على تشجيع وتدعيم المشروعات الاجتماعية الأردنية فى الضفة الغربية ، وذهب إلى واشنطن للحصول على تأييدها ، وأعاد علاقاته الدبلوماسية مع مصر ، واستضاف اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى السابع عشر فى عمان ، كل ذلك كمحاولة لإقناع الفلسطينيين بالتفاوض مع إسرائيل تحت رعايته .

ومع مطلع عام ١٩٨٥ عاد عرفات إلى عمان لتثبيت دعائم اتفاق تم التوصل إليه منذ عامين كانا حافلين بالاقتتال داخل منظمة التحرير وفى الحادى عشر من فبراير وقع الشريف حسين وعرفات الأشيب اتفاقا ينص على أن الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية سوف يعملان معا للتوصل إلى مبادرة للسلام تستند إلى مبدأ مبادلة الأرض بالسلام مع إسرائيل وبعد أن خرج من كارثة ١٩٦٧، وعزلة ١٩٧٠ ، ورفض ١٩٧٤ ، ها هو حسين يحظى الآن بأفضل فرصة تسنح له لاستعادة الضفة الغربية .

وقد أضفى عليه الاتفاق الذى أبرمه مع عرفات نوعاً من المصداقية فى أعين العالم العربى . مما يتيح له الشروع فى التباحث مع إسرائيل ، وقد بدت الحكومة الإسرائيلية فى ظل رئاسة شيمون بيريز مستعدة لوضع التفاوض من الأردن داخل إطار دولى كى تمنح حسين قدراً آخر من الشرعية أمام العرب . وهكذا بدا حسين فجأة فى وضع يسمح له بإنقاذ مملكة عبد الله الهاشمية .

بيد أن الاتفاق كان محكوما عليه بالموت منذ مولده . فقد كانت لغته مبهمة وغامضة تماما بحيث جعلت الأردنيين يتصورون وجود ارتباط دائم بين ضفتى الأردن مع تولى عمان الإشراف على شئون الدفاع والسياسة الخارجية ، وجعلت منظمة التحرير الفلسطينية تتصور قيام " اتحاد كونفيدرالى " يتمثل فى ارتباط

طوعى بين دولتين تتمتعان بالاستقلال والمساواة ، ويمكن فصمه بنزوة من أى منهما . ومع ذلك ، فقد تجاهل الطرفان حينذاك العيوب الأساسية فى الاتفاق . وبقبول وجهة نظر حسين كموجه مقبول للفلسطينيين سمحت إسرائيل للملك الهاشمى أن يفرض من جديد شكلاً من أشكال السلطة على الأراضى التى خسرها فى حرب ١٩٦٧ ، وبانتهاز حكومة بيريز الفرصة لإضعاف سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية على سكان الضفة الغربية ، واستعداد حسين للعمل داخل إطار الاحتلال الإسرائيلى ، أصبحت الأردن وإسرائيل تعملان معاً .

وبعد مرور عام واحد على توقيع اتفاق عرفات وحسين ، تفجرت الانقسامات داخل منظمة التحرير الفلسطينية حول معنى هذا الاتفاق على الملأ. وبدون موافقة فلسطينية لم يكن حسين يستطيع السير قدما . ونتيجة لذلك ، قام فى فبراير ١٩٨٦ بإنهاء كافة أشكال التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية التى كان يمكن أن تجعل الأردن المظلة التى يتوجه الفلسطينيون تحتها إلى أى مؤتمر دولى يتعلق بمستقبل الأراضى المحتلة . وكان ذلك أول جزء ينتهى من لغز حسين السياسى الذى صاغه بعناية فائقة .

وكانت الحكومة الإسرائيلية على وشك أن تتحول قيادتها إلى إسحاق شامير المتشدد ، ليحل محل حزب العمل الذى كان يسيطر على إسرائيل والذى لايخفى على حسين فهمه ومعرفته . وأخيرا قامت الولايات المتحدة بدورها فى ضرب حسين . فبينما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تندفع فى اتجاه وإسرائيل فى اتجاه، قام الكونجرس الأمريكى بتأجيل صفقة لبيع الأسلحة كان قد وعد بها حسين إلى أجل غير مسمى إلى أن يوافق على التفاوض مع إسرائيل . وبرغم إلغاء قرار التأجيل الذى أصدره الكونجرس ، بأمر رئاسى ، فإن هذا القيد ترك الملك محطما .

ولكن الفلسطينيين فى الضفة الغربية هم الذين سيعملون على قطع آخر رابطة تربط الملك حسين والنصف الغربى المحتل من مملكته ، ففى التاسع من ديسمبر ١٩٨٧ ، بدأت الانتفاضة الفلسطينية فى الأراضى التى تحتلها إسرائيل . وباستخدام الحجارة ، تحدى الفلسطينيون العاديون القوة الإسرائيلية تحديا هائلا سياسيا ومعنويا على نحو لم تحققه الأمة العربية فى أى وقت من الأوقات ، وبينما كان المراهقون ورماة الحجارة يقاتلون الجنود الإسرائيليين حاملى أسلحة عوزى ، اندفاع العالم العربى ليمنحهم بركاته .

وفى شهر يونية ١٩٨٨ ، توجه أعضاء جامعة الدول العربية إلى الجزائر، حيث أكدوا من جديد أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . ووجد حسين –مثلما اتهم بشكل خبيث بالسعى لتقويض نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية بين الفلسطنيين ، كما حدث فى مرات كثيرة فى الماضى – نفسه فى نزاع مع الوحدة العربية الخيالية .

وواجه حسين الحقيقة الكالحة بأن الانتفاضة المشتعلة فى الأراضى التى تحتلها إسرائيل كانت تعبيرا ملتهبا عن الوطنية الفلسطينية التى كانت موجهة ضده مثلما هى موجهة ضد إسرائيل . وكان كذلك فى حد ذاته يهدد بانتشارها وانتقال عدواها بين السكان الفلسطينين فى الضفة الشرقية ، وتحولت المخاوف إلى واقع فى شهر مايو ١٩٨٨ حينما تصادم رجال مكافحة الشغب مع الشباب الذين يلقون الحجارة فى الضفة الشرقية . وبرغم احتواء الحادث ، استمر العنف يغلى داخل السكان الفلسطينيين وكان يطفو فوق السطح على فترات متباعدة . وجاءت لحظة الصدق . ففى الحادى والثلاثين من يوليو ١٩٨٨ م ، توجه حسين بن طلال ، ملك المملكة الأردنية الهاشمية إلى مبنى التليفزيون ليتخلى عن كل حق له فى الضفة الغربية . فلقد وضعت الانتفاضة المسمار الأخير فى نعش الحل الأردنى للقضية الفلسطينية .

وأصبح على حسين الآن إنقاذ مملكته فى الضفة الشرقية . وكان ذلك يعنى رعاية فلسطينى مملكته ، لأن السكان الأردنيين ، الذين يمثلون أساس قوته ، كانوا يتناقصون كنسبة مئوية من إجمالى السكان ولم يعد الجيش الأردنى الذى كان فى وقت ما شديد الولاء لحسين ، يمثل دفاعا حقيقياً لنظامه .

ومع انتشار التحضر والحاجة إلى استكمال قواته المسلحة بأفراد من الفلسطينيين ضعفت الروابط التى تربط الملك بالجنود تدريجيا . وحتى ولاء البدو أنفسهم بدأ فى التراجع فيما يبدو فى أبريل ١٩٨٩م حينما اندلعت أعمال الشغب احتجاجا على تدنى مستويات المعيشة بمدينة معان فى الجنوب والتى ألقى فيها عبد الله مراسيه أول مرة .. وقد أدت أعمال الشغب إلى إجراء أول انتخابات خلال اثنين وعشرين عاما ، وأسفرت عن فوز جماعة الإخوان المسلمين بأكبر عدد من المقاعد . وبالإضافة إلى مشكلاته الأخرى ، أصبح حسين يواجه الآن الأصولية الإسلامية . غير أنه أعقب ذلك مشكلة أخرى أعظم . ففى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ ، قام صدام حسين رئيس العراق بغزو الكويت وبينما وقف العالم العربى أجمع تقريبا ضد اعتداء دولة عربية على دولة عربية أخرى ، انحاز الملك حسين إلى صدام حسين . وبالإحساس القدرى نفسه الذى عبر عنه عام ١٩٦٧ حينما تبع عبد الناصر على طريق الكارثة ، تبع حسين صدام حسين الآن .

وكانت علاقات عمان مع بغداد قد ازدهرت أولا خلال الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨ إبان الحرب العراقية – الإيرانية . فقد كان حسين منذ البداية يعتبر الجيش العراقى قوة كابحة لكل من خصميه الرهيبين الأبديين حافظ الأسد وآية الله خومينى ، والذى أصدر حكما بالموت باسم الثورة الإسلامية ضد جميع النظم الملكية العربية المرتبطة بالغرب . وبلغة الخومينى الثورية الطنانة ، كان حسين باعتباره " شاه الأردن " يأتى بالقرب من رأس القائمة . ومع استمرار الحرب

عاما بعد أخر ، كان حسين يسمح لأساطيل من الشاحنات الأردنية بنقل أطنان من الأسلحة والإمدادات برا من العقبة إلى جبهة الحرب ، مما هيأ للعراق فرصة تجنب قيام إيران بإغلاق مينائه على الخليج . ومع الحرب كان العراق الجريح الذى مازال يتمتع بالثراء يضخ الاقتصاد الأردنى العملات الأجنبية التى تعد دائما عماد الحياة .

بيد أن العوامل الاقتصادية كانت تلعب أقل أهمية فى قرار حسين بتأييد العراق مقارنة بالعوامل السياسية . فقد كان الفلسطينيون ، الذين نظروا إلى غزو الكويت على أنه رفض جرئ غير هياب لنظام يرفل فى الثراء مرتبط بالغرب ، ويرون فى صدام حسين منقذهم ومخلصهم الأخير .

ونظرا لأن السكان الفلسطينيين فى الضفة الشرقية يمثلون سبعين بالمائة تقريبا من السكان ، لم يستطع حسين المخاطرة بإغضاب رعاياه لإرضاء الدول العربية .

وبعد انقضاء عقدين على أحداث سبتمبر الأسود ، تقدم رئيسا الجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين ، جورج ونايف حواتمه ، داخل رواق المركز الثقافى الملكى فى عمان المغطى بالبساط ، وبتأييد من مئات الفلسطينيين الهائجين . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يطأ فيها أى منهما بقدميه الأراضى الأردنية منذ محاولة فدائييها اليساريين الإطاحة بحسين فى عام ١٩٧٠ وهاهما يعودان الآن بمباركة من الملك .

وقد حصد حسين الفوائد المترتبة على استجابته لمشاعر سكانه الفلسطينيين. وكان المتظاهرون أثناء مسيراتهم عبر الشوارع يهتفون "لك ماؤنا ياصدام " ويرفعون أيضا صور مليكهم . وبدأ الصدع الفاصل بين حسين ورعاياه الفلسطينيين فى التلاشى ، وبصفة مؤقتة .

وبتأمين الجبهة الداخلية ، واندفاع حسين بشكل محمـوم لتوفير بعض الحماية من غضبة الدول العربية التى تعارض العراق ولتدعيم موقفه الدولـى . أعلن بكبرياء أن الأردن سوف يلتزم بالحظر الذى فرضته الأمم المتحـدة علـى العراق ، وأكبر شريك تجارى له . وكان من شأن هذا القرار أن يكلـف الأردن مايقدر بمائتين وثمانين مليون دولار سنويا من الصادرات بالإضافة إلى مـائتين وخمسين مليونا أخرى تمثل رسوم عبور البضائع المتجهة من العقبة إلى العراق . غير أن تلك كانت مجرد مشكلة واحدة من مشكلات الأردن الاقتصادية ، فضـلا عن الفوضى فى الخليج . فقد انهارت السياحة ، مما أسفر عن ضيـاع مـائتين وثلاثين مليون دولار أخرى . وتدفق آلاف اللاجئين بحثا عن الطعـام والمـأوى عبر الحدود ، وتوقفت المملكة العربية السعودية والكويت ، واللتان أغضبهما تأييد حسين للعراق ، عن تقديم مساعداتهما الاقتصادية وقامتا بفصل آلاف الأردنييـن من وظائفهم ذات المرتبات المرتفعة . وإجمـالا ، قـدرت حكومـة الأردن أن خسارتها من جراء الأزمة ستزيد على بليونى دولار ، أى مايزيد علـى نصـف إجمالى الناتج القومى . وبدأ الدينار الأردنى الذى كان من العملات القويـة فـى الانخفاض الشديد .

وأخذ حسين ، الذى تأقلم مع الأزمة ، يشق طريقه من جديد للعـودة إلـى دائرة الضوء السياسى فى الشرق الأوسط ، وبعد شهور من انتهاء حرب الخليج ، بدأت بعض أموال النفط العربى تتدفق من جديد على اقتصاد الأردن المنهـار . ومن أكبر المفارقات السياسية العربية ، أن حسين أخذ الفلسـطينيين فـى أولـى جولات مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط عام ١٩٩١ كجزء من الوفد الأردنى - الفلسطينى المشترك الذى سعى جاهدا إلى تشكيله فى منتصف الثمانينات . وقـد نجا حسين من عاصفة ١٩٩١ جزئيا لأن موقع الأردن الجغرافى يجعل المملكـة الهاشمية محورا رئيسيا فى السياسة الإقليمية . والأكثر من ذلك أن حسين ظل من

الشخصيات الفاعلة على المسرح العربى لسنوات عديدة حتى أنه حظى بقدر من احترام أعدائه وأصدقائه غالبا فى آن واحد . وعلى الأرجح ، يستطيع حسين الاستمرار مثلما استمر لما يقرب من أربعين سنة يتلاعب بمهارة بمصالحه وبمطالب الوحدة العربية – إذ استطاع الاحتفاظ ببلاده والسيطرة عليها .

وفى عام ١٩٨٢ ، بدأ آريل شارون ، ينادى البلدة لسياسة الليكود المتشددة، بصيحته اللافتة للنظر : " إن هناك دولة فلسطينية يطلق عليها الأردن " ، ورد حسين : " إن الأردن وطن الأردنيين . فإن هناك اعتزاز بالهوية الأردنية . نعم ، إننا أشقاء ، ولكن الأردن لن يكون وطنا بديلا للفلسطينيين " . ولكن كما هو الحال فى الكثير من شئون حكمه المضطرب ، يرتهن مستقبل الأردن بالأحداث والظروف التى لايستطيع حسين التحكم فيها . وفى السعى للتوصل إلى حل للمشكلة الفلسطينية ، قد تصبح مملكة حسين فى النهاية هى الدولة الفلسطينية الجديدة وقد يحدث ذلك بطريقتين . ففى الحالة غير المتوقعة كثيرا وهى تنازل إسرائيل عن الضفة الغربية وتحويلها إلى دولة فلسطينية فإن سكان الأردن من الفلسطينيين سينضمون إلى الدولة الفلسطينية الجديدة ويجرون الأردن معهم . أو الأكثر احتمالا ، وأن يستسلم الأردن بتأثير المجتمع الدولى إلى حجة الصهاينة الحالتين التى تمنح الفلسطينيين دولة وتسمح لإسرائيل بضم الضفة الغربية . وقد عرض " أ . م روزنتال " القضية التى تردد كثيرا بتحويل الأردن إلى دولة فلسطينية مثله غيره بقوله : " إن هناك دولة ، وهى تلك الدولة التى اقتطعتها بريطانيا من فلسطين تحت الانتداب فى عام ١٩٢٢ والتى تعرف الآن باسم الأردن . وبالنسبة للدولة الفلسطينية ، فإنها موجودة بالفعل ، وعبر نهر الأردن الضيق ، وسوف يطلق عليها يوما ما اسمها الحقيقى " .

إن حسين لم يبلغ الستين بعد . وهو يبدو أكبر من سنه . فقد خف شعره وتغضن وجهه ورغم اعترافه بالإرهاق والإحباط ، فإنه مستمر مع ذلك فى

الدفاع عن العرش الهاشمي . وهو يشد انتباه مشاهديه كما كان يفعل دائما ويتحرك حول مملكته المضطربة ليلمس أحوال رعاياه على الطريقة البدوية التى لقنه اياها عبد الله . وحينما يشاهد المرء حسين ، فإنه يشاهد شخصية ذات أبعاد مأساوية لاتتفق مملكتها الفقيرة الهشة أبدا مع المواهب الرائعة لحاكمها . وليست قدرة حسين على الصفح عن أعدائه هى أقل صفاته . والسؤال هو ما إذا كان أعداء حسين والمتطفلون على أراضيه سيصفحون عنه بالقدر الذى يسمح له بالانتصار فى معركة البقاء السياسى التى ظل يخوضها طوال حياته .

الفصل الرابع

آل سعود والتعويل على آلية البترو - إسلام

عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها شخص عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ببصره صوب الأراضى التى كان يسيطر عليها العثمانيون سابقا. ونظرا لعدم وجود الموارد اللازمة لإعداد جيش ، فقد قام بتعبئة أنصار الحركة الوهابية المتزمتة . وأصبحت تعاليم الإسلام بأكثر أشكالها تزمتاً هى الرابطة الأساسية التى تربط أمير الرياض بالرجال الذين سيساعدونه فى إقامة مملكته ، وجاب عبد العزيز أرجاء شبه الجزيرة وزار جميع القبائل والنجوع . وانطلاقا من مركزه فى الرياض اتجه صوب الشمال والجنوب ثم الشرق تجاه الخليج ... وفى النهاية اتجه صوب الغرب إلى أراضى الهاشميين ، القائمين على حماية مدينتى مكة والمدينة المقدستين ، ورأى البريطانيون ، الذين كانوا حلفاء لكلتا العائلتين ، بحسن إدراكهم أن حركة المد التاريخى كانت فى صالح عبد العزيز وتخلوا عن قائد الثورة العربية ، وتركوا شريف مكة يواجه المد الوهابى بمفرده . وأخفق الشريف ، ففى أكتوبر ١٩٢٤ استسلمت مكة للوهابيين ، وانتقلت مسئولية حماية حمى أقدس الأماكن الإسلامية من الهاشميين إلى آل سعود . وبعد ذلك بأسبوعين ، خلع عبد العزيز غترته والتف بلباس أبيض مفتوح الصدر ودخل مكة . وكان يردد الكلمات التى يرددها كل حاج : "لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك " .

وانطلق عبد العزيز ومحاربوه من البدو ، فقاموا بضم الحجاز وجبال عسير إلى السهل الساحلى الشرقى ونجد . وفى سبتمبر ١٩٣٢ ، أعلن عبد العزيز ، نفسه ملكا للمملكة العربية السعودية .

وفيما عدا سكان المناطق الساحلية ، كان رعايا عبد العزيز من أكثر الناس عزلة فى العالم . فقد كانوا مرتبطين ارتباطا تاما بالأسرة والقبيلة ، ويتشككون فى أى إنسان لا تربطه بهم صلة قرابة بل ويخشونه ، كان يربطهم معا مفهومان فقط، هما إحساسهم بأنهم يمثلون العرب الخلصاء بالدم واللغة ، وانتماؤهم للمذهب الوهابى المتزمت . وكانوا يرون أن سلالاتهم ، التى لم يفسدها الاختلاط العرقى بالهلال الخصيب ، تؤكد أنهم وحدهم دون غيرهم ، يمثلون العرب الخلصاء الأصليين ، وقد أهلتهم لغة البدو ، التى تعد أقرب اللغات ارتباطا باللغة العربية الفصحى ، للحفاظ على اللسان العربى الأصيل ، وكان انتماؤهم للمذهب الوهابى المتزمت يؤكد -فى رأيهم- أنهم من أنقى العناصر الإسلامية وحماة حمى العقيدة المحمدية الرشيدة .

وقد اجتمع النسب واللغة والطائفة معا لتخلق فى السعوديين نوعا من التعالى ، وفى أوائل السبعينيات كانت الثروة الطائلة التى هبطت عليهم كهبة من السماء بمثابة التأكيد الأخير على سمو مركز السعوديين بين العرب ، وبرغم أن هناك عربا آخرين يتمتعون بالإحساس بالتفوق على غيرهم ، فإن أيا منهم لا يسخر ممن يعتبرونهم أقل منهم شأنا بنفس القدر من الازدراء الذى يبديه السعوديون تجاه الآخريين . فالمصريون والأردنيون والسوريون ، وسائر العرب جميعا يمكنهم أن يشهدوا بكبرياء السعوديين وبرغم أنهم قد يرددون كلمات الأخوة، فإنهم يفضلون السير بمفردهم فى عالم العرب .

وقد أصبحت المملكة التى أسسها عبد العزيز تمتد من الغرب إلى الشرق من البحر الأحمر حتى الخليج ومن الشمال إلى الجنوب من شمالى العراق وحتى جبال اليمن . وكانت هذه المملكة التى تضم قبائل شرسة ، كما تضم المدن الإسلامية المقدسة تتحدى أية حكومة . وسعى عبد العزيز ، الذى كان يواجه سكانا لا يجمعهم أى ولاء مشترك ، إلى كسب ولاء شعبه بجعل نفسه حاميا لحمى الإسلام.

وهكذا أصبح المذهب الوهابى المتزمت بديلا عن القومية ، وبتوجيه من الملك ، سيطر المذهب الوهابى على تقاليد المجتمع وسلوكه ، وهيمن على التصورات والاتجاهات وأصبح محركا للسياسات ، وجسد نظام القيم الذى استندت عليه شرعية آل سعود . وانضم العلماء إلى الملك وزعماء القبائل ليكونوا ثالوثا يعمل على توحيد هذه الأرض البرية وجمعها معا .

نتيجة لذلك أصبحت حكومة المملكة العربية السعودية حكومة شبه دينية صارت فيها مسائل الشريعة الإسلامية من قضايا الحكم الهامة .

وباعتبار الحكم ذا الطابع الشخصى للنبى محمد فى المدينة المثل الوحيد لنظام الحكم الذى عرفه ، أصبح عبد العزيز مؤسس المجتمع وشيخه الجليل ، والأب الذى يعاقب ويكافئ ، وكان يجوب مملكته الواسعة ومعه خزانة الدولة فى صندوق خشبى يتمايل فوق ظهر أحد الجمال وكان يدير شئون مملكته من خلال مجلس شيوخ القبائل ، وكان الملك المهيب طويل القامة يجتمع بمستشاريه وكبار رجاله غالبا فى خيمة ، حيث كان يقيم العدالة بنفسه ويقدم الخدمات الحكومية لرعاياه . وكان يربط القبائل بشخصه بالزواج من خلال معاشرة عدد كبير من الزوجات وكان عبد العزيز دائم الاحتياج إلى المال لسبب بسيط هو أن أى شيخ لا يستطيع الاحتفاظ بولاء شعبه إلا من خلال قدرته على رعايتهم والاهتمام بهم ، وكان الناس يتوافدون يوميا على ملكهم لكيس من الأرز أو عباءة أو حتى مجرد وجبة . ولم يكن أى منهم يرجع خالى الوفاض ، حتى وإن كان عبد العزيز ، الذى يحكم بلادا لم تكن تعرف من الموارد الطبيعية سوى التمر ، لا يملك سوى القليل ليمنحه .

وكان الحج إلى مكة بما يدره من عوائد بمثابة أوزة عبد العزيز الذهبية شبه الجائعة التى يتساقط ريشها .

وفى عام ١٩٣٣ أفاضت عليه العناية الإلهية بعوائد جديدة حينما منح عبد العزيز بلهفة امتيازا للتنقيب عن النفط لمدة ستين عاما لشركة "ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا" مقابل مائتين وسبعة وخمسين ألف دولار . وقد أتاح هذا الاتفاق للملك ماهو أكثر من المال – إذ ربط مملكته برابطة قوية مع الغرب تفوق ما أدركه آنذاك .. وفى الخمسينات ، واجهت المملكة العربية السعودية الغنية ، ذات الارتباط الوثيق بالغرب القومية العربية فى عهد جمال عبد الناصر .

وخلال الخمسين عاما التى حكم فيها البلاد ، أثبت عبد العزيز بن سعود أنه أعظم حاكم حكم الجزيرة العربية منذ النبى محمد نفسه . فقد سعى بين القرى والمدن الصغيرة بوعده بإحلال الاستقرار . واستطاع إخضاع البدو الشرسين بما تحلى به من الجمع بين النقاء الدينى والحكم الأبوى والقبضة القوية . وقام وحده تقريبا بتأسيس الدولة الوحيدة التى عرفها هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية آنذاك . وكانت دولة اتحدت فيها الطبيعة الجغرافية الجرداء الواسعة والتاريخ الذى لم يدنسه الأجنبى تقريبا والحكومة التى زاوجت بين السلطة العلمانية والدينية والشعب الذى يتملكه الخوف من الأجانب ، ليكون منها دولة متفردة بين الدول العربية . ومن خلال التجربة والاختيار ، ظلت المملكة العربية السعودية بمعزل عن الآخرين .

وفى نظر العرب الآخرين كانت المملكة بمثابة منطقة نائية ، صحراء يسكنها جماعة من الهمج تقع خارج اهتماماتهم أو رغباتهم حيث تركوا للسعوديين غير المتعلمين وغير المروضين حرية البقاء فى عزلتهم التى فرضوها على أنفسهم .

وبعد وفاة عبد العزيز تم الاتفاق على اختيار أكبر أبنائه سعود الذى لم يكن يتمتع بنفس القدر من الجاذبية الشخصية والحنكة الإدارية الذى كان والده يتمتع بها .

وقد أدت حاجة الغرب للبترول السعودى الرخيص عقب الحرب العالمية الثانية إلى إنهاء مشكلات ملوك آل سعود الاقتصادية المزمنة . ففى عام ١٩٥٤، كانت شركة آرامكو ، الشركة العربية – الأمريكية للنفط ، تنتج ما قيمته ٢٣٤,٨ مليونا سنويا ، تذهب كلها إلى خزائن سعود الشخصية . وابتعد سعود عن أسلوب الحياة المتواضعة الذى كان يحياه عبد العزيز ، وانتقل بأسرته إلى الناصرية ، وهى مدينة صغيرة ذات لون أرجوانى مشرق تقع على أطراف الرياض . وأحاط نفسه هناك بهالة حيث كان الملك يعنى بالنسبة لسعود مجرد الزواج بأجمل نساء المملكة والاجتماع برجال البلاط ، وإنفاق عائدات المملكة من النفط المتزايدة باستمرار .

وضل سعود وابتعد عن التعاليم التى حددها المذهب الوهابى المتزمت . ونظرا لعدم وجود سوابق لإزاحته ، أقام أهل "الحل والعقد " – وهم أفراد الأسرة وزعماء القبائل والعلماء – مجلسا للوصاية على العرش على نحو غير مرتب برئاسة الأمير فيصل . وبعد ست سنوات من الاقتتال العائلى ، أصدر العلماء فتوى أعلنوا فيها عدم أهلية سعود للحكم . وبعد سبعة أشهر ، وفى أول نوفمبر عام ١٩٦٤ ، تنحى سعود ، وذهب إلى المنفى وترك لفيصل ، ثانى أبناء عبد العزيز ، مهمة تطهير المملكة ودينا على البلاد يقدر ببليونى دولار . وكان فيصل، ذو القوام الممشوق والأنف المعقوف والعينين الواسعتين البارزتين المفعمتين بالعاطفة ، شخصية تتسم بأفضل السجايا .

وقد منع الملك الصارم استخدام سيارات الكاديلاك ، التى كانت من أكثر رموز الفساد الملكى وضوحا ، وأغلق الباب أمام أسلوب حياة العائلة الملكية الباذخ . بفرض القيود على أسرته ، إذ كان فيصل يضع فى اعتباره المنتقدين الوهابيين لآل سعود ، وأيديولوجية عبد الناصر الثورية المعادية للنظام الملكى .

وقد خرجت ثورة عبد الناصر عن حدود مصر فى عام ١٩٥٥ بعد ثلاث سنوات من وفاة عبد العزيز . ووجهت طاقاتها إلى استحكامات المملكة العربية

السعودية . واضطر المد الناصرى المتزايد آل سعود إلى السير على حبل مشدود تحفه المخاطر بين الولاء للعالم العربى الواسع والحفاظ على مصـــالح المملكـة الخاصة . وكان شعار سياسة حقبة الخمسينيات والستينيات هو "بـــترول العـرب ملك للشعب العربى " . وقد ولد من أمة عربية مقسمة بين مـــن يملكـون آبـار البترول تحت رمالهم ومن لا يملكون . وهكذا أخذ من لايملكون بزعامـــة عبـد الناصر فى مصر يعلنون بصوت عال رسالة القوميين العرب – وهى أن الحدود الوطنية حدود مصطنعة وخطوط لا معنى لها فرضتهـــا القـوى الاسـتعمارية . فالعرب شعب واحد ، وأمة واحدة ، ووحدة اقتصادية واحدة .

وقد تقبل عدد قليل من السعوديين فلسفيا الحركات الاشـــتراكية العربيـــة . فالمملكة العربية السعودية بلد المذهب التقليـدى والـتزمت الوهـابى . ومعظـم السعوديين الذين كان لديهم قدر كاف من التعليم يمكنهم من فهـــم أو الاعـتراف بشعار عبد الناصر الخاص بالقومية العربية ثاروا ضد هذا الشعار باعتباره قـــوة علمانية تنتقص من قدر الدين وكان ذلك على المســتوى الفلسـفى . أمـــا علـى المستوى الاقتصادى ، فقد تملك الرعب نفوس السعوديين ؛ حينما وصـــف عبـد الناصر –وهو يثير مشاعر جماهير مســتمعيه ليحولهـــا إلـــى أصـوات عاليـة محمومة– البترول السعودى بأنه بترول عربى .

ورفض الحاكم ورعاياه أية نظرية سياسية تشير ضمنا إلى ضـــرورة توزيـع ثروات البترول العربية بين الدول الغنية بالبترول وبين الدول العربية الشقيقة الفقيرة .

وكانت الفكرة المزعجة بضرورة توزيع عائدات النفط الســـعودى علـى العالم العربى تروع الشعب الذى ظل يعانى من الفقر المدقـــع لقـرون عديـدة . وبرغم أن عبد الناصر والوحدة العربية الشاملة كانا يحظيان ببعض الإعجاب من معارضى آل سعود ، فإن هذا الاعجاب كان ينطوى على سياسة تؤيد الجمهورية وليست سياسة اقتصادية تعاونية .

وفى عام ١٩٥٨ ، وهو العام الذى جعل فيـه سـعود المملكـة العربيـة السعودية على شفا الإفلاس ، كانت عظمة جمال عبد الناصر والإعجاب الخفى به قد بلغا أوجهما . ومع تصدر إذاعة القاهرة الصفوف هزت الوحدة العربية الشاملة الثورية بوابات مملكة آل سعود المحكمة . وكانت كماشات الراديكاليـة العربيـة تضغط من القاهرة ودمشق وبغداد . وكانت مصر وسوريا تمثلان جبهة واحـدة ممثلة فى الجمهورية العربية المتحدة . وأطاحت الثورة برأس الملكية فى العراق. وسقط الملك سعود فى فخ مؤامرة هزلية لاغتيال عبد الناصر . وأخذت أسطورة الخطر المحدق تطارد آل سعود . وبينما كان الراديكاليون العرب يعملون علـى تدعيم روابطهم بالاتحاد السوفييتى ، كان آل سعود يعملون على توثيق علاقتهـم بالولايات المتحدة الأمريكية .

وبحلول عام ١٩٦٢ ، كان الأمير فيصل يسيطر علـى شـئون السياسـة الخارجية للملكة ، وبخروج البلاد من عزلتها ، وضع المملكة تماما فى مواجهـة عبد الناصر والراديكاليين العرب ، باستخدام الإسلام كأساس منطقى ودرع واق، رسم فيصل خطا حول الدول الصغيرة الضعيفة الواقعة علـى حـدود المملكـة العربية السعودية ، الشرقية والجنوبية ، وأعلن أن هذا الخط يمثل نفوذ المملكـة العربية السعودية وينبغى حمايته فى مواجهة الوحدة العربية الشـاملة بالوسـائل الدبلوماسية وبالمال . وهكذا تم إعداد خشبة المسرح لحسم النزاع بين راديكاليـة عبد الناصر ونزعة فيصل المحافظة .

ووقعت الأحداث فوق أبعد أطراف العالم العربى - فوق أرض اليمن ، ففى إحدى نوبات العداء فى عام ١٩٦٢ احتشد سكان عدن المنخفضـة والمشـيخات المحيطة بها خلف جيش يتشدق بشعارات جمهورية وماركسية وتحـدوا رجـال الجبال فى الشمال والذين تجمعوا للدفاع عن إمامهم ، محمد البدر ، وفى السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ ، صف جيش الجنوب دباباته حول قصر الإمام فى

صنعاء ، وأطلق النار وأسقط الطابق الثانى من القصر ، ولم يكن الأمـــر ســـوى نزاع قبلى مرتبط بشعارات أيديولوجية يدور فى أحد أطـــراف العـــالم العربـــى المعزولة تماما والتى لم تر زجاجة كوكاكولا فى حياتها . ولكن فى جـــو بدايـــة الستينيات المشحون للغاية ، لم يكن أى نزاع يتعلق بالعرب يبقى معـــزولا ففـــى غضون أيام ، أرسل عبد الناصر قوات إلى اليمن باسم الثورة الاشتراكية والقومية العربية . ورد فيصل على ذلك بتدعيم الإمام والنظام الملكى بالدولارات النفطية . وطوال السنوات الخمس التالية كان اليمن ساحة قتال واجهت فيها قـــوات عبـــد الناصر الثورية قوات فيصل المحافظة لتحديد مستقبل العالم العربى .

ووضع عبد الناصر خمسة عشر ألف رجل ، أى ما يعادل سدس الجيـــش المصرى ، فوق جبال اليمن الشمالية الشاهقة الوعرة . وبينما كانت القبائل شديدة الولاء لإمامها تتحصن فى كهوف داخل أرض مألوفة لها وتعيش على الإمدادات السعودية من الطعام والذخيرة ، كانت قوافل الشاحنات والعربات المصفحة التـــى تحمل القوات والإمدادات المصرية تزحف ببطء صاعدة الطرق الملتوية الممتدة من ميناء الحديدة على البحر الأحمر حتى صنعاء . وقد وجه أحـــد الصحفييـــن سؤالا لعقيد بالجيش المصرى كان يتصبب عرقا وهو يصرخ بالتعليمات لرجاله ، عما يفعله الجيش المصرى فى اليمن فأجابه : "إننا عـــرب وينبغـــى أن نســـاعد أشقاءنا . هذا هو واجبنا " .

ونظرا لعجز عبد الناصر عن زحزحة قوات الإمام ، فقد أمـــر الطـــائرات المصرية عام ١٩٦٣ بقصف مدينة نجران السعودية الواقعة على الحدود وكـــذا السهل الساحلى حول جيزان ، مما أدى إلى فرار أربعين ألف شخص فى رعـــب وفزع . بيد أن هذه الاستراتيجية أخفقت فى وقف مســـاعدات فيصـــل للإمـــام . وبحلول عام ١٩٦٤ ، كان هناك أربعون ألف رجل من جنود عبد النـــاصر فـــى اليمن يستنزفون احتياطياته من الأموال والموارد .

وطالت الحرب التى لم يستطع أى من مناصريهــــا إحــراز نصــر فيهــا أو الانسحاب منها ، وتطلبت أساليب حربية جديدة . وبدءا مــن شــهر نوفمــبر ١٩٦٦ أخذت مصر ترسل عملاء يمنيين إلى داخل المملكة العربية السعودية ، حيث قـــاموا بزرع قنابل داخل وزارة الدفاع فى الرياض ، وقصرين من القصور الملكية وخــط أنابيب التابلاين الجوى الذى ينقل البترول السعودى إلى داخل موانىء البحر المتوسط . وكانت الأضرار السياسية تفوق كثيراً الأضرار المادية . فقد أعلنت العديــد مــن " حركات التحرير " عن نفسها بعد أن شجعتها أعمال التخريب ، وظهرت الانقســامات داخل أسرة آل سعود على الملأ . ففى الوقت الذى نفى فيه فيصــل أحــد أشــقائه ذا الميول الجمهورية ، سعى الملك سعود المخلوع إلى استرداد عرشه من خلال إذاعــة القاهرة . وانتهى ذلك كله بهزيمة عبد الناصر المهينة فى حرب ١٩٦٧ .

وقد قضت الوحدة العربية الشاملة المناضلة نحبها عــام ١٩٦٧ وأســفرت حرب الأيام الستة عن تحطيم قوة الدول الراديكالية وثقتها بنفســها . وبرغــم أن متطلبات الوحدة العربية كانت تحول بين إعرابهم عن ذلك صراحة ، فقــد كــان " آل سعود " يشعرون بشىء من الراحة لأن من عملوا على زعزعة الاســتقرار لفترة طويلة قد دفعوا ثمن آثامهم ، وأصبح السعوديون يستمتعون بفــترة الســلام النسبى نتيجة للهزيمة .

ولكن السعوديين عانوا أيضا من الآلام المرتبطة بهزيمة العــرب ١٩٦٧ ، فالسعوديون ، الذين يشاركون فى الشرف الجماعى للعرب ، شاركوا فى مهانــة الهزيمة العربية المنكرة . وكانت هناك القدس . إذ فقد المسلمون ثالث الأمــاكن الإسلامية المقدسة . وكان الملك فيصل يحلم طوال الأيام المتبقية من حياته بأداء الصلاة مرة أخرى فى المسجد الأقصى ، وكان الشغل الشاغل للســعوديين بعــد ١٩٦٧ هو مسألة القدس وليس قضية الفلسطينيين وأرضهم الضائعــة ، بيــد أن السعوديين لم يستطيعوا تجاهل الفلسطينيين .

وعشية كارثة العرب فى ١٩٦٧ ، انطلــق الفلســطينيون مــن مخيمــات اللاجئين ليعلنوا انتقامهم من الأنظمة العربية التى تتوانى عـــن دعــم مطــالبهم بالعودة إلى أرض فلسطين . وانكمش آل سعود خوفا من هؤلاء الرســل الجــدد للعروبة . وفى مواجهة تلك الحركة السياسية التى تغذيها هجمات الفدائين ، كــان على آل سعود الدفاع عن نظام إنتاج البترول وتوزيعه المعرض للخطر ، وعــن الآلاف من أعضاء الأسرة المالكة ، وعن تحالفهم مع الأمريكيين .

وفى الثلاثين من مايو ١٩٦٩ ، أظهرت الجبهة الشعبية لتحرير فلســطين مدى تعرض المملكة للخطر بشكل فعلى . فقد انفجر خط التابلاين ، وهــو خــط الأنابيب الذى ينقل ٢٣ مليون طن من النفط سنويا إلى موانىء البحر المتوسط ، وتناثر إلى شظايا بفعل قنبلة إرهابية .

وكان على آل سعود المعرضين لهجوم الراديكاليين بســبب تحــالفهم مــع الأمريكيين ، أن يفعلوا شيئا لدعم القضية الفلسطينية لحماية أنفسهم من غضــب الرجال الذين يتربصون بهم خارج حدودهم . وكانت إثــارة مشــاعر رعايــا آل سعود تتوقف إذ تحركت القضية الفلسطينية خارج نطاق مسألة استعادة القــدس . ومن خلال المنظور السعودى ، لم يكن الفدائيون الذين يشار إليهم بالبنــان فــى سائر بلدان العرب سوى عصابات وحشية تعكر صفو السلم والنظام اللذين يتــوق السعوديون لإحلالهما .

وفى سلسلة من التحركات الرامية إلى حماية المملكة العربية السعودية من الراديكالية الفلسطينية وتأكيد توجهاتها العربية ، مارس فيصل ضغوطا على إدارة نيكسون بشأن النزاع العربى – الإسرائيلى ، متعللا بأن هذا الــنزاع يــأتى فــى صميم المتاعب السعودية للإبقاء على التحالف الأمريكى فـــى حلبــة الصــراع السياسى العربى .

وفى الوقت نفسه راح يضخ الأموال فى خزائن فتـــح ، أكـــثر جماعـــات الفدائيين الفلطنيين اعتدالا ، وأصدر أوامره بأن تقوم المملكة بتطبيـــق المقاطعـــة العربية المفروضة على البضائع والسلع الإسرائيلية والشـــركات العربيـــة التـــى تتعامل مع إسرائيل . وقد كانت المقاطعة العربية هى الشىء الوحيد الـــذى هيـــأ للسعوديين أكثر الوسائل أمنا لتأكيد عروبتهم . كلما ازدادت المملكة العربية غنى، ارتفع صوت المقاطعة معلنا التزامها بالموقف العربى ضد العدو الصهيونى .

ولم يكن فيصل يرغب فى أن يعمل إحلال السلام بين العـــرب وإســـرائيل على إخماد الراديكالية العربية فقط ، بل كان يسعى أيضا إلى إضعـــاف النفـــوذ السوفيتى بين الدول العربية . فقد كان فيصل المسلم والملك المحافظ يريد إبعـــاد الاتحاد السوفيتى بأيديولوجيته الشيوعية عن العالم العربى . وعندما مـــات عبـــد الناصر ، اغتنم الفرصة لإبعاد مصر عن الروس .

ووضع الملك فيصل وأنور السادات معا خططا لشن حرب عربيـــة ضـــد إسرائيل ، ومقابل قيام السادات بطرد الروس من مصر فى شهر يوليو ١٩٧٢ ، قام فيصل ، بالإضافة إلى الإعانة السعودية السنوية لمصر التى كانت تبلغ مائتين وخمسين مليون دولار ، بجمع ما يقرب من خمسمائة مليون دولار أخـــرى مـــن دول الخليج الأخرى من أجل شراء الأسلحة لمصر وكذلـــك مـــا يـــتراوح بيـــن أربعمائة وخمسمائة مليون دولار من أجل تدعيم ميزان المدفوعات . وفى صيف ١٩٧٣ توجه فيصل إلى القاهرة ليؤكد تعهده بأن المملكـــة العربيـــة الســـعودية ستفرض حظرا بتروليا على الدول المؤيدة لإسرائيل إذا قامت مصـــر بمهاجمـــة إسرائيل فى الأراضى التى احتلتها فى حرب ١٩٦٧ .

وكانت المملكة العربية السعودية مثلت فقط عمليات الحظر البترولى مـــن قبل - فى الحربين العربيتين الإسرائيليتين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . وكان سعود

أولا ثم فيصل من بعده قد رفضا تسليم عبد الناصر المروع سلاح العرب الأخير ضد الغرب . ولكن السادات كان مختلفا . إذ لم يكن يتمتع بالقدرة ولا الإرادة اللتين تمكنانه من احتلال مكان عبد الناصر كبطل أسطوى للجماهير العربية . وبقيادته لمصر بعيدا عن سياسات عبد الناصر ، واستعداده للتفاهم مع السعوديين مقابل مساعدته على إنقاذ اقتصاد بلاده الذى يعانى من الخراب ، لم يكن السادات يمثل تهديدا لآل سعود .

ونتيجة ذلك ، حينما قامت مصر وسوريا بحربهما ضد إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت المملكة العربية السعودية شريكا صامتا فى الائتلاف .

وبينما كان الآخرون يقاتلون ، كان الملك فيصل يصدر تحذيرات جادة للولايات المتحدة بتطبيق حظر بترولى وشيك إذا لم تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية التى احتلتها فى ١٩٦٧ وبتجاهل إدارة نيكسون لحقيقة أن الولايات المتحدة تستهلك بترولا مستوردا من الخارج بمعدل مليون برميل يوميا، فقد رأت أن تحريك شخصية المتطفل الهزلى كمتحدث باسم حملة تطوعية للحفاظ على الموارد هو كل ما تحتاجه الولايات المتحدة لإدارة الأزمة .

وبعد مرور يومين على اندلاع حرب أكتوبر ، كانت القاهرة والرياض مرتبطتين بخط تليفونى مباشر . ونظرا لأنه لم تكن ثمة مخاطر مماثلة لحيلة عبد الناصر بعدم إبلاغ الملك حسين بأى شىء عن الموقف العسكرى فى عام ١٩٦٧، كان السعوديون يتمتعون بحرية الوصول إلى المخابرات المصرية ويراقبون سير الحرب من أرض القاهرة .

وفى الأسبوع الثانى من الحرب ، أبلغوا فيصل أن الجيوش العربية بدأت تخسر ما أحرزته من مكاسب فى الأيام الأولى . وفى التاسع عشر من أكتوبر ، طالب نيكسون ، الذى كان ينظر إلى الحرب من خلال منظور التنافس الأمريكى– السوفيتى فقط ، الكونجرس بتخصيص ٢,٢ بليون دولار كمساعدة عسكرية لإسرائيل .

وفجأة واجه الملك فيصل الخطر المحقق بأن تتعرض المملكة العربية السعودية للعزلة فى بحر الغضب العربى الذى أشعله الدعم الأمريكى لإسرائيل . وفى اليوم التالى استل فيصل سلاح البترول من غمده ، وتوقف عن ضخ الستمائة برميل من النفط التى كان يرسلها يوميا للمساعدة فى تغذية الاقتصاد الأمريكى بالوقود . وسرعان ما التفت صفوف السيارات كالثعابين العملاقة حول مضخات الوقود . ودفعت أسعار البترول التى ارتفعت ارتفاعا كبيرا الاقتصاد إلى حافة الخطر .

ووجه الرئيس نيكسون الذى أصابه الهياج تحذيرا فى أحد المؤتمرات التى عقدها أنصار البيئة قائلا : " إذا تجمد المرء حتى الموت ، فليس ثمة فرق أن يكون الهواء نقيا أو ملوثا " .

واستمر الحظر حتى مطلع العام الجديد ، وقفزت أسعار البترول من ٣,٠١ دولارا للبرميل قبل الحرب إلى ١١,٦٥ . بينما تعهدت الدول العربية المنتجة للبترول بمواصلة فرض الحظر إلى أن يتوقف الدعم الغربى لإسرائيل . ولم يكن فيصل يشعر بالاطمئنان . فبينما كان على قنتعة تامة بأن الولايات المتحدة لابد أن تواجه حقيقة أن الشرق الأوسط لن يعرف الاستقرار أبدا مالم تحل المشكلة الفلسطينية ، فإنه لم يكن مستعدا للضغط على الولايات المتحدة من أجل السياسات الاشتراكية والراديكالية التى ينتهجها كثيرون فى العالم العربى من وجهة نظره . وأدرك فيصل وأشقاؤه ، الذين يتخذون القرارات الخاصة بآل سعود ، أنهم فى نهاية الأمر يعتمدون على القوة والإرادة الأمريكيتين لحمايتهم من أعدائهم -المحليين والأجانب- . وفى مارس ١٩٧٤ ، ومع فصل القوات المصرية والسورية والإسرائيلية بفضل الجهود الدبلوماسية الأمريكية ، قامت المملكة العربية السعودية برفع الحظر عن حليفتها المستمرة منذ أمد طويل .

وفى الشهر التالى وصل فريق تابع لوزارة الدفاع الأمريكية إلى الرياض لوضع استراتيجية عسكرية أمريكية – سعودية مشتركة لضمان أمن المملكة .

لقد أضفى الحظر البترولى معنى جديدا على نفط العرب . وتم ترقيع الاستعماريين النهابين فى الغرب الذى لا يقهر . وسوف يدفعون وهم صاغرون ثمن الضربات النفسية والثقافية والسياسية التى وجهوها للعالم العربى . وتبددت قرون الخزى والعار مع ركوع قوة العالم الصناعى وجبروته أمام منتجى البترول العرب .

ولم يؤد الحظر إلى استرداد الشرف العربى الذى طالما سعى العرب لاستعادته فقط . بل حقق لهم أيضا شيء لم يعرفوه من قبل – وهو القوة . لقد ولد العرب من جديد من الخليج عبر قلب العالم العربي وحتى بلاد المغرب .

إن العصر العربى ، الذى يرتبط حتما باسم عبد الناصر ، تراجع أمام العصر السعودى ، حينما اعتقد كثيرون أن ثروات السعوديين ونفوذهم ستصبح فى خدمة جميع العرب . بيد أن ثروة العرب وقوتهم اتضح أنهما سريعتا الزوال بالنسبة للعرب الذين يعيشون خارج الدول النفطية وحدهم . والواقع أن الانفجار الذى شاهدته أسعار البترول فى ١٩٧٣- ١٩٧٤ ، أدى إلى اتساع الفجوة بين أغنياء العالم العربى وفقرائه . وفى عام ١٩٧٤ ، بينما كان دخل الفرد فى المملكة العربية السعوذية يصل الى ٦٩٩١ دولار ، وفى سوريا ٣٤٠ دولارا ، كان لا يزيد عن ٢٤٠ دولارا فى مصر . وأصبح السعودين شعبا بالغ الثراء وسط جيران يعانون من الفقر المدقع وتصاعدت تلميحات الستينات بأن البترول السعودى ملك للعرب لمطالبة المملكة العربية السعودية بتوزيع ثرواتها على الدول العربية . غير أنه سرعان ما تبين أن ثروات المملكة العربية السعودية الجديدة الهائلة لن تنتقل إلى الأمة العربية إلا فى شكل مساعدات للحكومات المتذمرة وإلى العمالة العربية التى تستقدم إلى المملكة للقيام بالأعمال التى لا أو

لن يستطيع السعوديون القيام بها بأنفسهم . وقد لخص أحمد الشقيرى ، الزعيم السابق لمنظمة التحرير الفلسطينية حالة الإحباط والعداء بقوله : " لقد انتصر بترول العرب على العرب".

وقد كان الوضع داخل المملكة بين السعوديين وعمالهم العرب يعكس حال العالم العربى ككل . ففى فترة ازدهار النفط التى حولت المملكة العربية السعودية إلى دولة واسعة الثراء ، لم يزدهر سوى القليل من العرب بينما خسر آخرون . ولم يكن الخاسرون مقتنعين بأن الفائزين يستحقون كل ما نالوه فعرب الهلال الخصيب ناشرو الحضارة الإسلامية العظيمة ، كانوا يثرثرون ويرددون فى استياء كيف يصبح سكان شبه الجزيرة العربية بهذا الثراء الفاحش بينما هم يعانون من الفقر المدقع ؟ .

وقد شعر آل سعود بهذا العداء . وإذا كان عام ١٩٧٣ هو عام ظهور السعوديين داخل دائرة ضوء الشئون العربية ، فقد تميزت فترة ما بعد ١٩٧٣ ببحث السعوديين عن مهرب للخروج من دائرة مطالب الأمة العربية . ونظرا لرفض آل سعود استنزاف موارد المملكة العربية السعودية فى الحفرة التى لا قاع لها فى مصر ، وسعيهم للحصول على الحماية من الحكومات البعثية فى سوريا والعراق ، وخشيتهم من غضب الفلسطينيين الذين لا وطن لهم وانتقامهم فقد تطلعوا إلى هدف أكبر من الأمة العربية . ووجدوا الحل فى كتابات أحد الكتاب الأصوليين عام ١٩٦٩ التى دعا فيها إلى إحياء الخلافة الإسلامية بزعامة الملك فيصل . ولتدعيم وضعه باعتباره الزعيم الموقر للمحافظين الدينيين الإسلاميين ، أعد فيصل منهاجا للسياسة الخارجية يعتمد على الإسلام .

وعبأ آل سعود أموالهم ووضعهم كحماة لمكة والمدينة لملء الفراغ الأيديولوجى الناجم عن موت الوحدة العربية الشاملة للإحياء الدينى ، بل كانت بالأحرى بمثابة ترسيخ لأيديولوجية أخلاقية وسياسية محافظة تدعمها الثروة

النفطية . وأصبح الإسلام بمثابة الدرع الذى يحتمى وراءه آل سعود ومملكتهم من رياح العالم العربى المعادية .

وسقط الملك فيصل الرمز الذى كان سيقام حوله " البترو – إسلام " أو الإسلام البترولى صريعا برصاص القتلة فى الخامس والعشرين من مارس ١٩٧٥ ، ومرة أخرى حلت العملية الغامضة غير المحدودة لاختيار من يخلفه . وفى هذه المرة وقع الاختيار على خالد رابع أبناء عبد العزيز .

وكان خالد لايتمتع بنفس مكانة فيصل ، بيد أن سلوكه الورع وعائدات المملكة العربية السعودية السنوية من النفط ، والتى كانت تقدر بسبعة وثلاثين بليون دولار جعلت منه إدارياً فعالاً للإسلام البطولى ، ورغم المبالغ الطائلة التى وزعتها المملكة باسم الإسلام وسواء ذهبت للعرب أو لغيرهم من وحدات العالم الإسلامى ، لم يستطع آل سعود الفرار من مطالب الوحدة العربية أو تحقيق سيطرتهم التامة على الإسلام .

وفى عام ١٩٧٨ ووافقت مصر فى كامب ديفيد على إحلال السلام مع إسرائيل . وكان كارتر تتوقع أن تحذو المملكة العربية السعودية حذو مصر... وظل آل سعود عاجزين عن اتخاذ قرار لأسابيع طويلة . وتطايرت الشائعات عن الاقتتال داخل الأسرة المالكة على نحو متزايد والتى بدأت بالهمس وانتهت بقصة تزعم بأن الأمير فهد ولى العهد قد أطلق الرصاص على الأمير عبد الله رئيس الحرس الوطنى السعودى ، ثم تردد أن فهد طار إلى أسبانيا غاضبا لأن الملك وكثيرين من أفراد العائلة المالكة رفضوا الانضمام إلى عملية السلام . وكانت التقاليد الراسخة فى السياسة السعودية أن يتم اتخاذ القرارات خلف جدران القصر، أما الشائعات فكان يغذيها من يعملون خارج تلك الجدران . ولم يستطع أحد تأكيد إصابة عبد الله بجرح ناتج عن طلق نارى بمن فيهم أطباء العائلة المالكة ، وتوجه فهد إلى أسبانيا جزئيا على الأقل لبدء نظام غذائى صارم ، وحتى مع ذلك

فقد وقعت اتفاقات كامب ديفيد -التى قررت بمقتضاها أكبر دولة عربيـــة ســكانا إنهاء حالة الحرب بينها وبين إسرائيل -على آل سعود كالصاعقـــة ، وواجهتهـــم بالقرار المحفوف بالمخاطر- وهو الاستجابة لرغبات الولايات المتحدة أو الوقوف إلى جانب الدول العربية التى احتشدت ضد مصر ... وفى النهاية قرر الملك خالد وكبار الأمراء أنه من الأفضل للمملكة العربية أن تواجه غضب الولايات المتحدة على أن تخاطر بالخروج من الحظيرة العربية . ولعل مـــاأخفقت خطـــة جيمـــى كارتر الخاصة بالسلام فى الشرق الأوسط فى حسابه هـــو أن المملكـــة العربيـــة السعودية ظلت بعيدة عن اضطرابات العالم العربى من خلال عدم ظهورها على الإطلاق أمام الرأى العام العربى .

وبعد أن أخفق "الإسلام البترولى" فى حماية المملكة العربية السعودية مـــن مطالب الوحدة العربية ، واجه ضربة أكبر من الثورة الإسلامية فى إيران ، ففى يناير ١٩٧٩ ، نزل آية الله روح الله خومينى المنفى مـــن علـــى ســـلم إحـــدى الطائرات التابعة للخطوط الجوية الفرنسية ليقود شخصيا ثورة تقاتل باسم الإسلام.

وتمت الإطاحة بمحمد رضا شاه بهلوى الذى أفسده الغرب وظهرت فـــى الأفق جمهورية إسلامية عازمة على إحياء الإسلام .

وجاءت كلمات آية الله لتقول : "إننا نقوم بتصدير ثورتنا إلى العالم كلـــه . وسوف يستمر النضال حتى تتردد صيحة لا إله إلا الله فى كافة أرجاء العـــالم" ، ومن خلال رؤية الخومينى التى تبشر بالخلاص ، سوف يتم تطهير عالم الإسلام من "الشيطان الأكبر" وهو الشيطان نفسه الذى يوفر للمملكة العربية السعودية مظلته الأمنية لحمايتها ، أى الولايات المتحدة . وفجأة ضعف اهتمام آل سعود بمكة وعنايتهم الفائقة بها ، وهدايا المساجد والمنح والعطايا الدينية ، وتوددهم باهظ الثمن للزعماء المسلمين أمام عاطفة آية الله المتأججة ، وقد وصف أحد الدبلوماسيين الأمريكيين حالة المعاناة التى كان يكابدها آل سعود بقوله : "كان

الأمر كما لو أن الروس قد التفوا حول اليسار ، أو نفى جورج دالاس ، فى الأيام الخوالى ، إلى الجنوب وبالنسبة لآل سعود كان خطر الإسلام المتشدد بانفعالاته الثائرة يفوق الخطر الذى كانت تمثله القومية العربية فى الخمسينيات والستينيات".

وارتجف آل سعود خوفا حينما وقعت مدينة مكة المقدسة لفترة مؤقتة فى أيدى متمردين دينيين فى نوفمبر ١٩٧٩ ، وارتعدوا هلعا حينما انتفض سكان المملكة العربية السعودية من الشيعة فى المنطقة الشرقية ، وتميزوا غضبا حينما انفجرت قنابل وضعتها جماعات سرية عقب رسالة الخومينى فى البحرين والكويت المجاورة ، وأضحى الخطر الذى يهدد النظام الذى يستمد شرعيته من الإسلام واقعا فعليا وخطرا حقيقيا .

وإذا كانت الاتهامات التى وجهها عبد الناصر بأن آل سعود مجرد تابعين خاضعين للإمبريالية الغربية قد أثارت أعصابهم ، فإن الاتهامات التى راح يكيلها لهم آية الله بأن "هؤلاء السعوديين الفاسدين الآثمين لا يستحقون تولى شئون الحج والكعبة " كانت تصيبهم بالهلع ، ووفقا للرسالة الساحرة للخومينى ذى اللحية البيضاء ، تم تشبيه آل سعود بالشاه بسبب اتصالاتهم بالغرب ، ونتيجة لذلك راحوا يبحثون عن غطاء يقيهم عدوان الخومينى الأيديولوجى .

وبرفضهم الاستجابة لطلبات الولايات المتحدة بإقامة قواعد عسكرية يمكن من خلالها تنظيم عملية الدفاع عن المملكة ، تحرك آل سعود مرة أخرى صوب الخيمة العربية . وحينما قام صدام حسين بشن الحرب ضد جمهورية إيران الإسلامية فى سبتمبر ١٩٨٠ ، وجدت المملكة العربية السعودية نفسها جانحة بين العراق الاشتراكى وحكومة إيران الدينية ، ومنذ انتصار البعث عام ١٩٦٨ والسعوديون يخشون العراق ، العملاق الظاهرى القابع على حدودهم والذى يدعو إلى القومية العربية . بيد أنهم حينما اضطروا إلى الخيار بين العراق العربى وإيران الفارسية ، انحاز السعوديون إلى العرب . ونتيجة لذلك تدفقت الأموال

السعودية على المجهود الحربى العراقى (حينما أعلن الملك فيصل أن دول الخليج دول عربية ومصالحها هى مصالح سائر العرب) .

غير أن آل سعود كانوا لايزالون يتطلعون إلى بديل للعروبة . ووجدوا مخرجا لذلك من خلال مجلس التعاون الخليجى . وجمع مجلس التعاون الخليجى الذى تأسس فى شهر مايو ١٩٨١ بتوجيه من آل سعود وإشرافهم ، المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين وعمان وقطر والإمارات العربية المتحدة فى منظمة دفاعية مشتركة . وكانت المملكة العربية السعودية تأمل فى أن تؤسس من خلال هذه المنظمة نظاما للأمن الإقليمى متحررا من التدخل الأمريكى الذى تحفه المخاطر ، لتتمكن من صد إيران وتشكيل تحالف عربى تهيمن عليه المملكة العربية السعودية ، وأوضح السعوديون منذ البداية أن مجلس التعاون الخليجى ليس جزءا من الجامعة العربية وأنه كان منفصلا خارج الروابط التقليدية للسياسات العربية .

وحينما أصبح فهد ملكاً فى ١٩٨٢ بدأت المملكة العربية السعودية تدريجياً تضطلع بدور أكبر فى الشئون الجارية خارج حدودها ، إذ أدرك فهد خلال السنوات التى قضاها كولى للعهد أن احتياطيات المملكة العربية السعودية الهائلة من النفط وقوتها الاقتصادية تملى عليها القيام بدور فى الشئون الإقليمية . وكان يقوم من وقت لآخر بدور الوسيط فى الحرب التى بدأت فى لبنان فى ١٩٧٥ وأخذ فى الدوران حول المحيط الخارجى لسائر الخلافات العربية . وكان يبدو أن المملكة العربية السعودية تستطيع القيام بدور ناجح فى الساحة العربية دون أن تصبح أسيرة لقوى أكبر منها .

كما كان يبدو أن المملكة تستطيع الاحتفاظ بهويتها العربية واتفاقياتها الدفاعية الأمريكية طالما ظلت القوات الأمريكية تلوح فى الأفق وبعيدا عن الأنظار . ولكن كان من المستحيل أن يظل كل شئ سهل القياد .

ففى شهر يونيو عام ١٩٨٤ ، دخلت الحرب العراقية – الإيرانية شهرها الخامس والأربعين ، وكان كل من صدام حسين وآية الله خوميني قد أصابهما اليأس ؛ الأول يريد إحراز النصر ، والثانى يتوق إلى وقف إطلاق النار ، وكان الحل لكل منهما يكمن فى أن يقطع كل منهما شحنات الآخر من البترول كى يتضور عدوه جوعا فيبادر بالخضوع . وترتب على ذلك أن أصبحت ناقلات النفط العملاقة التى تنقل الخام الأسود عبر الخليج أهدافا لنيران الصواريخ العراقية والقنابل الإيرانية المنطلقة من القوارب المطاطية ، ونظرا لقيام المملكة العربية السعودية بشحن الجزء الأكبر من نفطها من ميناء رأس تنورة ، على الخليج ، فقد أصبحت أسيرة حرب لا تلتزم فيما يبدو بأية قواعد ، وفى أسبوع واحد قام العراقيون بضرب ناقلة "العهود" السعودية ، واخترقت المقاتلات الإيرانية المجال الجوى السعودى .

وقد استبد القلق بالمملكة العربية السعودية حينما قامت مقاتلة سعودية من طراز إف-١٥ بإسقاط إحدى المقاتلات الإيرانية من طراز إف-٤ فى مساء نفس اليوم ، وكان وقع هذا الحادث مختلفا عن حالة الفوضى التى سادت المملكة العربية السعودية حينما استولى المتعصبون المسلمون على الحرم المكى ... كما كان مختلفا عن القلق العميق الذى اجتاح السعوديين والأجانب على حد سواء عند انفجار سلسلة من القنابل داخل الكويت المجاورة ، وكانت هذه الأزمة تحمل فى طياتها مخاطر الحرب بالأسلحة القوية المتقدمة تكنولوجيا .

لقد عرضت الولايات المتحدة توفير قوات بحرية وجوية للدفاع عن الأراضى والشحنات السعودية ، بيد أن كان يتطلب وجود تسهيلات برية داخل المملكة ، ورفض آل سعود تقديم هذه التسهيلات . ذلك أن استدعاء الأمريكيين كان من شأنه أن يجعل العائلة المالكة عرضة للهجوم من كل من المتشددين الإسلاميين والقوميين العرب . وتحاشيا للخلاف والمشكلات ، قصر السعوديون مهام مقاتلاتهم أمريكية الصنع من طراز إف -١٥ على القيام بعمليات المراقبة ،

والاحتماء خلف درع مجلس التعاون الخليجى الهش ، وقـــاموا بضـــخ ملاييـــن الدولارات داخل خزانة صدام حسين الحربية ، وفى صيف ١٩٧٨ حينما طالبت الكويت الولايات المتحدة برفع أعلامها على الناقلات الكويتية ومرافقتهـــا أثنـــاء مرورها عبر مياة الخليج الهادرة ، التزم السعوديون بالابتعاد ، وفضلوا المخاطرة بأنفسهم بدلا من المخاطرة بإغضاب العرب والإيرانيين إذا قاموا بدعوة الولايات المتحدة لدخول الخليج .

وفى النهاية وبعد أن استنزفت ثمانى سنوات من الحرب كل مـــن إيـــران والعراق إلى حد الموت توقف إطلاق النار .

ويتمسك السعوديين بوحدة الصف العربى بتأييدهم للعراق للاحتمـــاء مـــن الخطر الإيرانى ، ساعدوا على تحويل صدام حسين إلى وحش . وترتـــب علـــى ذلك أن حرب الخليج الأولى أدت إلى حرب أخرى .

ففى عام ١٩٩٠ ، قام صدام حسين بالضغط على الكويت لتقديم تنازلات تتعلق بحقل بترول الرميلة والتنازل عن ديونه العسكرية للكويت . وبينمـــا كـــان الصيـــف يقارب على الانتهاء ، أخذ صدام حسين فى الضغط والكويت تقـــاوم ، بينمـــا كـــانت المملكة العربية السعودية تقوم بالوساطة ، وحينما قام العراق بغزو الكويت فى الثانى من أغسطس ، فر الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح ، إلى المملكة العربية السعودية ، مثلما فر عبد الرحمن من قبل إلى الكويت عام ١٨٩١.

وفى مأوى آل الصباح فى جبال الطائف ، رأى آل سعود مدى تعرضهـــم للخطر ماثلا أمامهم ، فإذا عبرت طليعة الجيش العراقى المؤلف من مليون رجل الموجودة فى الكويت الحدود ، فإنها ستغتصب الدولة التى ورثها آل سعود عـــن ابن سعود . ومقارنة بمثل هذه الكارثة الضخمة فـــإن الاضطرابـــات السياســـية والحضارية الناجمة عن تواجد عسكرى أجنبى فوق الأراضى السعودية تصبـــح مجرد مضايقات بسيطة .

وفى اليوم السادس للأزمة ، توجه وزير الدفاع الأمريكى ديك تشينى جـوا إلى الرياض مسلحا بالخرائط وبيانات الاستطلاع ، وخلف الأبواب المغلقة ، شرع تشينى والملك فهد وكبار الأمراء فى التداول والتشاور . وعند خروجهم ، أعلـن الملك فهد أن المملكة العربية السعودية قامت باستدعاء القوات الأمريكية للدفـاع عن المملكة .

فمن أجل إنقاذ أنفسهم وإنقاذ المملكة العربية السعودية ، قـرر آل سـعود الخروج عن دائرة التحريم السياسى والثقافى الكبرى للعالم العربـى واسـتدعاء القوات الغربية لدخول أراضى دولة عربية .

وفى الفترة بين شهرى أغسطس وديسمبر ١٩٩٠ ، تدفقت علـى المملكـة العربية السعودية والخليج قوة أمريكية قوامها نصف مليون من الرجال والنساء ، واندفعت قوافل من الدبابات وعربات الجيب وحاملات الأفراد صـوب المنـاطق الشمالية العربية السعودية وانتشرت فى أرجاء الصحراء التى كان يجوبها البـدو بقطعانهم وحدهم دون غيرهم منذ أيام قليلة ، وأكدت تلك القوافل أن آل سعود قد فضلوا القوة العسكرية الأمريكية الحقيقية على مفهوم الوحدة العربيـة الغـامض وأعلن آل سعود فى وجودها أنه برغم أن المملكة العربية السعودية جزء لايتجزأ من العالم الإسلامى وعضو من أعضاء الأمة العربية ، فإنها أولا وقبل أى شـئ عازمة على حماية مصالحها الخاصة .

وأطلق الأصوليون الإسلاميون ، الذين اعتبروا وصول الأمريكييـن إلـى المملكة العربية السعودية إهانة للإسلام ، سهام حقدهـم ضـد المسـئولين عـن استدعاء تلك الموجة الصليبية الجديدة ، وكانت شرائط الكاسيت التـى تديـن آل سعود تباع سرا فى الدهاليز المظلمة لسوق البطحاء بالرياض ، وتصور كيف أن المجندات اليهوديات المنتشرات فى المملكة العربية السعودية كجزء من القـوات العسكرية الأمريكية يقمن بإلقاء خرق حيضهن عند قاعدة الكعبة .

وفى عمان أخذ الشيخ أبو زنت يوجه ألفاظاً قاسية من فوق منبره قـــائلاً :
إن المعركة ليست بين العراق وأمريكا وإنما هى بين الإسلام والصليبيـــن ...
وقد تنازل السعوديون عن هويتهم كمسلمين حينما سمحوا للقوات الأجنبية بدخول أرضنا المقدسة .... لقد أتوا بالأمريكيين ، وجاء الأمريكيـــون إلـــى الأراضـــى المقدسة بمرض الأيدز . إن الأسرة المالكة فى السعودية قد خانت الإسلام " .

ورد آل سعود على ذلك بأقصى مايستطيعون ، فعلـــى الجبهـــة الدينيـــة ، أصدر الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، كبير العلماء الموقر ، فتوى أعلن فيها الحرب المقدسة ضد العراق ، "إن الجهاد الذى يتم اليوم ضد عـــدو اللــه ، صدام ، حاكم العراق ، إنما هو جهاد مشروع مـــن جـانب المسـلمين ومـــن يساعدونهم" . وهكذا بجرة قلم حول الزعيم الدينى الوهابى الجنود الأمريكيين إلى محاربين يدافعون عن الإسلام .

وعلى الصعيد الاقتصادى ، استخدم آل سعود عصاهم الذهبية ضد العرب ودولهم التى ساندت صدام حسين ، فتوقفت المعونات وشحنات النفط عن الأردن.
وأغلقت حدود المملكة فى وجه الشاحنات الأردنية التى تعتمد على نقل المنتجات عبر المملكة العربية السعودية إلى الإمارات العربية على طول ساحل الخليـــج ،
ووجدت الأعداد الكبيرة من الأردنيين الذى يعملون فى المملكة العربية السعودية أن الحياة شاقة إن لم تكن مستحيلة مع الإجراءات الأمنية والضربات الانتقاميـــة التى وجهها السعوديون ضد العمالة الأجنبية المشتبه فيها .

وفقدت منظمة التحرير الفلسطينية ، المستفيد الأول بملايين الدولارات كل عام ، الأموال السعودية ، كما خسر الفلسطينيون العاملون فى المملكة وظائفهم أو وجدوا أنه من الصعب عليهم البقاء ، كما تعـــرض آخـــرون للمعانـــاة ، وكـــان اليمنيون أكثرهم معاناة . لقد حمل اليمنيون فعليا عبء تشـــييد البنيـــة الأساســـية الحديثة للمملكة العربية السعودية فوق ظهورهم ، وكانوا يقومون بحمل الحجـــارة والملاط ، وتفريغ السفن والشاحنات ونقل أجهزة التكييف والثلاجات فوق عربات

اليد ، وكان هناك مايقرب من مليونى يمنى يعيشون فى المملكة العربية السعودية حتى أكتوبر ١٩٩١ حينما أصدرت الحكومة السعودية أوامرها بطردهم . وباستثناء النسبة الصغيرة التى تحمل الجنسية السعودية ومن يعمل منهم لدى كفيل سعودى ، اضطر ثلاثمائة وخمسون ألف يمنى إلى عبور الحدود الجنوبية فى خلال أسبوعين بموجب هذه الأوامر .

وعندما فقد مواطنوها وظائفهم وأعمالهم ، خسرت الحكومة اليمنية نفسها ثلاثمائة وخمسين مليون دولار شهريا كانت تمثل تحويلات هذه العمالة ، وحدث ذلك كله لأن حكومة اليمن انحازت إلى صدام حسين ، وقد عكس رجل يقف بسيارته المكدسة بمتاعبه عند الحدود ذلك بقوله : "بالأمس كنا أشقاء ، واليوم نحن أعداء" .

ووصلت الحرب إلى نهايتها . وخرج آل سعود ومملكتهم سالمين ، بيد أنها لم تكن نهاية طيبة ، فبرغم أن القوات الأمريكية بدأت فى الانسحاب بعد أيام من وقف إطلاق النار ، فقد ترك آل سعود ليدفعوا عن أنفسهم تهمة استخدام مرتزقة غربيين للقيام بالحرب . وهاجم كثيرون من العرب المملكة العربية السعودية ليس بسبب مافعلته بل بسبب ماهية الفعل ذاته ، متجاهلين أن صدام حسين هو الذى أحدث الانقسام فى صفوف الأمة العربية .

إن العالم العربى لم يشف أبدا من بلاء الازدهار الاقتصادى عام ١٩٧٣ الذى رفع بعض العرب إلى أعلى درجات الثراء والقوة وحط تماما من قدرة وكرامة آخرين ، وبنزوعهم إلى الماضى أكثر من الواقع ، مازال العرب خارج المملكة العربية السعودية والدولة الأخرى الغنية بالنفط يتعلقون بالزمن الذى كان فيه كل العرب لايملكون سوى القليل الذى يقتسمونه معا بالتساوى . ومازال ذلك يمثل الينبوع الذى يتدفق منه استياء من لايملكون .

وفى النهاية تبقى كلمة ، وهى أن من يتمسكون بقوة بأسطورة الوحدة العربية ، هم الذين يؤمنون بأنهم أحق بالثروة السعودية .

الفصل الخامس
حافظ الأسد .. ليث دمشق

تعتبر سوريا عالم رجل واحد ، هو حافظ الأسد ، وطوال أكثر من عقدين من الزمان ، ظل الأسد ، فى سعيه الحثيث من أجل تحقيق المصالح السورية ، هو القومى العربى المطلق والشخص الخارج على السياسة العربية على السواء . وبإرادته الحديدية ، ومعالجته البارعة لتوازن القوى عمل على تشكيل النظام العربى وفقا لمواصفاته ومتطلباته ، وفى سياق هذه العملية جعل سوريا الصوت العربى المهيمن على المشرق العربى ، ومع ذلك فإن سوريا التى لا يمكن تجاهلها لفترة طويلة فى الشئون العربية هى نفسها بلد لا توحد صفوفه الا قبضة حافظ الأسد القوية .

وتاريخياً ، بدأت سوريا الكبرى فى التفتت التدريجى مع سقوط الإمبراطورية العثمانية ، إذ تولت بريطانيا أمر الانتداب على فلسطين ، واقتطعت بذلك ما كان يعتبر السوريون إقليمهم الجنوبى ، ووضعت فرنسا يدها على الأجزاء المتبقية ، حيث قامت باقتطاع أجزاء من غربى سوريا وألحقتها بالجزء المسيحى من شمال بيروت ، وأقامت ما يعرف الآن باسم لبنان ، وبضربة واحدة فقدت سوريا بوابتها الغربية ، ومنافذها إلى البحر ومطالبتها بالاستقلال .

وفى عام ١٩٢١ قامت فرنسا بالإشراف على المرحلة الثانية من مراحل تقليص سوريا ، وهى تسليم الإسكندرية إلى تركيا ، وكان السوريون ينظرون بلا حول ولا قوة ، بينما كانت سوريا التاريخية تتعرض للتمزيق على أيدى قوى لايستطيعون مواجهتها ، تماما كما وقف أسلافهم عاجزين أمام زحف المصريين أو الأشوريين أو البابليين أو الرومان ، وفى غضون عامين ، أدت الحدود التى رسمها الأخرون عبر سوريا الكبرى إلى تقسيم العائلات والمجتمعات على نحو

ألحق بها أضراراً بالغة ، وإلى إحداث الفوضى والاضطراب فـــى الاقتصـــاد ، والقضاء على سبل العيش ، وخلق إحساس دائم بالمرارة .

بيد أن حقيقة سوريا الكبرى تحدت الأسطورة ، فبلاد الشام لم توجد أبدا من الناحية السياسية ، ودولة سوريا الراهنة إنما هـــى مجموعـــة مـــن المجتمعـــات المتناحرة المتعادية التى تعيش داخل حدود وطنية وتتصارع مصالحهـــا الضيقـــة ضد إحساسها بأنها سورية ، فالمدينة تقف ضد الريف ، والديانات تنفصـــل عـــن بعضها البعض ، والجماعات العرقية تبغض بعضها البعض أيضا ، وكذا القبـــائل تتناحر معا ، والولاء هنا مرتبط بالموقع والعقيدة ورابطة الدم ، ونتيجة لذلـــك ، فإن الدولة تمثل ساحة قتال تسعى فيها كل جماعة وراء مصلحتها الخاصة .

والانقسام بمعناه الواسع يثير المدينة ضد الريف ، فسوريا بلـــد زراعـــى ، وكانت القرى على مر التاريخ تمارس الزراعة الجماعية ، ولكن هذا النظام تبدل فى ظل الحكم العثمانى ؛ إذ قامت العائلات القوية التـــى اســـتفادت مـــن نظـــام الضرائب الذى طبق فى القرن السابع عشر ، داخل المـــدن بالاســـتحواذ علـــى مساحات واسعة من الأراضى .

وبحلول عام ١٨٥٨ لم يعد يتم حساب ملكيات الأراضى فـــى الســـجلات العثمانية بالأكرات ، وبدلا من ذلك أصبحت تقاس ثروة الرجل وقيمته بعدد القرى والفلاحين الذين يعملون فى خدمته . ومع قيام فلاحيهم بنظـــام المشـــاركة فـــى المحصول ، كان ملاك الأراضى الواسعة ، الذين يعيشون فى المدن بمنازل مـــن الحجر الجيرى الأصفر الباهت والبازلت الأسود ، يجمعون الأموال من الأرض .

وأصبحت المدن – خاصة دمشق وحمص وحماه وحلب – قلاعـــا للقـــوة السياسية والاقتصادية . وتحدت هذه المدن ، التى كـــان يغلـــب عليهـــا الســـكان المسلمون السنيون ، المجتمع التقليدى ، الذى أقام فيه " الأعيـــان " سلســـلة مـــن

التحالفات مع التجار ورؤساء العشائر الصغيرة المرتبطة بـالفلاحين ، وأفرخـت هذه المدن ، التى كانت بمثابة كيانات منفصلة مسـتقلة ، أشـكالا مـن التنـافس تضارع مثيلتها فى الدول - المدن الإيطالية فى عصر النهضة . وحتى اليـوم ، فإن السورى ينتمى أولا إلى جانب حلب أو دمشق أو حماه أو حمص .

ويثير هذا الأسلوب من أساليب التفكير العتيقة قدرا كبيرا من الألم النفسـى بين أولئك السوريين الذين يشعرون بحاجة بلادهم لترسيخ شـكل مـن أشـكال التماسك الداخلى وكما أن سوريا مقسمة وفقا للمدينة ، فإنها مقسمة أيضـا وفقـا للديانة . وقد أدت الطبيعة الجغرافية بوجه عام إلى ظهور مجتمعات دينية طبيعية منفصلة ، ففى الثلث الغربى من سوريا أدت وعورة تضاريس الأرض إلى جذب مجموعة متباينة من المنشقين الدينيين وحصرتهم داخل مقاطعـاتهم المقصـورة عليهم وحدهم دون سواهم ، وبرغم الجاذبية العاطفية لسوريا الكبرى ، فقد ظلت الهوية متجمدة داخل الانتساب الدينى . ولم يطرأ تغيير كبير ؛ إذ أن الهوية الدينية تعكس ما هو أكبر من النظام اللاهوتى . فهى تشمل الروابط العائليـة والقبليـة والعشائرية . كما تحدد المنطقة الجغرافية والمصالح الخاصة الضيقة ، وتصـف الأنماط الثقافية وأساليب الحياة .

ومصطلحا " مسيحى " و" مسلم " وصفان بدائيان داخل تركيب دينى معقد، وفى تاريخ الديانة المسيحية ، وقعت بعض أهم أحداث هذه العقيدة فوق الأراضى السورية . وبعد مرور قرون على هذه الأحداث ، لا تزال آثارها قائمة ، ففى أحد شوارع دمشق الجانبية الملتوية التى يلفها الغموض ، ينفتح أحد الأبواب الضيقـة ليفضى إلى عدد من الدرجات شديدة الانحدار التى تهبط بنا عبر القـرون إلـى أطلال بيت حنايا . ويقع الشارع الذى يطلق عليه اسم " المستقيم " وكذا الجـدار الذى أنزل من فوقه بولس الرسول فى سلة فرارا من أعدائه فى الدين على مقربة من هذا المكان .

وخارج دمشق ، فى قرية ملولة المنعزلة الواقعة بجانب التلال ، لا يزال السكان المسيحيون يتحدثون اللغة الآرامية التى كان يتحدث بها المسيح . وبغض النظر عن تلك الروابط التى تربطهم بتاريخ الكنيسة العالمية المبكر ، فإن التباين الناجم عن النظام اللاهوتى والجغرافية والعوامل الاقتصادية والأسرية يقسم المسيحيين إلى مارونيين كاثوليك ورومانيين وفرعين من الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ومجموعة صغيرة من البروتستانت . وليست هذه مجرد طوائف دينية. وإنما هى جماعات طائفية مميزة على استعداد لتخريب العقيدة من أجل مصالحها الخاصة ، ومع ذلك فإن الإنقسامات بين المسيحيين تبدو باهتة بالمقارنة بنظيرتها بين المسلمين .

ففى حين أن خمسة وثمانين بالمائة من سكان سوريا من المسلمين فإن واحدا من كل خمسة من هؤلاء المسلمين ينتمى إلى إحدى الطوائف المنشقة ، فالسنيون لهم الغلبة فى المدن والمناطق الريفية من وسط سوريا . والمسلمون غير السنيين ، خاصة الدروز والعلويين ، يتجمعون فى الجبال الشمالية والجنوبية، وكلاهما مرتبطان بشكل غير وثيق بالمذهب الشيعى ويتألف سكان سوريا فى الوقت الراهن من حوالى تسعة وستين فى المائة من السنيين ، واثنى عشر فى المائة من العلويين ، وخمسة فى المائة من الدروز ، وعشرة فى المائة من المسيحيين وتضم نسبة الأربعة فى المائة المتبقية الأكراد والأرمن والتركمان والشركس ، الذين لا زالوا متمسكين بلغاتهم وثقافتهم الأصلية ، بالإضافة إلى نصف مليون من البدو ، الذين يعيشون فى الصحراء السورية ، وربع مليون من الفلسطينيين ، المنتشرين أساسا حول دمشق ، ونظرا لأن هوية كل سورى لا تتحدد بالضرورة بالديانة فقط ، وإنما تتحدد أيضا على أساس الطائفة والطبقة والمنطقة والعرق ، فإن كل سورى يمثل على نحو ما جماعة أقلية . وكل جماعة أقلية لها خصائصها النفسية المشتركة التى تحول كل تصرفات من تصرفات أية

جماعة معارضة لها إلى تحد يهدد مصالحها أو بقاءها ، ونتيجة لذلك ، فإن سوريا أقرب ما تكون إلى أرخبيل من الجزر وراء مصالحها الخاصة .

وفى عام ١٩٤٦ ، حينما تخلى الفرنسيون عن انتدابهم عليها ، وكانت سوريا بلدا زراعيا يعول فيه مليونان من الفلاحين مليونا ونصف المليون من سكان المدن ، وكان هؤلاء الذين يفلحون الأرض يعيشون فى قرى من الطين والحجارة بدون ماء أو كهرباء أو طرق ممهدة ، كما كانت تنتشر بينهم الأمراض.

وبحلول عام ١٩٥٠ انتفضت الثورة على كل النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى انتقل من العثمانيين إلى الفرنسيين ، ثم إلى سوريا المستقلة ، وكانت الثورة بقيادة البعث .

وقد نشأ البعث فى سوريا ، وهو الأيديولوجية التى تؤكد على أن الشعب العربى يشكل أمة واحدة تاريخيا وطبيعيا ، وقد انتشر المذهب البعثى فى صالونات المثقفين إبان فترة الثلاثينات . وردا على تمزق سوريا التاريخية عقب الحرب العالمية الأولى ، أخذ المفكرون البعثيون فى مناقشة الهوية الوطنية السورية وعلاقة سوريا بسائر المجتمعات الأخرى التى تتحدث العربية . غير أن جاذبية البعث نبعت من واقع سوريا الصغرى ومن الحلم الكبير بعالم عربى يضم كل العرب ، ومن خلال أيديولوجية البعث العلمانية ، أخذ المسيحيون والدروز والعلويون والجماعات الساخطة فى سوريا فى تحدى هيمنة عدد صغير من العائلات الحضرية الكبرى وعملائهم السنيين على السياسة السورية ، وشرع البعثيون بمذهبهم الاشتراكى الغامض فى الهجوم على تركز الثروة والسلطة فى أيدى الأعيان ، وأدت دعوة البعث إلى انتهاج سياسة علمانية وإرساء نظام اقتصادى عادل يتسم بالمساواة ، إلى جذب أفراد من الأقليات فى سوريا ، بمن فيهم الشاب العلوى حافظ الأسد .

وقد ولد حافظ الأسد فى السادس من أكتوبر ١٩٣٠ ، وكان أبـــوه فلاحـــا يزرع التين والتبغ ، ويعيش فى منزل من حجرتين من الحجر الخشن فى قرداحة فى التلال الواقعة شمال شرقى ميناء اللاذقية . ولم تكن قرداحة ، وهـــى مجـــرد قرية علوية فى قلب منطقة العلويين ، سوى مجموعة من الأكواخ ذات الأســـطح المستوية الواقعة فى أقصى طرف أحد الطرق الضيقة . وقد بدأ حافظ الأسد فـــى تلقى تعليمه فى مدرسة فى الهواء الطلق أعدتها الإدارة الإستعمارية الفرنســـية ، وفى عام ١٩٣٩ ، هبط الابن النابه المحلى ، من الجبل ليلتحق بالمدرســـة فـــى اللاذقية ، وهناك واجه بقوة حقيقة معنى أن يكون المرء علويا فى سوريا .

وفى سن السادسة عشرة ، انجذب الأسد الذى كان خجولا فى فصله إلـــى حزب البعث الذى كان يبشر الأقليات إلى أعلى المناصب السياسية والاجتماعيـــة فى النظام فى سوريا . وسرعان ما انتقل الإسد ذو الموهبة الفطرية مـــن رســـم الشعارات البعثية فوق الجدران الحجرية إلى كتابة المنشورات السياسية البعثية .

وفى بداية الخمسينات انضم حافظ الأسد إلى القوات المسلحة السورية التى كانت قد طورتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية . وكـــان الجيـــش غالبـــا يوفـــر الوظائف للفقراء ، ويمثل الملاذ الوحيد الذى يهرب إليه الفقراء من العمل كأجراء فى الأرض .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه مع رفض طبقات ملاك الأراضى والتجار مهنة الجندية المتواضعة ، امتلأ سلك الضباط والرتب الأخـــرى بالأقليـــات والفئـــات الأخرى فى النظام الاقتصادى . ومن خلال سعيها للتحرك الاجتماعى ، انجذبت نفس هذه الشريحة من المجتمع التى انضمت إلى الجيش إلى أيديولوجية البعث . ونتيجة لذلك ، التحمت القوات المسلحة وحزب البعث معا ، وأمســـكت الأولـــى بالقوة العسكرية فى سوريا ، وسيطر الثانى على نظامها البيروقراطى . وفى عام ١٩٥٨ ، صعدا معا إلى قمة النظام السياسى المنحرف فى سوريا .

وقد أصبحت سوريا منذ استقلالها مرادفا للفوضى السياسية ، وكانت الانقلابات والانقلابات المضادة الكثيرة تتوالى إثر بعضها البعض حتى أن وكالات الأنباء الدولية نادرا ما كانت تهتم بالإشارة فى كل مرة إلى الدبابات التى كانت تنطلق إلى دمشق لطرد حكومة أو أخرى وتنحيتها عن السلطة . وقد ذهبت جريدة الأهرام المصرية إلى حد وصف سوريا بأنها أقرب إلى أن تكون مستشفى للأمراض العقلية منها إلى الدولة ، وحينما تولت حكومة البعث السلطة ، تبين لها أنها لن تستطيع أن تفعل ما هو أفضل مما فعله الآخرون للسيطرة على مظاهر التنافس بين طوائف المجتمع المختلفة .

ولم يكن البعث ، الذى قصر نفسه على الجيش والنظام البيروقراطى ، يتمتع بأى تأييد شعبى سواء لتحقيق برنامجه الاقتصادى أو للبقاء فى السلطة . ونظرا لالتزامه الأيديولوجى بمبدأ العروبة الشاملة ، فقد تمسك البعث بفكرة الوحدة مع مصر تحت حكم عبد الناصر باعتبارها أفضل الآمال والوسائل للالتفاف حول النظام السياسى التقليدى الذى يسيطر عليه السنيون . بيد أن الوحدة مع مصر تحولت إلى كارثة .

فقد كان الثمن الذى طلبه عبد الناصر –الذى كان مترددا– مقابل الوحدة هو أن تكون له السلطة المطلقة على كل من الشطرين المصرى والسورى من الجمهورية العربية المتحدة . ووافق البعثيون السوريون اعتقاداً منهم بشكل ساذج بأنه سيتعين على عبد الناصر أن يحكم سوريا من خلالهم ، فقد كانوا هم الذين أججوا الشعلة الأولى للقومية العربية . ومن ثم كانوا هم الذين سيقومون بتعليم مصر معنى العروبة . وبدلا من ذلك قام عبد الناصر بإفساد السياسة السورية وقيد حركة القوات المسلحة ، وهى بوتقة تأييد البعث . ووجد الضباط المشتبه فى عدم ولائهم التام لعبد الناصر أنفسهم ينقلون من سوريا إلى مصر .

وقد أمضى حافظ الأسد الذى كان واحدا من هؤلاء الضباط الجزء الأكبر من تاريخ الجمهورية العربية المتحدة بالقاهرة . وفى أكتوبر ١٩٥٩ ، قام عبد الناصر بتعيين المشير عبد الحكيم عامر ، وهو أقرب مساعديه ، كحاكم فعلى لسوريا . وأصبحت دمشق بتغاضيها عن ذلك عاصمة إقليمية لامبراطورية مصرية .

وبدأت جميع الفصائل المتنازعة داخل الكيان السياسى السورى فى التلاحم ضد الجمهورية العربية المتحدة - من التجار وملاك الأراضى ورجال الأعمال ، الذين كانوا يكرهون سياسة عبد الناصر الاشتراكية ، والموظفين ، الذين أعربوا عن استيائهم من البيروقراطيين المصريين الذى فرضوا عليهم ، ورجال الجيش الذين أخذوا فى الغليان من وطأة الهيمنة المصرية ، والبعثيين ، الذين كانوا يرون حزبهم الأثير لديهم تتمزق أوصاله على يدى عبد الناصر الطموح .

وفى أعقاب الاضطراب الذى أصاب مجتمع رجال الأعمال نتيجة قرارات التأميم التى أعلنها عبد الناصر فى يوليو ١٩٦١ ، انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١ ، بعصيان يمينى مسلح قاده المقدم عبد الكريم النحلاوى . وطوال الشهور التسعة عشر التالية ، راحت سوريا تدور فى دوامة عنيفة أخرى من الانقلابات والانقلابات المضادة . وبالقرب من الوسط كانت هناك اللجنة العسكرية ، وهى تنظيم سرى من شباب الضباط العسكريين البعثيين الغامضين ممن يؤمنون بأفكارهم البعثية الخاصة . وكان من بينهم حافظ الأسد .

وفى ليلة السابع من مارس ١٩٦٣ ، أصدرت اللجنة العسكرية أوامرها للدبابات وقوات المشاة بالتحرك صوب دمشق . وسقطت العاصمة بسرعة البرق، تقبل السكان اللامبالون فى أرجاء سوريا الانقلاب غير الدموى تقريبا . وقد

تحقق النجاح بسهولة لأن الحكومة القائمة ، حسبما جاء على لسان حافظ الأسد : "كانت حكومة بلا تأييد شعبى وبلا جيش ، حيث كانت عبارة عن حكم طبقة تتمتع بالقوة والسلطان " . وقبل أسبوع واحد من الانقلاب كان حافظ الأسد البالغ من العمر ثلاثين عاما وشركاؤه الخمسة فيه يعيشون حياة مبهمة تحفها المخاطر ويلفها الغموض ، والأن أصبحوا أكبر قوة فى السياسة السورية . وبدأت هذه اللجنة العسكرية فى تدعيم مركزها من خلال تطهير سوريا من العناصر " غير الموالية " ومن أجل خلق بديل لحكم الأعيان التقليدى ، قامت الزمرة العسكرية باستبعاد المئات من المناصب الحكومية وإحلالهم باعضاء من الحزب ، وقامت بزرع البعثيين داخل كل وحدات القوات المسلحة لتلقين الجيش السورى مبادىء الأيديولوجية البعثية . وفى النهاية اندمج الجناحان العسكرى والمدنى لحزب البعث ليشكلا أداة ثورية واحدة للقضاء على النظام القديم ، غير أنها برغم كل ما لديها من طاقات ، كانت اللجنة العسكرية مجرد جزء صغير من الأقلية البعثية ، تمثل جماعة عسكرية منشقة عن الحزب الضعيف الذى لا يتمتع بأية قاعدة شعبية. وعلى مر السنوات السبع التالية ، كانت الاضطرابات السياسية تعمل على إثارة وتحريض النظام السياسى التقليدى ضد البعث ، والبعث ضد الناصريين والإخوان المسلمين ، والبعث ضد نفسه .

وفى مايو ١٩٦٣ ، قام البعثيون ، استناداً إلى القوة التى يتمتعون بها داخل الجيش ، بسحق المحاولة التى قام بها الناصريون السوريون للإطاحة بحكومتهم باسم العروبة الشاملة بزعامة مصر .

بيد أن أحد أشكال التهديد استبدل بشكل آخر . ففى ربيع ١٩٦٤ ، واجه البعث تمردا من السنيين ضد النظام السياسى الذى تسيطر عليه الأقليات . وأخذ أئمة المصلين فى المدن المرتبطون بالإخوان المسلمين يلقون الخطب الملتهبة ضد البعث العلمانى . وكانت رسالتهم الدينية تنطوى على رسالة أخرى اجتماعية

تدعو أعيان المدن إلى الانضمام إلى المعركة ضد الهراطقة الذين يسيطرون على الحكومة . وفى مدينة حماة ، التى كانت معقلا للمحافظة على تقاليد ملكية الأرض، ظهرت الأسلحة من مخابئها ، وأقيمت المتاريس فى الطرقات ، وأخذت الضربات القوية تنهال على أعضاء حزب البعث ليتساقطوا صرعى . وأنزل البعث جيشه إلى الشوارع . وبعد يومين من القتال وسقوط سبعين قتيلا انتهت الانتفاضة .

وبعد أن أحكم البعث قبضته على المدن وعلى السنيين ، تحول بعد ذلك إلى نفسه ، إلى البعث نفسه . ففى أعقاب انقلاب ١٩٦٣ ، قامت اللجنة العسكرية ، التى كانت عديمة الخبرة تقريبا فى إدارة شئون الدولة ، بإدخال ميشيل عفلق وصلاح البيطار ، وآخرين من البعثيين الأوائل ، فى الحكومة . وبعدها مباشرة تقريبا ، انقسم البعث إلى قوتين ، الحرس القديم والجديد ، حزب ميشيل عفلق وحزب اللجنة العسكرية بقيادة حافظ الأسد . وبالنسبة لعفلق ، كان الحزب هو ينبوع الفكر العربى ، والحارس القيم على طهارة الحكومة الأيديولوجية . وبالنسبة لحافظ الأسد واللجنة العسكرية ، كان الحزب بمثابة المحرك للتغيير الاجتماعى ، والمؤسسة المركزية للدولة . وكان ذلك هو لب الخلاف الفلسفى .
وعلى المستوى الداخلى ، أدى الصراع داخل البعث إلى إثارة الفقراء فى الريف ضد المثقفين فى المدينة .

وفى الثالث والعشرين من فبراير ١٩٦٦ ، قام شباب الريف الذين يسيطرون على الجيش بتطهير الحزب . وفى حديث يماثل شجب الحزب الشيوعى لماركس ولينين ، قام الجناح العسكرى بحزب البعث بإلقاء القبض على صلاح البيطار ووضعه فى السجن ولاذ ميشيل عفلق بالفرار إلى لبنان . وتولت الأقليات –من العلويين والدروز– فى النظام الجديد مقاليد الحكم وسرعان ما تم طرد الدروز ، ولم يبق سوى العلويين وجرت عملية تطهير أخرى لم يتبق على أثرها إلا العلويون الموالون لحافظ الأسد .

وفى الثانى عشر من نوفمبر ١٩٧٠ ، قام حافظ الأسد بخطواته الأخيرة التى أهلته لإحكام سيطرته المطلقة على حزب البعث السورى والحكومة السورية. وطوال ثلاث أيام ظلت البلاد معلقة ، تتخبط فى التساؤل عما حدث . وفى اليوم الرابع كان حافظ الأسد يضع اللمسات الأخيرة لبيان إعلان توليه السلطة، ووصل الرئيس الليبى معمر القذافى إلى مطار دمشق دون إعلان مسبق. وأسرع الأسد ، الذى أصبح الشخص الوحيد المناسب لاستقبال الرئيس الليبى ، إلى المطار . وعلق ساخرا وهو يستقبل القذافى بقوله " من المناسب تماما أنك لم تصل مبكرا عن ذلك بنصف ساعة " . فقد أعلنت إذاعة سوريا مساء هذا اليوم عن " حركة التصحيح " . وكان حافظ الأسد يبلغ من العمر أربعين عاما آنذاك .

وقد أصبح الأسد على رأس السياسى السورى باسم البعث ، غير أنه لم يتقيد أبدا بأيديولوجية الوحدة العربية الشاملة التى كان يعتنقها البعثيون الأوائل ، وكانت دوافعه نابعة بالأحرى من واقع المجتمع السورى . وربما لم يكن حافظ الأسد حتى يدرك مجرد مدى صعوبة السيطرة على هذا المجتمع . ففى عام ١٩٧٠ قال الأسد لأحد أصدقائه : " لماذا تظن أن حكم هذا البلد من الأمور الصعبة ؟ الواقع أن المسألة بسيطة للغاية . دعنا ننظر إلى الشعب . إن من لا يملك سيارة يريد سيارة . ومن لا منزل له يريد منزلا . ومن يتقاضى مرتبا محددا يريد ضعف هذا المرتب أو ثلاثة أضعافه . وأنا أوكد لك أننا نستطيع تلبية جميع هذه المطالب . وإذا فعلنا ذلك ، فمن الذى سيبقى فى المعارضة فى سوريا؟ مائة أو مائتان من الأشخاص الذين يأخذون السياسة مأخذا جديا . وهم سيظلون ضدنا مهما فعلنا . وقد تم بناء سجن المزه من أجلهم " . لكن حافظ الأسد لم يجد حكم سوريا بمثل هذه السهولة .

وفى السنوات الخمس والعشرين الأولى التى أعقبت الاستقلال ، كانت سوريا تعانى من آثار حدوث انقلاب أو محاولة انقلاب بمعدل مرة كل عام .

والآن . وفى تحد صريح للتقاليد المستمرة من قرون عديدة بأن يحتفظ السنيون بالسلطة فى أيديهم ، ها هو أحد العلويين يسيطر على مقاليد الحكم . وكانت الصورة التى رسمها حافظ الأسد لحزب البعث هى مؤسسة الدولة الأساسية . وبرغم بعض المحاولات المخلصة لإشراك كافة عناصر المجتمع السورى الممزق فى العملية السياسية ، فإن حكم الأسد لم يضرب بجذوره إلا بين من يستطيع الثقة بهم – وهم العلويون . وقد كانت الرابطة التى تربط العلويين بحافظ الأسد هى التى جعلتهم يصبحون خلال فترة السبعينات من الصفوة السياسية السورية المميزة اقتصاديا ، بعد أن تعرضوا لقرون عديدة للنبذ والحرمان والاضطهاد .

وقد أضر ارتفاع شأن العلويين بالعديد من السوريين خاصة السنيين الذين لحق بهم ضرر بالغ يفوق الآخرين ، فقد تجرد الأعيان من النفوذ السياسى ، وأدت الأموال الجديدة التى تدفقت إلى سوريا من الخليج إلى تدنى طبقة التجار ، وعمل نظام الأسد العلمانى على الحط من شأن الزعماء الدينيين وكان الجميع يضطرمون بالاستياء . وقد تعدى غضبهم نطاق طبقتهم من خلال شبكة العلاقات الراسخة منذ أمد بعيد والتى تربط الأسر والجماعات السنية . وكانت جماعة الإخوان المسلمين هى التى تتزعم المعارضة ضد النظام المرتبط بالطائفة العلوية البغيضة .

ففى عام ١٩٦٣ ، حينما تولى البعثيون لأول مرة أمور الدولة ، قامت مجموعات صغيرة من المتشددين الإسلاميين سرا بتنظيم حركة للمقاومة المسلحة ضد البعث العلمانى . وطوال السنوات الستة عشر التالية أخذت الخلايا السرية فى تكديس الأسلحة ، واتخذت أسماء مستعارة ، ودخلت إلى المساجد لتجنيد المقاتلين وضمهم إلى صفوفها . وفى عام ١٩٧٩ ، كانت جماعة الإخوان المسلمين ، التى تضم عشرة آلاف من الفدائيين ، على أهبة الاستعداد لإعادة سوريا إلى أغلبيتها السنية .

وفى شهر مايو قام الإخوان المسلمين بإرسال أولى رسائلهم إلـــى حـــافظ الأسد حينما أطلقوا النار على سيارة كان يستقلها فى شوارع دمشق . وفى الشهر التالى ، فى السادس عشر من يونية قام أحد أعضاء هيئة التدريس بمدرسة حلب للمدفعية من المتعاطفين مع الإخوان المسلمين بجمع الطلبة المستجدين الذين كان أغلبهم من العلويين فى قاعة الطعام وأغلق جميع الأبواب باستثناء باب واحـــد . ودخل من خلاله الإخوان المسلمون وأطلقوا أسلحتهم الآلية دون تمييز . وتم قتل الطلبة المحاصرين مثل السمك داخل برميل . وبهذا العمل الدمـــوى المذهـــل ، أعلن الإخوان المسلمون الحرب صراحة على العلويين والبنية السياسية لحـــزب البعث الذى يرأسه الأسد .

وامتد العصيان المسلح شرقا حتى الفرات وغربا حتى اللاذقية ، المدخـــل الخارجى للمنطقة العلوية . واندفعت حشود كبيرة من السوريين غـــير المنتميـــن للأصوليين لتأييد قضيتهم مما أدى إلى زيادة صفوف الأخوان المســـلمين . كمـــا انضم إليهم البعثيون الذين استبعدتهم حركة التصحيح التى قام بها الأسد .

كذلك ساهم الحزب الشيوعى بثقله المحدود ، وفى الوســـط كـــانت هنـــاك الطبقة المتوسطة من السوريين ، التى تعمل على تدعيم التحالف المضاد للأسد ، بزعامة تجار الأسواق الذين يمثلون العمود الفقرى للمجتمع السورى التقليدى .

وفى الفترة من منتصف ١٩٧٩ حتى منتصف ١٩٨٠ كـــان المتمـــردون بيمسكون بزمام المبادرة . وخرج الفدائيون من مخابئهم الآمنة فى المدن القديمـــة المكتظة بالسكان مثل حلب وحماة . وكانوا يقومون أثناء النهار بتنظيم المظاهرات المعادية للحكومة ، وإغلاق المحال وإشعال النيران فى المبانى . وفـــى الليـــل ، كانوا يطلقون فرق الهجوم ضد أعضاء حزب البعث الموالية للأسد ، وغالبا مـــا كانوا يقتلونهم فى فراشهم .

وحتى عام ١٩٨٠ ، كان حافظ الأسد يرفض فيما يبدو مواجهة حقيقة أن سوريا التى صنعها بنفسه كانت تنزلق إلى حرب أهلية فعلية . ولكن حينما أعلنت حلب الإضراب العام استيقظ حافظ الأسد . وبعد أن قام بتزويد مؤيديه بالأسلحة الثقيلة من أجل الحماية والمساندة ، أرسل قوات الأمن لاقتحام المدينة . وبرغم سقوط مائتى قتيل فى حلب ، فإن المعارضيين لم يهدأوا ولم يستلم الأسد .

وفى التاسع من مارس ١٩٨٠ قامت القوات المنقولة بالطائرات العمودية بشن عملية بحث وتدمير وحشية على مدينة جسر الشغور المجاورة لحلب . ثم تحولت القوات المسلحة إلى حلب . وقامت فرقة من عشرة آلاف رجل ومائتيين وخمسين عربة مدرعة بإغلاق أحياء كاملة من المدينة وأعلن اللواء شفيق فياض أنه مستعد لقتل ألف رجل يوميا لتخليص المدينة من حشرات الإخوان المسلمين . ولم يخضع أحد ، وانتفض معارضوا الأسد بجرأة فى حماه ، وأدلب ، ودير الزور ، وحمص .

وفى السادس والعشرين من يونية ١٩٨٠ ، تزايدت حدة العنف من جديد . فبينما كان حافظ الأسد يقف عند بوابة قصر الضيافة فى دمشق ليرحب برئيس دولة مالى الزائر ، اندفعت سيارة مسرعة وأطلقت وابلا من النيران الآلية وألقت قنبلتين يدويتين سقطتا عند قدمى الأسد . وسارع الرئيس بركل إحدى القنبلتين بقدمه ودفعها بعيدا عن الطريق بينما قام أحد الحراس بالتضحية بحياته وارتمى على القنبلة الثانية بجسده . ومع زيوع نجاة الرئيس بأعجوبة ، اجتاحت الطائفة العلوية موجة من الغضب والتعطش للانتقام .

وفى صبيحة اليوم التالى هبطت اثنتان وعشرون طائرة مروحية بأفراد محملة بأفراد من المغاوير داخل سجن تدمر بالقرب من أطلال تدمر القديمة . وبدأوا فى مهاجمة الزنزانات المحتجز فيها أعضاء الإخوان المسلمين الذين ألقى

القبض عليهم خلال العام السابق ، وقام هؤلاء المغاوير بقتل ستمائة سجين . وفى الأسبوع التالى ، أعلن حافظ الأسد أن الانضمام للإخـــوان المســلمين جريمـــة عقوبتها الموت . ولكن التمرد استمر دون توقف .

وألزم الخوف أعضاء حزب البعث منازلهم ، التى كانت أشبه بالحصون فى تأمينها . وانكمش الأسد داخل مكتبه الآمن ، الذى كان يحرســـه أفضـــل رجـــال الحراسة فى العالم . وأخفقت ثلاث سنوات من الجهد فى القضاء علـــى الحركـــة السرية التى كانت تعمل على قتل نخبة الطبقة المهنية العلوية ، وتثبيت تهمة عدم شرعية رئاسة حافظ الأسد . وقد ثبت أن المعارضة ضعيفة بحيـــث لا تســتطيع الإطاحة بالبعث وقوية بحيث لا يمكن القضاء عليها والتخلص منها . وفى ليلـــة الثانى من فبراير ١٩٨٢ ، بدأت أحداث الفصل الأخير مـــن المســيرة الدمويـــة تتكشف فى مدينة حماة .

ففى الساعة الثانية صباحا ، قام أحد القناصة الرابضين فوق سطح أحد المنازل بقتل عشرين جنديا من جنود الأسد الذين كانوا يجوبون الحى القديم أثنـــاء دوريتهـــم الليلية . وفجأة أضيئت أنوار مساجد المدينة وأخذت صيحات الجهاد المرتجفـــة ضـــد البعث تتردد من المآذن . " الله أكبر . جميع السوريين ينتفضون ضد النظام الملحد . هلموا إلى المساجد ، حيث ستوزع الأسلحة لاقتناص الكفرة الملحدين " .

وخرج المئات من الإخوان المسلمين وحلفائهم من مخابئهم . وفى موجـــة من القتل والنهب ، أخذوا فى التفتيش عن الأسلحة وقاموا بقتل سبعين شخصا من المسئولين فى حزب البعث . وفى الصباح أعلن الفدائيون المنتصرون عن تحرير المدينة من النظام العلوى البغيض وحكومته البعثية .

وأخذت إذاعة البعث فى دمشق تصرخ قائلة إن المتمردين " انســـاقوا وراء حقدهم الأسود كالكلاب المسعورة ، وانقضوا على رفاقنا وهم نائمون فى منازلهم

وأعملوا القتل فى كل من وقع فى طريقهم من النساء والأطفال ، وأخذوا فى التمثيل بجثث الشهداء فى الشوارع " . وقرر حافظ الأسد الماكر فى الخفاء وبعيدا عن أعين الجماهير أن تصبح حماه أرضا للمعركة التى سيحسم فوقها مصير البلاد . وكان يدرك تماما أنه إذا سمح لأعداء العلويين بتولى زمام الأمور حتى فى أحد الأحياء بحماه فوق تدفق دماء العلويين فى سوريا تدفق الماء ؛ ذلك أن وراء هذا العصيان المسلح كان يكمن عداء السوريين المعقد والمتراكم بين المدينة والريف ، وبين السنيين والعلويين ، وبين الإسلام والبعث .

واستمرت معركة حماة مشتعلة لمدة ثلاثة أسابيع كئيبة ، وقد سيطر الإخوان المسلمون على المدينة طوال الأيام الأربعة الأولى ، وقتلوا المئات من أنصار الأسد المشتبه فيهم . وفى اليوم الخامس استلم الإخوان المسلمون للجيش، الذى أطلق العنان لأعمال القتل والسلب والاغتصاب بصورة جماعية . وبعد سلسلة متواصلة من القصف المدفعى على قلب المدينة ، انحبس الناس داخل متاهات شوارع الأحياء القديمة دون طعام أو ماء أو وقود . وخرج آخرون فى العراء فى الشتاء القارص بينما كانت الدبابات تدمر العديد من المنازل من الطين التى يشتبه فى إيوائها للمتمردين . وتم تدمير حماة ، أجمل مدن سوريا ، حيث تم دفن ما بين خمسة آلاف وعشرين ألف ضحية من ضحايا غضبة حافظ الأسد. وتم إخماد التمرد بالتدمير والموت . ولكن اسم حماة أصبح بعد ذلك مرادفا لكلمة مذبحة .

وقد قال حافظ الأسد ببساطة فى أول بيان علنى له عقب المذبحة ، " إن ما حدث فى حماة قد حدث ، وانتهى " . ولكى يضفى الأسد معنا جوهريا على كلماته ، قام بمحاولة أخرى لترسيخ نزعة وطنية سورية مميزة . فقد شرعت حشود من العمال فى تنظيف جدران قلعة دمشق الضخمة عسلية اللون التى بناها الأمويون ، وأخذت البيانات الحكومية الرسمية تنادى المواطنيين السوريين بـ " أبناء الأمويين " . بيد أن الرمز الحقيقى للنزعة الوطنية السورية كان هو حافظ الأسد .

لقد كانت مهمة حافظ الأسد كوزير للدفاع أن يدير المجهود الحربى . ولكنه أخفق وانهار الرجل الذى أرسل فى جرأة وتحد الفدائيين الفلسطينيين لمهاجمة إسرائيل ، والذى شارك فى التمثيل المسرحى الذى أجبر عبد الناصر على إلقاء القفاز فى وجه إسرائيل ، وتجمد نفسيا فى الساعات الأولى من الحرب . وخلال الأيام الستة القصيرة ، انهارت جميع مبادىء الأسد الدفاعية السابقة أمام حرب إسرائيل الخاطفة سريعة الحركة . وتصدع أساس فكره السياسى مع سماح القوى العظمى لإسرائيل بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط .

وحينما توقف القتال ، توجه الأسد الى بيته ليمعن التفكير فى عزلة عن الآخرين لمدة ثلاثة أيام . وخرج من عزلته حاملا معه مجموعة جديدة من القناعات هى : أن إسرائيل بطبيعتها قوة توسعية ، وأنه لا يمكن احتواء هذه النزعة التوسعية إلا من خلال الجهد العربى المكثف . ونزل حافظ الأسد إلى ساحة المعترك السياسى العربى مسلحا بهذين المبدأين كما لو كانا زوجين من السيوف .

وفى أعقاب حركة التصحيح فى ١٩٧٠ ، وضع حافظ الأسد كل من جوانب الدفاع والسياسة الخارجية السورية تحت سيطرته المباشرة . وكانت سنوات شبابه المبكرة كأحد أنصار الوحدة العربية الشاملة قد غرست فى نفسه حقيقة بديهية عن العروبة . وقد كان يعمل انطلاقا من هذه الحقيقة البديهية . وكانت مصر وسوريا تمثلان محورى تاريخ العرب . فحينما كانت مصر وسوريا متحدتين انتصر العرب . وحينما انفصلتا ، تداعى العرب وترنحوا . ونتيجة لذلك إما أن تقف مصر وسوريا ومجموعة الدول العربية معا أو تسقط معا . وقد كانت هذه النظرة هى التى دفعت حافظ الأسد إلى الاشتراك فى خطة السادات الكبرى لحرب ١٩٧٣.

وقد حجبت النتائج الطبيعية للوحدة العربية الحقيقة القاسية المتمثلة فـــى أن تكتيكات أنور السادات كانت تختلف عن تكتيكات حافظ الأسد ، فقد كـــان الأســـد يسعى للحرب لأنه كان يعتقد أن إسرائيل لن تتفاوض أبدا بشأن الأراضى التـــى احتلتها فى حرب ١٩٦٧ إلا بعد أن يستعيد العرب بعض أراضيهم بالقوة . وكان السادات ، من ناحية أخرى ، يرى أن الحرب بمثابة أداة سياسية لفتـــح الطريـــق أمام العملية الدبلوماسية المتوقفة . وكان الأسد يبحث عـــن الجـــولان وســـيناء ، والسادات عن مائدة المفاوضات . وكان أنور السادات يدرك جيدا أوجه اختلافـــه مع حافظ الأسد ، ولكنه أقنع الرئيس السورى بأنهما يتبعان استراتيجية مشتركة .

وقد أمضى حافظ الأسد يوم عيد ميلاده الثالث والأربعين فى غرفة الحرب فى مقر القيادة العامة فى دمشق ، وفى ساعة الصفر فى الســـادس مـــن أكتوبـــر ١٩٧٣ ، عبر الجيش السورى القطاع الأوسط من خط وقف إطلاق النـــار فـــى حرب ١٩٦٧ على الجولان . وقامت المدفعية الثقيلة بفتح الطريق للدبابات التـــى شقت طريقها عبر القوات الإسرائيلية التى كانت تقف بعنـــاد خلـــف بطاريـــات المدفعية وحقول الألغام تجاه الحافة الحادة التى تنحدر صوب وادى الحولـــة فـــى إسرائيل ، وكان هذا التقدم قصير الأمد .

وطوال الأيام الثلاثة التالية عانت القوات السورية فوق مرتفعات الجـــولان من ضراوة ضربات القوات الجوية الإسرائيلية . فمع بزوغ الضوء الأول من كل يوم ، كانت الموجات المتتالية من الطائرات تنقض على حشود القوات والدبابـــات السورية وتقصفها بوابل من القنابل . ونجح السلاح الجوى الإسرائيلى فى وقـــف تقدم القوات السورية حيث كان يشن عليها ألف غارة يوميا . ثم تحول بعد ذلـــك إلى سوريا نفسها ، وأخذ فى ضرب محطات الطاقة ومستودعات الذخيرة ومصفاة

البترول فى حمص وميناء اللاذقية . وفى العاشر من أكتوبـــر انهــالت النــيران الإسرائيلية على مقر القوات السورية فى دمشق .

ولم يخطر أنور السادات حافظ الأسد مسبقا بمشروعه لوقف إطلاق النــــار الذى عرضه على الهيئة التشريعية فى مصر فى السادس عشر من أكتوبر . ورد الأسد المهتاج على ذلك بتوجيه رسالة غاضبة لحليفه كانت تتسم بقدر أكبر مـــن اللياقة مما كان يستلزم الموقف . "لقد كنت أفضل رؤية المشروع الذى عرضته على مجلس الشعب قبل إعلانه على الملأ ... ويحزننى أن أكتـــب إليــك بهــذه الكلمات ، لكنى لا أرغب فى إخفاء أفكارى وآرائى عنك لأننا مشتركان معا فـــى معركة حياة أو موت " . ولكن استراتيجية الجبهتين التى شـــارك الأســد علـــى أساسها ففى الحرب كانت قد انهارت بالفعل . إذ تفكك محور دمشق – القـــاهرة الذى تم تكوينه باسم العرب مع قرار مصر بقبول وقف إطلاق النــــار . وتـــرك الأسد ، الذى كان ملتزما تمام الالتزام باسترداد الأراضى بحيث لـم تكـن لديــه فرصة للتقهقر ، واقعا بمفرده .

وقرر حافظ الأسد ، السياسى الاستراتيجى البارع ، الذى تعلم الكثير مـــن حرب أخرى جديد بين العرب وإسرائيل ، جعل سوريا القوة العربية الأساسية فى المشرق العربى . وأخذ منذ ذلك الحين يتغنى بقضية الوحدة العربية متى كان ذلك مناسبا ، ويمزق هذه الوحدة متى تطلب أمن سوريا ذلك .

وقد دفعت دبلوماسية هنرى كيسنجر المكوكية فى ١٩٧٤ حــافظ الأســد ، ذلك الفتى العلوى القادم من جبال سوريا إلى دائرة الضـــوء العالميــة . وخـــلال صراعه مع كيسنجر الذى تم تغطيته إعلاميا تغطية جيدة ، اشتهر حافظ الأســـد

بأنه البطل العنيد المدافع عن المصالح السورية والعربية . ولكن شهرته الشخصية التى اكتسبها تفوق ما استردته سوريا من أراضى .

وفى عام ١٩٧٥ ، شجب حافظ الأسد اتفاقية سيناء الثانية بين مصر وإسرائيل ، والتى أدت فى واقع الأمر إلى إنهاء حالة الحرب إلى جبهة إسرائيل الغربية ، ففى تقييم الأسد ، كان من شأن قبول سوريا لاتفاقية سيناء الثانية أن يجعل من سلالة الأمويين ذوى الكبرياء مجرد دولة ضعيفة أخرى على حدود إسرائيل ، وكانت سوريا ، مثل الأردن ، تواجه خطر العيش على الإحسان وتكريس الجزء الأكبر من طاقاتها العسكرية لحماية إسرائيل من غارات الفدائيين. وتعهد الأسد بدلا من ذلك بمواصلة القتال ، وتحدى محيط عربى بدا مستعدا لقبول التفوق الإسرائيلى والتسليم به . بيد أن أحدا لم يستجب له . فقد كان أنور السادات قد شق طريقه بمفرده . وكان منافسوه البعثيون فى العراق يعترضون تلقائيا على أى شىء يفعله . وكان الملك حسين يدير أمر تسويته الخاصة مع إسرائيل . وكانت المملكة العربية السعودية مترددة . وهكذا وقفت سوريا مكشوفة فى ظل إسرائيل ، لا يقف بجانبها إلا لبنان الضعيف وجماهير الفلسطينيين المتقلبين اليائسيين ، وفى ربيع ١٩٧٥ بدأ آخر دفاعات سوريا ، وهو جانبها الغربى الضعيف فى التمزق مع انغماس لبنان فى الحرب الأهلية .

وفى أوائل عام ١٩٧٦ ، وضعت الحرب مع لبنان فى أبسط صورها المارونيين ضد العرب من أجل السيطرة على الدولة اللبنانية . وكان المارونيون يخسرون حتى أول يونية ١٩٧٦ ، حينما وجه حافظ الأسد ضربة عنيفة للعالم العربى بدخوله الحرب إلى جانب المسيحيين .

ولكى يبرر موقفه أمام العرب ، زعم حافظ الأسد أنه لو ترك المـــارونيين لشأنهم فإنهم سيسعون لإقامة تحالف مع إسرائيل ، تتكـــون بموجبـــه صهيونيـــة مسيحية فى قلب الأراضى العربية . وأضاف إنه حينما ألقـــى إلـــى المـــارونيين بطوق النجاة فإنه كان يشجعهم على البقاء داخل الحظيرة العربية . وقـــد قبلـــت معظم الدول العربية – التى لم تكن مسئوليتها عن المذبحة التى شهدتها لبنان تقل عن مسئولية الأسد – هذا الأساس المنطقى . بل أن الأسد حظى بموافقة العـــرب لفترة من الوقت . وباعترافها بأن الأسد هو العربى الوحيد الذى عمل بـــإخلاص على منع انجراف لبنان إلى الفوضى السياسية ، أضفت الدول العربية المجتمعـــة فى الرياض الشرعية على تواجد سوريا فى لبنان .

ولكن بحلول عام ١٩٧٧ ، تراجع تسامح العرب وتغاضيهم عـــن سـلوك الأسد المؤيد للمارونيين أمام الكراهية الشديدة للتواجد السورى فى لبنان . ومـــع وجود جيش من المشاة ، استطاع الأسد ممارسة نفوذه مع الفلسطينيين ، وكذلـــك اللبنانيين المشاكسين ، كما استطاع تخويف الأردن وإرهابه . وقد أثار ذلك بدوره المخاوف فى مصر والعراق والسعودية من أن تصبح دمشـــق شـــديدة القـــوة . وانتشرت الهمسات المحمومة فى أرجاء العواصم العربية – بأن حـــافظ الأســـد يعمل على إحياء سوريا الكبرى .

وقد أكد الوجود السورى فى لبنان ، الذى رحب به القليلون وقبله البعـــض على مضض ، وأدانه آخرون بشدة ، مركزية الدور السورى فى العالم العربـــى وبروز حافظ الأسد المطرد فى المجموعة العربية . ومهما كانت مشكلات الأسد الداخلية مع معارضيه السنيين ، فقد نجح تدخله فى لبنان فى تحويل سوريا مـــن هدف تتلاعب به جاراتها الأقوى إلى لاعب رئيسى قائم بذاته . وكم من لاعـــب برز عندما استعد أنور السادات للتوجه إلى القدس .

وفى اليوم الذى طار فيه السادات إلى القدس توقفت الحكومة السورية وقطاع الأعمال عن العمل باعتبار أن ذلك اليوم يوم حداد قومى . بيد أن هذا الإجراء الرمزى لم يثن أنور السادات الذى واصل السير فى الطريق الذى قاده إلى كامب ديفيد وعقد سلام منفرد فى النهاية مع إسرائيل ، وقد حاربه الأسد فى كل خطوة كان يخطوها على هذا الطريق .

فبالنسبة للأسد ، كان خروج مصر النهائى من التحالف العربى يعرض سوريا للخطر . وبدون الكتلة الحاسمة التى يمثلها المصريون ، أصبحت الأردن وسوريا والفلسطينيون تتقاذفهم الرياح لمواجهة مطامع إسرائيل فى الأراضى التى كان حافظ الأسد يعتقد أنها تحرك الدولة اليهودية . وكان أى خروج آخر عن الصفوف العربية يمكن أن يكون بمثابة إعلان وفاة المشرق العربى ، وشرع الأسد ، الذى كان يتمثل بصورة بسمارك ، وفى إعداد خريطة للشرق الأوسط تتفق واحتياجات سوريا الأمنية .

وفى الخامس من ديسمبر ١٩٧٧ ، وبعد أسبوعين من حديث السادات أمام الكنسيت ، قام حافظ الأسد بجر سوريا وليبيا والجزائر وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ومنظمة التحرير الفلسطينية لتكوين " جبهة الصمود والتصدى" . مع ارتباط أضعف أعضاء التجمع السياسى العربى كحلفاء ، قام الأسد باستخدام دول المواجهة العربية فى عملية نضال تنطوى على مخاطرة كبيرة لمنع لبنان أو الأردن أو الفلسطينيين من الانضمام لأية مفاوضات مع إسرائيل إلى عقد أى اتفاق تستبعد منه سوريا . وكان الأسد يرى أن السلام -السلام الحقيقى- يتطلب مراجعة كل علاقة القوة بين إسرائيل والدول العربية . وكان الأسد يسعى وراء تحقيق التكافؤ المتمثل فى عجز أى من سوريا أو إسرائيل عن انتهاك حدود ما قبل ١٩٦٧ ، الخاصة بالأخرى .

ومع وضوح أهدافه أمام ناظريه وبتشجيع من فيض الأسلحة الســـوفيتية ، شرع حافظ الأسد فى العمل على إخضاع اللبنانيين والأردنييـــن والفلســـطينيين . وفى خطته الكبرى ، التى أحيت صور الأمويين التى كانت قائمة منذ ألف ومائتى سنة ، عمل الأسد على خلق جبهة قوية فى المشرق العربى تكون دمشق مركـــزا لها . بيد أنه مع عجزه عن التحكم فى تصرفات القاهرة ، فإنه لم يستطع أيضـــا السيطرة على النقطة الأخرى من المثلث العربى ، بغداد .

وقد دفع الهلع الناجم عن اتفاقات كامب ديفيد كلا من سوريا والعراق فـــى البداية إلى تكوين تحالف تحدى التنافس الإقليمى والخـــلاف الحزبـــى والعـــداء الشخصى المستحكم بين حافظ الأسد وصدام حسـين . ولـم تفـت الأسـد روح السخرية . فقبل توقيع " ميثاق العمل القومى " العراقى – السورى فى السادس من أكتوبر ١٩٧٨ تحول الأسد إلى صدام حسين قائلا فى سخرية : " أخى صـــدام ، أليس ذلك كما لو كنا ولدنا من جديد " ؟ . ولكن تبين أن التحالف كـــان مجـــرد مولود ميت ناقص النمو . فحينما قام العراق بغزو إيران فـــى ســبتمبر ١٩٨٠ ، شجب الأسد حرب صدام ضد إيران ووصفها بأنها حرب خاطئة ضد عدو غـــير حقيقى فى الوقت غير المناسب . غير أن اهتمامه الحقيقى كان احتمال أن يتمكن صدام حسين البغيض من إلحاق هزيمة فعلية بإيران ، مما يعطى العـــراق قـــوة هائلة بالنسبة لسوريا . ونظرا لخوفه الشديد من أن انتصار العراق السريع علـــى إيران سيجعل سوريا محصورة بين إسرائيل المتصلبـــة والعـــراق المناهضـــة ، اختلف الأسد مع العرب ليقدم الدعم والتأييد للفارسيين ، منافسى العرب الدينييـــن والعراقيين منذ قرون عديدة .

وأخذت الشحنات الضخمة من السلاح تطير فوق سوريا فى طريقها إلـــى إيران ، وسمح حافظ الأسد لسوريا بأن تكون جسرا بين منبع الشيعية المتشددة فى

إيران وطائفة الشيعة الثائرة فى جنوب لبنان . وصب العرب جام غضبهم على حافظ الأسد . فمن الناحية الأيديولوجية ، تحدت الدول العربية الأخرى بالقومية العربية . ومن الناحية الاقتصادية ، تقلصت المساعدات المالية التى تحتاجها سوريا كثيراً من دول الخليج نتيجة السخط العربى . وقد امتص الأسد الضربات لعزمه على التفوق على القوة العراقية .

ومع احتواء العراق بتحالفه مع إيران ، تحول حافظ الأسد إلى العاهل الأردنى الملك حسين . وكان الصراع العربى الأساسى بين حافظ الأسد والملك حسين ينطوى على أكبر شهوات الأمم – وهى القوة . وكان الأسد يعمل جاهدا على مد النفوذ السورى على كل المشرق العربى ، وكان حسين عازما بنفس القدر على البقاء كلاعب فاعل مستقل .

وقاطع الأسد قمة عمان التى دعا حسين إلى عقدها فى نوفمبر ١٩٨٠ كى يحصل على تأييد العرب لمفاوضته المقترحة مع إسرائيل بهدف توسيع نطاق الإدارة الأردنية فى الضفة الغربية . ولكى يؤكد داخليا أن سوريا لن تسمح بإتمام هذا الاتفاق ، قام الأسد بوضع قوات على حدود الأردن . ولم تنفرج الأزمة إلا بعد أن وافق الأسد ، الذى رأى أنه بالغ فى رد فعله ، على الانسحاب " بشجاعة نظرا للأوضاع الراهنة فى الوطن العربى " وفى عام ١٩٨١ ، عمل الأسد على نسف خطة المملكة العربية السعودية التى تقدم بها الملك فهد كمقترحات تجريبية لإسرائيل حول مسألة الاعتراف العربى . ومع كل خطوة على الجبهة الدبلوماسية، كان حافظ الأسد أنه يتمتع بقدر كبير من القوة يمكنه من الاعتراض على أية مبادرة سليمة فى الشرق الأوسط لا يوافق عليها . ولكن الأسد كان يسير وحيدا فى طريق محفوف يحيط بها الأعداء العرب من كل جانب .

فقد أثار الأسد غضب وسخطها بهجومه اللاذع على معاهدة السلام المصرية – الإسرائيلية . وانحاز إلى إيران ضد العرب ، مما دفع صدام حسين إلى إرسال أعداء الأسد داخل سوريا بشاحنات محملة بالأسلحة عن طريق الصحراء الشرقية ، وأدى تحركه العسكرى فى مواجهة حدود الأردن إلى وضعه فى موقف حرج مع حسين لا سبيل إلى التسامح فيه . وأدت مشاعر بين كثير من العرب تجاهه بالكيان السياسى – العسكرى الفلسطينى فى لبنان إلى تجاهل محاولات الأسد للسيطرة عليه . وفى أبريل ١٩٨٢ ، واجه الأسد أقوى خصومه حينما قامت إسرائيل بغزو لبنان الذى يتمتع بالحماية السورية .

وحينما بدأ الهجوم المكثف على جنوب لبنان ، أدرك الأسد شيئين – أن قتال إسرائيل كان مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وليس سوريا ، وأن سوريا لا تستطيع مقاومة الغزو الإسرائيلى وتنتصر فيه . ومن ثم حينما اندفعت القوات والدبابات الإسرائيلية صوب الشمال تجاه بيروت ، جمعت سوريا ترسانتها السوفيتية وقواتها الجوية المعرضة للضرب . وانسحبت صوب الشرق داخل سهل البقاع بعيدا عن خطوط القتال . ومع عدم وجود قوة عسكرية منظمة تقف فى طريقها ، طوقت الكماشة الإسرائيلية بيروت ، وحاصرت ياسر عرفات وفدائييه . وطوال سبعين يوما ، سيطرت القوات الجوية الإسرائيلية على المدينة العاجزة . ولم يفعل حافظ الأسد شيئا سوى إرسال رسالة إلى منظمة التحرير الفلسطينية المحاصرة : " أحبائى ، إننى أعيش معكم ليل نهار .. إن عروبة بيروت أمانة فى أيديكم.. وإننى أطالبكم بأن تظلوا صامدين : الشهادة أو النصر " .

وأخذت بقية دول العالم العربى ، العاجزة تماما مثل سوريا عن وقف الهجوم الإسرائيلى ، تصب جام غضبها على الأسد . وألقى ياسر عرفات بالتهمة الجارحة بأن الأسد قد أنقذ المارونيين ولكنه لم ينقذ الفلسطينيين . واتهم صدام

حسين الأسد بأنه مشترك فى تواطؤ خائن وغير محدد مع إسرائيل . كما اتهمه الملك حسين " بتصفية القضية الفلسطينية " . ولم يلزم الصمت سوى حلفائه الإيرانيين الجدد .

وفى أواخر صيف ١٩٨٢ وصل نصيب حافظ الأسد من الخط أدنى درجاته . ففى الداخل ، كان يواجه الآثار المترتبة على أعمال الوحشية فى حماة. وعلى الصعيد الإقليمى ، كان يواجه الوجود الإسرائيلى فى لبنان . وإدراكا منه أن الخوف من الخسائر فى الأرواح كان الشق الوحيد فى درع إسرائيل ، شرع الأسد فى استغلال هذا الخوف . ففى نهاية شهر سبتمبر بدأ القناصة والسيارات المصفحة والقنابل اليدوية التى تقذف من العربات المارقة فى شن حرب إرهابية ضد الوجود الإسرائيلى فى لبنان . وفى الحادى عشر من نوفمبر ١٩٨٢ ، بلغت هذه الحرب ذروتها حينما ألقيت إحدى القنابل داخل مقر هيئة الأركان فى صور مما أسفر عن مقتل سبعة وستين إسرائيليا .

ووجد حافظ الأسد سبيلا لاستئناف القتال ، ليس فقط ضد إسرائيل بل ضد أعدائه العرب أيضا . وأصبح الرعب هو الأداة التى يستخدمها الأسد فى خلق مجال نفوذه الذى يشتهيه فى المشرق . وداخل هذا المجال سيصبح لبنان محمية من محمياته ، والفلسطينيون ولاته التابعون والأردن تابع له . وسيكونون معا بمثابة الدائرة السياسية – العسكرية التى تطوق إسرائيل والتى يرى حافظ الأسد أنها ضرورية من أجل الدفاع عن سوريا .

وكان اتفاق السابع من مايو ١٩٨٣ الإسرائيلى – اللبنانى هو الهدف الأول الذى حدده الأسد . وقد كان هذا الاتفاق ، الذى توسطت فيه الولايات المتحدة ، بمثابة معاهدة بين إسرائيل وحكومة لبنان تمثل كارثة بالنسبة لحافظ الأسد . وألقى

بكل ما فى جعبته من مكر ودهاء وبذل كل ما فى وسعه من طاقة . ولجأ إلى كل الوسائل ، فى المعركة لمنع اللبنانيين من التوصل إلى تسوية مع إسرائيل . وانتشرت فرق تفجير القنابل ، وتوجهت المنظمات الشيعية الموالية لإيران للعمل لسوريا وبحماسهم وتطرفهم ، كانوا يختارون أهدافهم بأنفسهم ويتبعون نظامهم الخاص بهم .

وقد أدى اغتيال الرئيس اللبنانى المنتخب بشير الجمل فى الرابع عشر من سبتمبر ١٩٨٢ ، والذى اشتبه البعض فى قيام سوريا بتنفيذه ، إلى تعويق المعاهدة اللبنانية مع إسرائيل . ولكن القوات الأمريكية كانت لا تزال فى لبنان لتعمل ، –فى رأى الأسد– كوكيل لإسرائيل . وكان ذلك سببا كافيا لإضافة الولايات المتحدة إلى طلقة أعداء الأسد . وفى غضون ستة أشهر ، دمرت القنابل الإرهابية السفارة الأمريكية فى بيروت وقتلت مائتين وواحد وأربعين فردا من مشاة البحرية فى انهيار الثكنات العسكرية بالقرب من مطار بيروت . وربما لم تكن سوريا متورطة فى هذا الحادث ، لكنها كانت تؤيد الأصوليين الإسلاميين الذين قاموا بذلك ، واستفاد حافظ الأسد مما فعلوه . ومع تصور أنه يقف وظهره إلى الحائط ، كان حافظ الأسد يقاوم بكل ما يملك من وسائل .

وقد قامت الولايات المتحدة بسحب قواتها من لبنان فى فبراير ١٩٨٤ . وفى الخامس من مارس ، ألغت الحكومة اللبنانية اتفاقها مع إسرائيل . وعلى عكس كل التوقعات ، أحبط حافظ الأسد محاولة إسرائيل فرض هيمنتها على لبنان. وأصبح فى استطاعته السيطرة على المشرق العربى . بيد أن الجهود المبذولة للدفاع عن المشرق العربى فى مواجهة إسرائيل كانت تعنى أيضا تجاهل المصالح الخاصة للفلسطينيين والأردنيين ، الذين كانوا يناضلون لتقرير مصيرهم متحررين مما تمليه عليهم دمشق من أوامر .

وكان من بين خطط الأسد ، ضرورة أن يصبح الفلسطنيون تحت السيطرة السورية ، لأن المشكلة الفلسطينية كانت تمثل أكثر من مجرد أرض متنازع عليها أو تقرير مصير الشعب الفلسطيني ، فبالنسبة للأسد ، كان الشكل الذى ستسوى على أساسه القضية الفلسطينية فى النهاية هو الذى سيحدد الحكم الذى سيعيش المشرق فى ظله – هل هو الحكم السورى أم الإسرائيلى ؟ . ومن ثم كان عليه منع أى اتفاق قد يتم بين الفلسطينيين والأردن وإسرائيل لا تكون سوريا طرفا فيه بشرووط مقبولة له .

وقد دقت أجراس الخطر فى دمشق فى أواخر ١٩٨٢ حينما بدا أن ياسر عرفات على وشك منح الملك حسين تفويضا نيابة عن الفلسطينيين فى إطار خطة ريجان . وقام الأسد بهجوم مفاجىء لخلع عرفات والقضاء على جناحه فى منظمة التحرير الفلسطينية . وبوصوله إلى مواطن التنافس المزمن داخل المنظمة ، قام الأسد بتسليح وتمويل حركة تمرد داخل المنظمة ضد قيادة ياسر عرفات . وفى ديسمبر ١٩٨٣ ، قام المتمردون بطرد عرفات من لبنان للمرة الثانية ، مما عرض قيادته للمنظمة للخطر على نحو غير مسبوق . وفى العاشر من أبريل ١٩٨٤ ، تراجع عرفات ، إثر تعرضه للموت السياسى ، عن صفقته مع حسين .

وفى عام ١٩٨٣ ، حينما كانت الدلائل تشير إلى أن حسين قد ينجح فى تشكيل وفد فلسطينى – أردنى للتفاوض مع إسرائيل ، قام الأسد بشن هجوم شامل ضد الملك حسين . وتحت شعار " الحركة الوطنية الأردنية " قام الأسد بدعم أعداء حسين داخل الأردن . ولكن القوة الحقيقية فى الحرب ضد حسين كانت تتمثل فى حملة إرهاب على مستوى العالم . ففى أكتوبر ١٩٨٣ ، أصابت نيران الأسلحة الآلية سفيرى الأردن لدى كل من الهند وإيطاليا . وفى شهر نوفمبر ، أطلقت النيران على مسئولين أردنيين فى آثينا ، بينما قام خبراء االمفرقعات

بإبطال مفعول ثلاث قنابل . وفى شهر ديسمبر ، سقط مسئول قنصلى أردنى فى مدريد برصاص أحد القتلة . ومع ذلك واصل حسين مسيرته .

وفى منتصف عام ١٩٨٤ ، كانت وحدة العالم العربى تقف على شفا الكارثة . وقد عكست رسالة الملك فهد التى وجهها فى شهر رمضان مدى الكرب: " ربما كان العالم الاسلامى اليوم فى مسيس الحاجة إلى الالتزام بروح الصوم الحقيقية أكثر من أى وقت مضى " وكان نداء فهد ضربة مفاجئة للأسد العنيد . وفى شهر نوفمبر التالى ، نجا القائم بالأعمال الأردنى فى أثينا من الموت بأعجوبة حينما تعطل مسدس الشخص الذى هاجمه عن العمل . وفى شهر ديسمبر لقى القنصل الأردنى فى بوخارست مصرعه برصاصة أصابت هدفها . وفى شهر إبريل ١٩٨٥ ، وفى أعقاب محاولة أخرى بذلها حسين لبدء مفاوضات أردنية – فلسطينية مشتركة مع إسرائيل ، انطلقت النيران بعنف على السفارة الأردنية فى روما وعلى إحدى الطائرات فى مطار أثينا ، وفى شهر يوليو ، قام رجال مسلحون بإطلاق نيران أسلحتهم على مكتب شركة عاليا بمدريد ، وهى شركة الخطوط الجوية الوطنية الأردنية ، وقتلوا السكرتير الأول فى السفارة الأردنية فى أنقرة .

وبحلول خريف ١٩٨٥ ، كان حسين قد نال ما يكفيه . وحينما خسر حزب العمل ، شريك حسين المحتمل فى عملية التفاوض ، الانتخابات الإسرائيلية ، تخلى حسين عن معاركه القاتلة مع الأسد . ونتيجة لذلك ، أعلن الأردن رسميا فى العاشر من نوفمبر رفضه أية صفقات جزئية أو منفصلة مع إسرائيل . وفى شهر فبراير ١٩٨٦ ، حينما أوقف حسين فجأة فى نهاية الأمر مفاوضاته مع منظمة التحرير الفلسطينية ، سلم بالهزيمة أمام الرئيس السورى .

فى سعيه من أجل تحقيق رؤيته الخاصة بالمشرق العربى ، قام حافظ الأسد مرارا وتكرارا فى الفترة من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٧ بعبور الخط الدقيق الفاصل بين العنف والدفاع عن المصالح الوطنية ولم يكن الوحيد الذى يفعل ذلك . فقد شهدت فترة منتصف الثمانينات انغماس العالم العربى فى أعماق جديدة من العنف الذى نجم عن التأثيرات المتراكمة والمتداخلة للحرب الأهلية اللبنانية ، والثورة الإيرانية، والحرب العراقية - الإيرانية ، وغزو إسرائيل للبنان . واستنفدت الفوضى طاقات العالم العربى حيث كانت وكالات الاستخبارات المتنافسة والميليشيات المقاتلة والجماعات الإرهابية ، تقاتل بعضها البعض من أجل السيادة والتفوق. ووقف حافظ الأسد كشخصية مركزية فى هذه الفوضى .

وبعد أن نجح فى تحقيق أهدافه السلبية الخاصة بمنع أية تسوية بين إسرائيل وجيرانها العرب ، بدأ حافظ الأسد فى شغل سوريا فى عملية تحقيق الاستقرار فى المشرق العربى والعودة بسوريا إلى وضع الاحترام الدولى . وكانت أولى خطواته هى طرد أبو نضال من سوريا .

وبحلول عام ١٩٨٨ ، كان الأسد يشعر بمزيد من الراحة بالمقارنة بما كان عليه حاله منذ ١٩٧٨ ، حينما بدأ التمرد الذى تزعمه الإخوان المسلمون . فبعد أحداث حماة ، أصبحت صراعات سوريا الداخلية تحت السيطرة . وبدا لبنان آمنا على نحو معقول . وواصل صدام حسين ترنحه وغوصه فى رمال حربه من إيران . وفى أغسطس ١٩٨٨ ، وضعت هذه الحرب أوزارها . واتجهت إيران إلى الداخل بينما تحول العراق إلى الغرب ، صوب سوريا . فبعد أن تحرر صدام حسين من المعركة ، شرع فى تصفية الحسابات مع أولئك الذين كانوا يعارضونه. ونتيجة لذلك ، بدأ تدفق الأسلحة العراقية على آخر أعداء الهيمنة السورية على لبنان - وهم المسيحيون المارونيون بزعامة ميشيل عون . وفى

الوقت نفسه ، أدت التجارة والأموال العراقية إلى إقامة تحالف مع العاهل الأردنى، الملك حسين ، وكانت تلك مشكلات الأسد فى الساحة العربية . وفيما وراء تلك الساحة ، بدأ الأسد يفقد مورده من الأسلحة مع تفكك الإمبراطورية السوفيتية وانتهاء الطموحات التوسعية السوفيتية . وبدأت سوريا فى الإحساس مرة أخرى بأنها معرضة للخطر .

ولم يعد أمن سوريا يوجد فى " جبهة الصمود والتحدى " كما لم يعد الأسد يستطيع مواصلة العيش فى البرية العربية المقفرة . ومن خلال الدوران حول أولئك الذين أغضبهم وأثار حنقهم ، شرع الأسد فى إصلاح علاقاته مع مصر وأرسل إشارات إلى الولايات المتحدة لجس النبض . وفى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ ، سلم صدام حسين للأسد تذكرته التى عاد بها إلى القافلة العربية حينما قام العراق بغزو الكويت . وعندما توجه إلى القاهرة لحضور الاجتماع الطارىء لجامعة الدول العربية ، دفع حافظ الأسد بسوريا إلى التحالف المعارض لخصمه اللدود القديم صدام حسين . " فسوريا حافظ الأسد ، التى جعلت من نفسها قلعة العروبة وحامية "الراديكاليين " الفلسطينيين ، والسوط المسلط على مصر وكامب ديفيد ... والحصن الواقى من الهيمنة الأمريكية على المنطقة " انحازت إلى أكثر النظم العربية محافظة ، ومع الولايات المتحدة لشن حرب ضد دولة عربية شقيقة. وفجأة أصبح الأسد المعادى يقف فى نفس التحالف مع مصر والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة .

وقد قدم الأسد تفسيرا استعرض فيه أسباب هذا التحول السياسى . ففى خطاب ألقاه فى الثانى عشر من ديسمبر ١٩٩٠ ، اعترف بوجود من " يتعجبون من وجود قوات عربية فوق الأراضى السعودية برغم وجود القوات الأجنبية (قوات الولايات المتحدة) هناك " . وأخذ تفسيره لذلك مباشرة من معجم الوحدة

العربية . فسوريا لا تعتزم قتال الشقيق الآخر المعتدى ، وإنما منعه من الاعتداء ومن ثم تعمل على مساعدته .

وباعتباره القوة العربية المسيطرة فى المشرق أصاب حافظ الأسد فى يوليو ١٩٩١ أشقاءه العرب بالدهشة مرة أخرى . فبعد أن مزق الوحدة العربية لكى يمنع جيرانه من التفاوض مع إسرائيل ، أعلن حافظ الأسد عن عزمه على الجلوس مع إسرائيل فى مؤتمر للسلام فى الشرق الأوسط تحت الرعاية الأمريكية-السوفيتية .

وكان يبدو من الظاهر أن حافظ الأسد قد غير فجأة نظرته كلها للمصالح السورية . ولكن أهداف الأسد كانت لا تزال هى نفس الأهداف التى كان يسعى وراءها حينما تولى السلطة فى ١٩٧٠ ؛ وهى وقف التوسع الإسرائيلى ، واسترداد الجولان السليبة ، وأن يضمن لسوريا صوتا مسموعا ومهيمنا فى شئون الشرق الأوسط . كذلك لم تتغير حتى وسائله التقليدية تغيرا جذريا . وكانت لعبة الأسد المرسومة تدور دائما حول أهداف ثابتة يسعى وراء تحقيقها بعزم وتصميم محسوب . وحينما بدأ العالم يشهد تحولا شاملا فى عام ١٩٨٨ ، قام الأسد ببساطة بإجراء تعديلاته بما يتفق والحقائق الجديدة .

وفى عشية إعلان سوريا عن عزمها على التفاوض مع إسرائيل حول مسألة الجولان على الأقل ، امتلأت صحف العالم بصورة حافظ الأسد . وبرغم التقاط تلك الصور فى أوقات مختلفة ، وفى أوضاع مختلفة ، فإنها جميعها كانت متشابهة بدرجة ملحوظة ، لأن حافظ الأسد يتخذ وضعا عاما واحدا . فبحلة العمل التقليدية ، وشعره الخفيف المفروق جانبا على جبينه العريض ، وابتسامته الغامضة المرسومة على وجهه ، يجلس الى هذا أو ذاك من أصحاب المقام الرفيع من الأجانب .

وفي سعيه لجعل سوريا مركز المشرق العربي ، فان الأسد لا يتعلق بأية أوهام حول قداسة الوحدة العربية . كما لا يتردد في عزل سوريا عن سائر الدول العربية لفترات طويلة من الزمن إذا كان من شأنه أن يدعم أهدافه النهائية . ولأنه غالبا ما يتدخل في شئون جيرانه العرب ويفرض عليهم خططه بإصرار شديد ، فإن الأسد قد جعل من سوريا قوة داخل الأمة العربية التي يتجاهلها كثيرا . وتقوم راية العروبة التي يرفعها عاليا أحيانا بنفس الوظيفة التي كانت تقوم بها بالنسبة لعبد الناصر ؛ وهي السعي وراء مصالح بلاده الخاصة . وترتبط هذه المصالح ارتباطا مباشرا وقويا بإحساس سوريا ونظرتها لنفسها . فانطلاقا من معاناتها مما ورثته من ميراث تاريخي ، وإحساسها الدائم بالخطر ، أصبحت سوريا دولة متشككة تميل إلى اتخاذ وضع الدفاع وتستحوذ عليها فكرة إعادة تحديد حدودها . ويظل استرداد الجولان بمثابة القضية الوحيدة التي يجتمع عليها رأى حافظ الاسد وجميع السوريين ويتحدون حولها ، والمسألة التي تمنح الأسد الشرعية داخل بلاده التي يحكم سيطرته عليها . وقضيتا أمن سوريا ومستقبل الجولان هما اللتان ستحددان اتجاهات الأسد وقراراته فيما يتعلق بكل من إسرائيل ومكانة سوريا في العالم العربي . غير أن إغراء استرداد الأراضي لا يمكن أن يكون مهربا من حقائق الكيان السياسي السوري .

ولا توجد في دولة الأسد مؤسسات تسعى لرأب التصدعات الكبيرة التي تفصل بين السنيين والعلويين والقرية والمدينة والدين والعلمانية . وحتى حزب البعث . من ناحية وظيفته الأيديولوجية ، صار على وشك الانتهاء . فعلى مر السنين ، تقلصت قاعدة الأسد الأساسية باطراد من حزب البعث السوري بوجه عام ، إلى الجناح العسكري للحزب ، ثم إلى الضباط داخل الجناح الذي ينتمي إلى طائفة الأقلية العلوية ، والآن إلى أعضاء عشيرته داخل الجماعة العلوية ، ولم

ينجح حافظ الأسد والبعث على الإطلاق فى أن يجعلا الأيديولوجية تحـل محـل الروابط التقليدية الاجتماعية والطائفية والإقليمية بل وحتى القبلية فـى سـوريا .
وبشكل ما يعد حافظ الأسد حزبه ضحايا لهذه القوى مثل الشعب السورى نفسه . فبعد أن تخلى عن نزعته الأولى فيما يتعلق بالعروبة الشـاملة ، أصبـح البعـث السورى بمثابة آلية يفرض الأسد من خلالها إرادته على سوريا .

وعلى الصعيد الخارجى . حقق الأسد لسوريا دورا مركزيا فـى الشـئون العربية . وعلى الصعيد الداخلى ، سعى لتشكيل دولة .

الفصل السادس

صدام حسين - المتعطش للدماء

يتذبذب العراق منذ نشأته بين الدعوة إلى قومية عراقية خاصـــة وجاذبيـة الوحدة العربية وقد بدأ هذا التذبذب مع الملك الأول فيصل ووصل إلـــى ذروتـه تحت قيادة صدام حسين .

ففى عام ١٩٢٠ شرعت بريطانيا فى إقامة حكومة فى الدولة المصطنعـــة التى خلقتها وكان قد تم تنصيب فيصل الابن الأكبر لشريف مكـــة رأس حربـة الثورة العربية على عرش سوريا الوليد وذلـك مـن قبـل وزارة المسـتعمرات البريطانية ، لكن بسبب المكائد الدبلوماسية التى حدثـت فـى ١٩١٩ - ١٩٢٠ تولت فرنسا أمر سوريا وقامت الحكومة الفرنسية التـى أرادت التخلـص مـن الميراث البريطانى بدعوة فيصل لمغادرة سوريا فـى يوليـو ١٩٢٠ ، ووصـل فيصل إلى لندن شخصا حزينا ومحبطا حيث وضع نفسه على أعتـاب الحكومـة البريطانية التى كانت تشعر بالحرج ، وكان فيصل الذى وعد بدولة عربية أثنـــاء الحرب العالمية الأولى بلا عرش ، ولم تكن لبريطانيا حكومة فى العراق ، وفجأة توحدت احتياجات الهاشميين مع مصالح بريطانيا ، وفى بغداد تمت دعوة مرشح بريطانيا السابق ليكون ملكا إلى تناول الشاى مع الحاكم حيث نقل على عجل فـى عربة مدرعة إلى إقامة طويلة فى ٢٣ إبريل عام ١٩٢٣ أصبح فيصل بعد جولة عاصفة بين معظم المشايخ ملكا على العراق .

وعلى الرغم من تعويق البريطانيين له فقد أثبت فيصل أنه ملك صالح لتلك البلاد المتباينة ، واستطاع بشخصيته الجذابة وذكائه وتسامحه الواسع مع الأقليات فى العراق أن يكبح جماح المعارضة ، غير أن فيصل كان سنيا شب عن الطوق

محاطا بمشاعر القومية العربية المتنامية ، وبالاتفاق مع البريطانيين ربط العراق بشكل أوثق بالعالم العربى الذى يهيمن عليه المسلمون السنة .

وبالسيطرة على الجيش عن طريق الرتب العليا فى الجيش على المسلمين وبالاستفادة من التفاعلات الطبيعية للسياسة القبلية التى أبقت على انقسام وخضوع الشيعة ، تمكن فيصل من الاحتفاظ بالعراق داخل المجال العربى ولكن بصورة ضعيفة . وفى عام ١٩٣٢، أصبح العراق أول بلد من بلدان الامبراطورية العثمانية السابقة يمنح الاستقلال من قبل دولة استعمارية أوروبية وعلى الرغم من الاكتشافات البترولية الجديدة التى كانت تبشر بجعل العراق ثانى أكبر منتج للبترول فى الشرق الأوسط ، فإن بريطانيا لم تعد فى استطاعتها الاستمرار فى فرض انتدابها ، فالمسافة بين الحاكم والمحكوم كانت من الاتساع بحيث جعلت من الاحتفاظ بجيش العراق أمرا صعبا . وبالثقة فى فيصل وبالاحتفاظ بالامتيازات العسكرية والاقتصادية للدولة الام ، تخلت بريطانيا عن انتدابها .

وفرح القوميون فى جميع أنحاء العالم العربى ، ورفعوا فيصل إلى وضع قريب من وضع الأب المؤسس للدولة العربية فى المستقبل . ونتيجة لذلك ، اتخذ العراق وضعة فى صدارة حركة القومية العربية . ودفع فيصل بالمدرسين الفلسطينيين والسوريين من ذوى الميول القومية إلى النظام التعليمى العراقى وبالأيديولوجيين العرب إلى مجالات الخدمة المدنية الوليدة فى بلاده ، ولكن فيصل ، برغم سنى شبابه التى أمضاها فى الثورة العربية لم يعد شديد الحماس للقومية العربية . وانطلاقا من إقراره بعمق التباين العرقى فى بلاده كان يسعى إلى توليف قومية جديدة ينضوى تحت لوائها كافة العراقيين ، ولكن الإخلاص والتنوير لم يستطيعا التغلب على حقيقة أن شعب العراق كان منقسما بين العرب -المنقسمين بين أقلية سنية مهيمنة وأغلبية شيعية محرومة من حقوقها الشرعية- وباقى السكان ومعظمهم من غير العرب تماما ، وقد كانت كراهية الامتيازات

البريطانية وحدها هى التى استطاعت فى أوقات مختلفة وبدرجـــات متفاوتـــة أن تتغلب على النوازع القبلية العراقية والدينية والإقليمية – وأمام إقــراره بمشـــاكل بلاده الوليدة ، لم يكن فيصل يملك سوى التفجع بقولة : " إننى أقول والحزن يملأ قلبى إنه لايوجد فى العراق حتى الآن ، شعب عراقى " .

وبعد أن نال منه التعب وتحرر من الوهم ، مات فيصل بشكل مفاجىء عام ١٩٣٣ عن سبعة وخمسين عاما ، وبموته ربما يكون العراق قد فقـــد الشـــخص الوحيد الذى كان يملك من المكانة ما يؤهله للبدء فى العملية الصعبة لبنـــاء أمـــة عراقية والتوفيق بينهما وبين حقيقة القوة البريطانية .

وأصبح غازى ، ابن فيصل ، ذلك الشاب الوسيم الضحل ، ملكا . ولولعـــه بمباهج الحياة ، فإنه لم يكن يتمتع بالسلطة والمكانة اللتين كان يتمتع بهما والده . وفى الرابع من إبريل عام ١٩٣٩ اصطدم بسيارة السباق التى كان يقودها بعمود إنارة ، مخلفا العرش لابنه فيصل الثانى البالغ من العمر ثلاث ســـنوات . وفـــى الفترة من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٥٨ ، تولى أمر المملكة اثنان –هما عبد الإلـــه الوصى على عرش فيصل ، ونورى السعيد ، أكثر الشخصيات العراقية بقاء قبل ظهور صدام حسين ومثل الممثلين فى إحدى التراجيديات ، وقع الرجـــلان فـــى شرك بين حاجة المملكة للدعم البريطانى ، وبين القومية العراقية الصاعدة التـــى قامت على كراهية الوجود البريطانى ، وكما كان يتطلب الموقف ، كـــان عبـــد الإله، أو بالأحرى نورى السعيد ، يتقرب إلى القومية العربية أو يوجه دفة العراق بعيدا عن الرياح السياسية القادمة من غرب الفرات ، وبـــالتقرب إلـــى القوميـــة العربية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ساعد نورى السعيد فى إقامة الجامعة العربية ، فقد تقدم للأمم المتحدة باقتراح لتوحيد سوريا ولبنان وشرق الأردن فى سوريا الكبرى ، التى تستطيع بعد ذلك إقامة وحدة عربية مع العراق وأى دولـــة عربية أخرى ترغب فى الانضمام إليها .

وأرسل عشرين ألف جندى إلى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ باسم الأمة العربية . ووصلت استرتيجية نورى السعيد العربية إلى نهايتها فى العام الذى وصل فيه فيصل الثانى سن الرشد ، وبدأ جمال عبد الناصر يثبت أقدامه فى مصر ، وفى الثانى من مايو ١٩٥٣ ، وهو نفس اليوم الذى أصبح ابن عمه ملكا على الأردن ، أخذ فيصل الثانى البالغ من العمر ثمانية عشر عاما مكانه أمام مجموعة من كبار الشخصيات السنية الحضرية ، وبعض شيوخ الشيعة ، ووجود رمزى من كبار رجال الأكراد ، وبينما كان المؤذنون يؤذنون من على مآذن المساجد وتطلق المدفعية مائة وواحد طلقة على ضفاف نهر دجلة كان يقسم " بالله أن يحمى الدستور واستقلال البلاد " . وسار الملك الشاب فى ردائه الأبيض المرصع بالذهب عبر شوارع بغداد فى عربة حمراء تسبقها عربة حربية تجرها الخيول التى تشبه إلى كبير تلك التى يستخدمها الفرس فى غزو بلاد ما بين النهرين .

وفى عام ١٩٥٣ ، كانت العراق تحت حكم فيصل تبدو مبشرة بالخير . فقد كانت مساحتها ١٧٥ألف ميل مربع ، وتبشر باحتياطيات بترولية تبلغ خمسة مليارات برميل ، وعلى النقيض من أى بلد آخر فى الشرق الأوسط كان لديها أراضى خصبة ومياه وفيرة للرى . وكانت الصادرات البترولية المتزايدة والإنفاق الحكومى المسئول يحققان ارتفاعا مطردا فى مستوى معيشة الجماهير . ولكن الملكية ، التى كانت خائفة من أن تفقد مظلتها الأمنية ، ظلت مرتبطة ارتباطا وثيقا ببريطانيا . ونتيجة لذلك ، استمر وجود القوات البريطانية على الأرض العراقية ، واستمرت المصالح البترولية البريطانية والغربية تحكم قبضتها على البترول العراقى . وسبب تلك الروابط الإمبريالية البريطانية ، واجهت الملكية فى العراق قوى القومية العربية التى أطلقها عبد الناصر .

وقد تجاوزت الدعوة الناصرية المناهضة للإمبريالية والتى كانت تنطلق عبر إذاعة القاهرة القوية ، حدود الانقسامات الدينية والعرقية فى العراق . ومات ما تبقى من مشاعر مؤيدة للقومية العربية داخل القصر فى بغداد أمام هجوم عبد الناصر على عملاء الإمبريالية الغربية ، وفى ٢٤ فبراير عام ١٩٥٥ ، وافقت العراق على الاشتراك فى حلف بغداد الذى ترعاه بريطانيا ، والذى تعرض لهجوم شديد من عبد الناصر . وأعلن نورى السعيد فى تبريره للابتعاد عن حركة القومية العربية أن الأمن الذى سيوفره الحلف سيحقق التقدم للعراق من الناحية الاقتصادية ويخلق مجتمعا عراقيا – ليس شيعيا أو سنيا أو كرديا– . وفى معرض حماسه ، أعاد إلى الأذهان المجد الغابر الذى عاشته بغداد أيام هارون الرشيد . ولكن نورى السعيد لم يفصح عن الثمن الذى كان يتعين على العراق دفعه لقاء هذه المكتسبات وهو أن يصبح حارس المصالح الغربية فى العالم العربى .

وكانت بغداد نائمة فى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٨ . وبهدوء تحرك الجنود الموالون للفريق أول عبد الكريم قاسم إلى التقاطعات الرئيسية ومحطة السكك الحديدية ومكاتب البرق ومحطة الإذاعة ، وفى القصر ، كان الملك فيصل الثانى البالغ من العمر ٢٣ عاما ، يرتدى ملابسه الداخلية فقط ويقف أمام المرآة ليحلق ذقنه . ودون إنذار أعلنت طلقات المدافع عن حصار الجيش للقصر . وبدون أى أمل فى المقاومة استسلم الملك على وعد بتأمين خروجه هو وأسرته من البلاد . وبينما كان فى وسط ساحة القصر التفت الضابط المسئول وأطلق النار من مدفع رشاش فقتل الملك وعبد الاله وصيه .

بينما وضع نورى السعيد على خاذوق ، وهو حى وترك يتعفن فى الشمس ولقد كان عبد الكريم قاسم عراقيا صرفا ، فأبوه عربى سنى ، وأمه كردية ، وجده شيعى ، وكان قاسم يمثل ذلك العنصر داخل العراق الذى يضع العراق والخليج

–لا القومية العربية أو أهداف عبد الناصر– على قمة أولوياته . ولكن قاسم لم يستطع أن يكبح القوى المتعددة فى العراق ، كى يبنى قومية عراقية خاصة . وفى غضون شهرين من انهيار الملكية بدأت إراقة الدماء بين الناصريين والقوميين العراقيين ، والبعثيين والشيوعيين ، والأكراد والحكومة ، ففى سبتمبر ١٩٥٨ ، قام الشيوعيون بحركة تمرد ، قتلوا فيها مئات ممن يشتبه فى أنهم من القوميين العرب المناهضين للتوجهات " الدولية " للشيوعيين ، وبعد ثلاثة شهور، أقام الشيوعيون الأكراد مذبحة للتركمان فى كركوك .

وفى أكتوبر ١٩٥٩ حاولت إحدى فرق القتل التابعة لحزب البعث والتى كانت تضم صدام حسين البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، حاولت اغتيال قاسم فى شوارع بغداد . وفى ربيع عام ١٩٦٢ ، قام الأكراد المطالبون بالاستقلال أو بالحكم الذاتى على الأقل فى إطار عراقى فيدرالى أو لامركزية بثورة واسعة النطاق ومن هذا الاضطراب العظيم برز نموذج وضع كافة أشكال القومية العربية فى مواجهة مجتمع متشرذم متعدد الأعراق غير مؤهل لقبول فكرة القومية العربية ، وترك ذلك الفريق أول عبد الكريم قاسم على رأس ثلاث قوى تتصارع من أجل السيطرة على مصير العراق بين الشيوعيين من ناحية . والناصريين القوميين والبعثيين من ناحية أخرى ، ثم العراقيين القوميين من ناحية ثالثة ، بينما كان الأكراد يحاربون معركتهم الخاصة من أجل كردستان . وفى النهاية انتصر القوميون العرب .

وفى ٨ فبراير عام ١٩٦٣ ، قامت فرقة تضم أعضاء من حزب البعث باقتياد قاسم وأقرب مساعديه إلى غرفة الموسيقى العربية فى محطة التلفزيون الحكومى وقامت بإطلاق النار عليهم . ثم أداروا الكاميرات . وكانت هناك إحدى الجثث ملقاه على كرسى دوار . وسقط قاسم على الأرض . وفيما بدا أنه محاولة لإثبات أن الرجل الذى حكم العراق لمدة خمس سنوات قد مات بالفعل . قام أحد

أعضاء ، غرفة القتل بالإمساك برأس الفريق أول من شعره ووجهها نحو عدسات الكاميرا . وشاهد العراقيون بأنفسهم العينين الجامدتين والأسنان المغطاة بالذهب لزعيمهم المقتول .

وكان القائمون بالانقلاب من القوميين العرب ، وبينهم حزب البعث ، وهو الجناح العراقى الأصغر والمنظم تنظيما دقيقا من حزب البعث الأكبر . وقد تأسس رسميا عام ١٩٥٢ ، كفرع لحزب البعث السورى ، ولم تكن له قاعدة سياسية وكان عدد أعضائه فى عام ١٩٥٥ لا يزيد عن ثلاثمائة شخص زادوا قليلا بحلول عام ١٩٥٨ ، وبالنسبة للبعثيين ، كانت ضآلة العدد أمرا متوقعا بالنسبة لحركة ثورية ووفقا لقول الأب الأيديولوجى للبعث ميشيل عفلق ، فإن "هناك فجوة تفصل بين تنظيم الحزب والمجتمع المحيط به . ومن عمق مصادره الخاصة ، وفى عزلة محسوبة عن بقية المجتمع ، فإن الحزب يجب أن يصبح أمة الثورة وأن يحقق ثورة الأمة " . وطبقا للمبدأ البعثى ، "فإن القيادة يجب أن تظل فى أيدى أقلية مستنيرة ، تمثل الشعب قبل أن يفوضها الشعب صراحة بتولى أمر تمثيلها " . وكان صدام حسين التكريتى واحدا من هذه الأقلية المستنيرة .

وينحدر صدام حسين من الطبقة الدنيا من السنة ، وقد ولد فى ٢٨ إبريل عام ١٩٣٧ لأسرة فقيرة من أسر الفلاحين فى قرية العوجة بالقرب مدينة تكريت الواقعة على نهر دجلة فى المثلث الذهبى ، وكان البيت الذى ترعرع فيه مبنى من الطوب اللبن والبوص ، ويتم تدفئته فى الشتاء بروث البقر الجاف ، وقد مات والد صدام إما قبل ولادته أو بعدها بوقت قصير ، وبعد وفاة والده تزوجت أمه من رجل أمى قال صدام إنه كان يوقظه من نومه كل صباح صارخا فيه " انهض يا ابن العاهرة واعتنى بالأغنام " .

وفى سن العاشرة هرب صدام إلى بغداد إلى منزل خاله خير الله طلفة . وقد فتحت بغداد أبواب عالم جديد لصدام الشاب ، فدخل المدرسة للمرة الأولى

وأنهى الدراسة الثانوية فى سن السادسة عشر ، ولأنه كان طموحا فقد سعى للالتحاق بالسلك العسكرى - ولكن ضعف درجاته حال دون تقدمه إلى الكلية الحربية فى بغداد ، وهكذا حرم من المؤهلات العسكرية التى يتحلى بها معظم القادة العرب المعاصرين . وإزاء فشله فى الالتحاق بالسلك العسكرى ، تحول إلى السياسة . وقد أمضى صدام -وهو اسم عربى يعنى "الشخص الذى يواجه"- فترة مراهقته منغمسا فى الكلمات الخطابية والعاطفية عن القومية العربية التى تتردد فى جنبات بيت طلفة . وفى عام ١٩٥٧ عندما كان فى العشرين من عمره، انضم إلى حزب البعث . وفى أكتوبر من عام ١٩٥٩ ، أصبح عضوا فى فرقة الاغتيالات التابعة لحزب البعث والتى أطلقت النار على سيارة الفريق أول عبد الكريم قاسم فى أحد شوارع بغداد فى وضح النهار . وطبقا للرواية الرسمية عن سيرة حياته الشخصية التى تظهر على شاشة التليفزيون العراقى باستمرار ، فإن صدام المجروح أنقذ رفاقه بشجاعة بالاستيلاء على سيارة تحت تهديد السلاح . وبقيادتهم من منزل إلى منزل ، نجح فى الهرب من الشرطة . ثم واصل رحلته وحده حتى عبر الصحراء إلى سوريا وقام بإخراج رصاصة من ساقه بسكين أثناء سيره فى الطريق .

وقد أنهى هروبه فى القاهرة حيث استفاد من المميزات التى كان يمنحها عبد الناصر للقوميين العرب الشبان والتحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة . وكان صدام حسين يمضى معظم وقته ، مثل غيره من السياسين المنفيين فى تلك الفترة فى أحد مقاهى القاهرة . وبعد ذلك بثلاثين عاما ذكر صاحب مقهى أنديانا " أنه كان من أولئك الذين نطلق عليهم مثيرى المتاعب . وكان يتشاجر لأتفه الأسباب.. وكنا نريد منعه من ارتياد المقهى . ولكن الشرطة ذكرت أنه فى حماية عبد الناصر . وفى عام ١٩٦٣ ترك صدام الدراسة للعودة إلى العراق كى يجد له مكانا فى حكومة البعث التى أطاحت بعبد الكريم قاسم .

وقد واجه البعثيون نفس الاضطرابات الدموية واتسمت ردود أفعالهم بنفس أسلوب القمع العنيف الذى انتهجته نظام قاسم . ولأن حزب البعث لم يكن يتمتع بالشعبية وكان منقسما بين الموالين لعبد الناصر وبين أولئك الذين كانوا يرون فى طموح عبد الناصر دماراً للحزب ، فإن انقلابا عسكريا أطاح بحزب البعث بعد أقل من عام واحد من استيلائه على السلطة . وعلى مدى السنوات الأربع التالية عاش العراق فى ظل الناصرية . وانتفاضة كردية أخرى ، وفى ظل الفساد أيضا.

وفى ٣٠ يوليو ١٩٦٨ استولى حزب البعث على السلطة للمرة الثانية . وكان عدد أعضاء الحزب لا يتجاوز وقتها الخمسة آلاف شخص ، ولكن عدد أعضائه لم يكن يعكس قوته ، فقد كان البعث تنظيما يقوده جهاز أمنى من الأيديولوجيين المخلصين بزعامة صدام حسين ، وانطلاقا من القاعدة القوية التى كان الحزب يمتلكها داخل الجيش ، أقام البعث مجلس قيادة الثورة برئاسة أمين عام الحزب أحمد حسن البكر . وكان البكر يشغل أيضا منصب رئيس الجمهورية وقائد القوات المسلحة . وعين صدام حسين ، مساعد أمين عام الحزب ، نائبا لرئيس قيادة الثورة المسئول عن الأمن الداخلى .

وكان صدام حسين الذى تولى أمر شبكة الأمن القوية والرهيبة لحزب البعث هو الذى دعم ثورة حزب البعث عام ١٩٦٨ وفى الخامس من يناير عام ١٩٦٩ أعدم النظام سبعة عشر شخصا بتهمة التجسس ثلاثة عشر منهم من اليهود وتمت عملية الإعدام بميدان التحرير فى بغداد ، وفى فبراير ١٩٦٩ أودع السجن كافة أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى ، الخصم الرهيب القديم للبعث ، وفى أكتوبر التالى ، قامت أجهزة الأمن التابعة لصدام حسين بتعذيب وسجن رئيس الوزراء السابق عبد الرحمن البزاز . وبعدها بعام واحد تم إعدام أربعة وأربعين آخرين بتهمة الضلوع فى مؤامرة وهمية . وبعدها دانت الأمور للبكر وصدام .

واستمرت عمليات الاغتيال والإعدام تتوالى مثل دقـــات الطبــول ، ففـــى أكتوبر عام ١٩٧٠ أطلقت النار على حردان التكويتى نـــائب رئيــس الـــوزراء ووزير الدفاع السابق فى الكويت فأردى قتيلا ، وفى أغسطس عام ١٩٧١ طعن عبد الرحيم نصرت ، وهو بعثى سابق وواحد من الميليشيات التى أطاحت بنظام عبد الكريم قاسم ، طعنات قاتلة فى فراشه ، وفى نوفمبر عام ١٩٧١ قتل فـــؤاد الكيكاحى زعيم البعث حتى عام ١٩٥٩ فى السجن ، وفى يوليو عام ١٩٧٣ تـــم إعدام نديم الكزار رئيس الأمن الداخلى ومعه خمسة وثلاثون شـــخصاً آخريـــن بتهمة القيام بمحاولة انقلاب . واستمرارا لسياسة القسوة ضـــد أعدائـــه ، قضـــى النظام على الشيوعيين والبعثيين الموالين لسوريا والشيعة العراقيين الرافضيـــن ليس فقط لهيمنة السنة ، ولكن أيضا لعلمنة الحكم ، وقبل كـــل هـــؤلاء الأكـــراد العنيدين.

وبحلول عام ١٩٧٠ أصبحت المسألة الكردية ، مسألة اقتصادية فضلا عن كونها سياسية . لأنه فيما يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ فى المائة من إنتاج العراق مـــن البترول كان يأتى من التلال قليلة الانحدار على الحافة الجنوبيـــة الغربيـــة مـــن المنطقة الكردية ، وكانت كركوك المدينة الكردية ، هـــى العاصمـــة البتروليـــة للعراق. وفى ذلك الوقت كان من المستحيل الجلوس فى مقهى على جانب الطريق فى كركوك الصاخبة دون التفكير فى مفارقة توزيع الطبيعة للبترول فى العراق . فباستثناء بعض الحقول فى الجنوب ، فإن حقول البترول الوفيرة الإنتاج تقع فـــى المناطق الشمالية الكردية . ومع ازدياد معدلات الإنتاج أصبحت كركوك مدينـــة مزدهرة . وانتشر بها رجال الأعمال وازدحمت الأرض بالمتســـوقين وظهـــرت علامات الرخاء فى كل مكان . ولكنه رخاء يمسك الآخرون بزمامه فقـــد كـــانت شركة بترول العراق ذات الملكية الأجنبية تنظم العائدات التى تنقلها إلى حكومـــة بغداد التى يهيمن عليها السنة .

وقد ورثت حكومة البعث الصراع المستمر مع الأكراد والذى لم يتمكن نظام عبد الكريم قاسم ولا الحكومة العسكرية من القضاء عليه قضاء تاما ، وقد أدى البترول ببساطة إلى تأجيج مشاعر الكراهية الطويلة بين الحكومة وأكثر الأقليات بالبلاد إثارة للقلق . وترى بغداد أن الهدف النهائى لنضال الأكراد من أجل الحكم الذاتى هو إقامة كردستان المستقلة . التى لن تكتفى بالحصول على شمال العراق بل ستحرم البلاد من نصيب الأسد من العائدات البترولية وفى ذات الوقت ينفى الأكراد أنهم يريدون الانفصال عن العراق ، ولكنهم يشعرون بالحنق لأن الحكومة العراقية ، من وجهة نظرهم ، تستولى على النسبة المشروعة للأكراد من دخل البلاد من البترول ، وعندما أممت الحكومة العراقية شركة بترول العراق عام ١٩٧٢ اتهم الأكراد القوميون الغاضبون بغداد بأنها ببساطة تحكم قبضتها على بترولهم .

وقد كان البعث –رغبة منه فى البقاء– يتطلع إلى النجاح فى حل مشكلة الأكراد حيث فشل الآخرون ، وفى ١١ مارس ١٩٧٠ أصدرت حكومة البعث بيانا رسميا بشأن الحكم الذاتى للأكراد ، حيث كانت ترمى إلى كسب الوقت حتى يصبح البعث من القوة بحيث يمكنه قمع الأكراد ، وفى ٢٤ مارس عندما أعلن الأكراد أن وعود الحكم الذاتى إنما هى من قبيل الكلام الأجوف ، وقاموا بالثورة مرة أخرى ، واجهوا غضب دولة البعث الكامل . وقامت المدفعية بإطلاق قذائفها على مدينتى زاخو وكالا الجبليتين عند ديزا وحولتهما إلى حطام .

وفى السهول كانت الدبابات والقاذفات وطائرات الهليوكبتر وقطع المدفعية تدعم ثمانية ألف جندى يقتحمون المنطقة . ولكن الأكراد اعتصموا بالتلال . واستطاع رجال حرب العصابات ذوو الشوارب المتسمون بالمرونة والصلابة ، بتحركهم على أقدامهم أو على الحمير القوية ، من كمين إلى كمين ، أن يزعجوا

الجيش العراقى بالأسلحة الصغيرة والمدفعية التى تعود إلـــى الحــرب العالميــة الثانية. ولأنه كان عاجزا عن اختراق الجبال بالقوات البرية ، اســتعان الجيــش العراقى بطائراته القاذفة . وتشرد ٢٥٠ ألف من الأكـــراد المروعيــن ، الذيــن يسوقون أبقارهم ، وماعزهم ، وأغنامهم فوق التلال بحثا عن المأوى فى إيــران. واختبأ من بقى فى العراق فى كهوف الجبال . وقد استمر التمرد لأن شاه إيــران كان يمد الأكراد بالأموال والأغذية ، وجعل الحــدود الإيرانيــة مفتوحــة أمــام اللاجئين والمقاتلين الأكراد رغبة منه فى إرغام العراق على تقديم تنازلات له فى شط العرب ، ولم يستطع الأكراد تحقيق الانتصار ، ولكنهـــم بمســاعدة إيــران فرضوا على الحكومة العراقية حربا مكلفة داخل حدودها .

وفى ٦ مارس ١٩٧٥ تخلت إيران عن الأكراد ، فقد أدرك العراق وإيران أنهما على وشك الدخول فى حرب مع بعضهما البعض لن تقتصر نتائجها علـــى تدمير صناعة البترول فيهما ، بل إنها تهدد بإدخال السوفييت أصدقـــاء العــراق والأمريكيين أنصار إيران إلى منطقة الخليج ، ومن ثم اجتمع البلدان فى الجزائر، ولإخفاء مشاعر العداوة بينهما عانق الشاه الأرستقراطى المهيــب محمــد رضــا بهلوى بحرارة صدام حسين الثورى ممتلىء الجسم . وفى حضور معظم الــدول العربية أعلن الزعيمان الاتفاق . فسلمت العراق بالمطالب الإيرانيـــة فـــى شــط العرب ، وقطعت إيران إمداداتها عن الأكراد وأغلقت حدودها دونهم .

وصبت بغداد جام غضبها على الأكراد فراحت تعمل القتل فيهـــم وتقـــوم بعمليات ترحيل جماعية لهم . وتحت جنح الظلام كانت قوافل السيارات تدلف إلى القرى الكردية . وكان الجنود بزيهم العسكرى يجرون أسرا كاملة من على أسرة النوم ويقومون بشحنها على شاحنات تنقلهم جنوبا إلى المناطق العربية وفيمـــا لا يتجاوز توفير الخيام إلا قليلا تم وضع ما يتراوح بين خمسين ألف وثلاثمائة ألف

كردى فى مناطق محددة وأمروا بألا يبرحوها وفى إطار برنامج ضخم لتعريب كردستان قامت الحكومة بنقل بعض العرب إلى المناطق الكردية المهجورة . وبالدماء وعمليات الترحيل تم إخماد التمرد .

ومنذ عام ١٩٦٢ جعلت المشكلة الكردية وعدم الاستقرار السياسى المزمن العراق يركز اهتمامه داخل حدوده بعيدا عن الشئون العربية . فقد تجنب العراق حرب ١٩٦٧ ، ونأى بقواته المتمركزة فى شمال شرقى الأردن والبالغ قواتها ١٢ ألف جندى عن الاشتراك فى الحرب الأهلية التى دارت رحاها هناك عام ١٩٧٠ إلى جانب الفلسطينيين . وكان يراقب حرب عام ١٩٧٣ ، وإلى درجة ما فإن كافة الأنظمة الحاكمة فى بغداد أيا كان لونها ، كانت تؤثر العزلة ، وتبذل كل جهد لتشديد قبضتها فى الداخل . ولم تكن حكومة البعث ، مركز القومية العربية ، استثناء من ذلك ، ففى الفترة بين عامى ١٩٦٨ ، ١٩٧٧ كانت تركز هى أيضا على تحقيق الاستقرار فى الداخل ، وبالنسبة للبعث فإن مستقبل " الإقليم العراقى من الوطن العربى " يوجد داخل الحدود .

وقد ألزم البعث نفسه ببناء دولة طبقا لتصوراته الخاصة وكانت مخابرات صدام حسين بمثابة العصا ، وعائدات النفط هى الجزرة ، وفى الفترة بين عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٨ ارتفعت عائدات النفط بفعل الحظر البترولى العربى من ١,٨ مليار دولار الى ٢٣,٦ مليار دولار . وبهذا التدفق الهائل فى الأموال ، بدأ البعث فى نقل العراق من بلد زراعى متخلف إلى بلد نام ، وفى السباق نحو التحديث ، زادت المخصصات الحكومية لقطاع الصناعة اثنتى عشرة مرة ، والنقل إحدى عشرة مرة والإسكان تسع مرات ، وامتدت الرعاية الصحية المجانية إلى شعب اعتاد أن يلقى الإهمال . وارتفعت اللافتات التى كتب عليها " الحملة من أجل الأمية جهاد مقدس " فى كل مكان من بغداد إلى أكثر القرى

تواضعا فى الصحراء الغربية . وانطلاقا من رفضها الاكتفاء بالأساسيات استخدمت الحكومة عائد النفط فى دعم السلع الاستهلاكية الأساسية ، حيث أصبحت الثلاجات وأجهزة التليفزيون فى كل بيت ووحدة سكنية ، بل وكل كوخ تقريبا . وفى خضم ثورته الفياضة ، حدد البعث أخيرا الاشتراكية العربية . " إن من يعمل أكثر يأكل أكثر ، ولكن لن يكون هناك جائع واحد " .

وقد استهدف هذا الاندفاع الشديد نحو التحديث ، تكوين وعى وطنى ، ومحو الانقسامات القبلية والدينية القديمة ، والقضاء على المظالم الإقليمية ، وإزالة أسباب شكاوى الأكراد ، ولكن البعث حاول بناء هذا الوعى الوطنى بغرس هوية عربية داخل كل عراقى ، فقد أكد المؤتمر القومى الحادى عشر لحزب البعث الذى عقد عام ١٩٧٧ أن التاريخ الذى يمتد لعدة آلاف من السنين من عمر الأمة العربية يحتضن جماعات عرقية متنوعة كانت إسهاماتها من أجل هذه الأمة متشعبة وعميقة . ومن هذه الفرضية أنكر الحزب النزعة العرقية واللغة لدفع الأكراد داخل الأمة العربية .

وبهذا وضع الفكر البعثى والفلسفة البعثية ، العراق حيث يعتقد البعثيون دائما أنه يجب أن يكون – فى أحضان الأمة العربية الأرحب ، فهناك يتحمل العراق قدره بأن يكون بمثابة العمق الاستراتيجي والجناح الشرقى للأمة العربية.
وبحلول عام ١٩٧٧ ، كان العراق البعثى مستعداً لإلقاء نفسه فى الساحة العربية، حيث كان ينظر إليه على أنه منبوذ ، ولأنه كان مولعاً بالقتال ويدين أبسط عرض يقدم لإسرائيل ، ويتسم بالجنون السياسى فقد كان العراق البعثى يقف خارج النادى العربى . واستمر هذا الوضع حتى ذهب أنور السادات إلى القدس وبدأ قرب توصل سلام منفصل مع إسرائيل يهدد توازن القوى التقليدى بين القاهرة ودمشق وبغداد . ومع ابتعاد القاهرة عن الساحة العربية وغياب دورها فى الجناح الغربى العربى ، برزت الحاجة إلى العراق لدعم العالم العربى فى الشرق .

وفى ظل النظام الجديد ، بحث العراق وسوريا ، العدوان القديمان ، تحقيق الوحدة بينهما تحت راية البعث . ولكن الفشل فى تحقيق هذه الوحدة لم يحل دون دخول العراق فى خضم السياسة العربية ، وفى ٢ نوفمبر ١٩٧٨ ، عقد العراق مؤتمر قمة عربى فى بغداد لبحث " خيانة مصر للقضية العربية " . وكان ذلك المؤتمر أول عربى كبير يبادر العراقيون بالدعوة إليه . وقد حقق المؤتمر نجاحا لم يكن متوقعا حيث حضرته كافة الدول العربية عدا مصر .

وفى وقت انعقاد مؤتمر كامب ديفيد ، كان السوريون والسعوديون والليبيون ومنظمة التحرير الفلسطينية وكافة العرب الآخرين يعترفون بزعامة العراق فى رفض اتفاق مصر مع إسرائيل . وتصور البعث العراقى بتأثير صدام حسين ، توحيد العالم العربى تحت قيادة العراق وجعل بغداد مركز هذه الوحدة وفى مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى تونس عام ١٩٧٩ ، احتفل صدام حسين الذى أصبح القوة الحقيقية فى النظام العراقى ، بما اعتبره خلافة العراق لمصر كأكبر قوة فى العالم العربى ، وفى عام ١٩٧٩ تنحى الرئيس أحمد حسن البكر ، ابن عم صدام حسين ومعلمه وشريكه فى السلطة على مدى عقد من الزمان ؛ لأسباب صحية ، وتولى صدام حسين ، الصبى الفقير القادم من تكريت ، منصب الرئاسة ، بالإضافة إلى منصب رئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة وزعيم حزب البعث . وشكل أقاربه ورفاقه القدامى مجلس الوزراء ، واحتلوا المناصب الرئيسية فى الجيش وقوات الأمن الداخلى . واستقر النظام الجديد فى مكانه الملائم . فقد سقطت العراق ، التى عانت على مدى العشرين عاما السابقة من آثار عشرة انقلابات ومحاولات انقلابية ، وعصاة مسلحين وحرب أهلية شاملة فى قبضة صدام حسين الحديدية . ومن خلال فرض إرادته على بلده الممزق ، جعل صدام نفسه الدولة . عبر وسائل عدة أبرزها الأداة الإعلامية والأداة الاستخبارية .. وفوق كل ذلك الخوف .

وقد أدرج العراق أربعة وعشرين جريمة جعل عقوبتها الإعدام . وفى ظل نظام تحوم حوله الشبهات حول الكاتبين على الآلات الكاتبة ، أصبح لقوات الأمن وجود غير مرئى فى كل مكان . وأصبح بالإمكان أن يكون أى شخص عضوا بالمخابرات الرهيبة سواء كان رجل أعمال أو مدرسا أو خادما أو بائعا وفى ظل هذا الخوف همس أحد التجار فى بغداد قائلا : " هذا راديو ، ولكن إذا قال صدام أنه ثلاجة ، فهو ثلاجة " .

والحقيقة هى أن " صدام جاء من أرض هشة ، بلد حدودية ، بين فارس وشبه الجزيرة العربية ، وكان نصيبه من الثقافة والإطلاع والأفكار الكبرى ضئيلا . وأصبح صدام حاكما مستبدا فظا وسجاناً ماهراً روض بلاده كلها وحولها إلى سجن كبير" .

وقد سيطر صدام على العراق سيطرة كاملة ولكنه لم يستطع أن يمد هذه السيطرة خارج حدوده . وفى عام ١٩٧٩ ، هزت الثورة الدينية إيران الشيعية وراحت تدق على أبواب العراق العلمانى .

فقد أثارت كلمات آية الله روح الله الخومينى الحماسية شعورا قويا بالهوية الشيعية ، وحركت الجماهير الشيعية فى جنوب العراق العلمانية التى يسيطر عليها السنة ، وفى صيف ١٩٧٩ ، عبأ زعيم الشيعة فى النجف آية الله محمد باقر الصدر أتباعه فى مظاهرات ضخمة تأييداً لآية الله الخومينى . وراح الخومينى نفسه يطعن فى جوهر فلسفة البعث العربية التى حاولت الجمع بين سنة وشيعة العراق وربطهم بالأمة العربية . وبصوت روحانى أدان آية الله القومية العربية ووصفها بأنها " متعارضة أساسا مع الإسلام لأنها تعوق قدرة الإسلام على العمل كقوة موحدة دينيا وسياسيا " .

ورد صدام حسين ، ففى أكتوبر ١٩٧٩ ، أصبح أول رئيس دولة عربية كبيرة يصطدم بالنظام الإسلامى فى إيران . فوصف الثورة الإيرانية بأنها " غير

إسلامية " وسخر من سلطة آية الله وقال " إن القرآن كتب بالعربية وأن الله كتب على العرب (وليس الإيرانيين) القيام بدور الريادة فى الإسلام " .

وفى الأول من أبريل عام ١٩٨٠ ، كاد من يشتبه فى أنهم من الإرهابيين الشيعة أن ينجحوا فى قتل نائب رئيس الوزراء طارق عزيز وأعطى هذا العمل الذريعة لصدام للبدء فى القضاء على الحركة السياسية الشيعية العراقية . ومن خلال حملة للقبض على الشيعة وتعذيبهم وإعدامهم وإجبارهم على الرحيل ، تم استئصال شأفة الدعوة الإسلامية .

واختفى محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى ، رمزا المعارضة الشيعية فى أحشاء المخابرات وكانت الطائفة الشيعية هى الضحية التالية فكانت الشاحنات المشئومة التابعة للجيش العراقى تصل إلى المدن والقرى الشيعية لحمل أولئك الذين تحوم الشبهات حول إخلاصهم للعراق ، وفى نهاية الأمر وصلت أعداد الشيعة الذين أجبروا على عبور الحدود إلى إيران إلى ما يقدر بحوالى ثلاثمائة ألف شيعى .

ورد الخومينى بدعوة العراقيين " للإطاحة بهذا النظام الفاسد " ، ووصف صدام حسين بأنه " كائن طفيلى خائن " وتوعد بالإطاحة به كما أطاح بالشاه ، ووصف حسين على منتظرى ، نائب الخومينى نظام " الجزار صدام حسين " بأنه معاد للإسلام . وقال " إننى على يقين من أن الدماء الزكية لشهداء الإسلام ستغلى فى عروق شعب العراق المسلم ... وستظل هذه الدماء تغلى حتى تتم الإطاحة بنظام صدام حسين " .

وفى ١٧ سبتمبر عام ١٩٨٠ ، امتد الصراع المحتدم بين القومية العربية والإحياء الإسلامى ، والعداء المستمر منذ قرون بين العرب والفرس والنزاع على الأراضى الذى امتد من بلاد ما بين النهرين العثمانية إلى العراق البعثية

ليلحق بمخاوف صدام حسين من الاضطرابات الشيعية فى جنوب العراق . وأمام كاميرات التليفزيون العراقى ، مزق صدام حسين اتفاقية الجزائر الموقعة عام ١٩٧٥ والتى سلمت العراق بموجبها بسيادة إيران على شط العرب ، وبعد أسبوع غزا العراق إيران . وفى معرض دفاعه عن نفسه ضد مشاعر الثورة الإسلامية، دعا صدام حسين العرب لحرب جديدة ضد الفرس . وبرفع درع القومية العربية، أعلن صدام حسين " إننا عراقيون ، ونحن جزء من الوطن العربى والأمة العربية" .

وخوفا من تأثير الثورة الإسلامية على نظمها ، سارت الدول العربية خلف قائد لم تختره ولم تثق فيه . ولخدمة مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية ، تحالف الملك حسين ملك الأردن صراحة مع العراق ، وأعلن أن " العراق هو خط المواجهة ليس فقط للأردن بل للمنطقة بأكملها ، للخليج والسعودية وعمان " . وكانت الدول الخليجية أكثر حذرا . وبسبب تاريخها الطويل من عدم الشعور بالارتياح تجاه نظام العراق الثورى والاشتراكى ، رفضت فى البداية قبول أن يكون صدام حسين بسمارك العرب . ولكن مع مرور الوقت ، وإزاء مخاوفها المتزايدة من امتداد الثورة الإسلامية إلى شعوبها ، أرادت السعودية والكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة احتواء إيران ، ومن ثم راحت تلك الدول الغنية تحول الأموال الضخمة للمجهود الحربى لصدام حسين .

وكان أسد دمشق ، حافظ الأسد ، هو الوحيد الذى خرج عن الصف العربى لأسباب سياسية وتاريخية وشخصية . فدمشق وبغداد متنافستان طبيعتان. وتمثلان ساقين من الثلاثى العربى . وتشتركان فى حدود مشتركة وتتقاسمان مياه الفرات ، وتتنازعان بشأن الأمور الاقتصادية ، وبينهما نقل البترول العراقى عبر خطوط الأنابيب السورية . كما أنهما تحملان ميراث الصراع الداخلى المرير فى حزب البعث . ففى عام ١٩٦٦ انقسم الحزب بين جناحيه السورى والعراقى . ومنذ ذلك

الحين ، أصبح كل بلد ينظر بارتياب للآخر ويوفر الملاذ للفارين من البلد الآخر . غير أنه ليس هناك شيء يميز العداء بين سوريا والعراق مثل العداء الشخصي القائم بين حافظ الأسد وصدام حسين . فهو الذى حال فى النهاية دون قيام الوحدة بين البلدين عام ١٩٧٨ . وهو الذى وضع سوريا العربية إلى جانب إيران الفارسية عام ١٩٨٠ .

وقد عمل صدام حسين منذ بداية الحرب العراقية الإيرانية على أن يضع فى الأذهان أن تلك حرب عربية ضد القوة الفارسية التى تريد السيطرة على العالم العربى السنى . ولم يؤثر هذا المنطق على العرب كثيرا . وكان دعمهم للحرب ضد إيران وليس دعما للعراق . وقد عبر الرئيس العراقى والمحيطون به عن استيائهم الشديد لما اعتبروه ضعفا فى المساندة العربية لحرب تستنزف العراق . وراح المسئولون العراقيون يصبون جام غضبهم على دول الخليج لعدم تقديرها للتضحيات العراقية . وكما قال أحد المسئولين العراقيين بتذمر : "لقد بذلنا الدماء ، بينما بذل السعوديون الأموال " .

وفى النهاية بدأت الحرب المروعة تضع أوزارها فى أبريل عام ١٩٨٨ . فثمانى سنوات من الهجمات الجوية والصاروخية والاستنزاف الاقتصادى والرعب من التهديدات العراقية باستخدام الغازات السامة ، قضت على إرادة إيران لمواصلة القتال ، وأجبرت الخومينى على التخلى عن مطلبه بإسقاط صدام حسين . وفى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ ، وافق الجانبان على وقف إطلاق النار الذى تم بواسطة الأمم المتحدة ، وفى بغداد ، المدينة التى ماتت فيها الأفراح العفوية ، امتلأت الشوارع بالحشود التى راحت تغنى وترقص . واستمرت الأفراح خمسة عشر يوما .

ورسم صدام حسين ، الرجل الذى بدأ الحرب والذى رفض أن يترك الحكم، صورة النصر من حرب وصلت إلى طريق مسدود وانتهت بوقف إطلاق

النار ، فقد أنزل الخزى بطهران وبأولئك الذين كانت ثورتهم الدينية تهدد كثـــيرا من العرب . وفجأة بدأ نجم صدام حسين الرجل الــذى تصـــدى للفـــرس ، فـــى الصعود . وخلع صدام الرداء العسكرى وارتدى لباسا عربيا . ونصب من نفســـه مثالا للنقاء العربى . وأعاد إلى الأذهان أيام عبد الناصر ونصب من نفسه بطــلا للجماهير العربية ضد الأثرياء والصفوة الأرستقراطية ، وفى ظل جيش كبير خبر المعارك وبدا قادرا على تحدى إسرائيل قدم صدام نفسه لزعامة العالم العربى .

ولكن الحرب كانت قد أتت على جزء كبير من قاعدة قوة صدام وهى العراق. فالحرب ، التى كانت أكثر الحروب دموية منذ الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر ، أثرت على كل أسرة عراقية ، وخربت الاقتصاد العراقى وحملــت العــراق بديـــون تتراوح بين ٧٠ ، ٨٠ مليار دولار . وفى عام ١٩٨٩ ، العام الأول للسلام ، قـــدرت عائدات العراق النفطية بخمسة عشر ملياراً من الدولارات. ومن هذا الدخل كان على العراق أن يسدد ديونه ، وأن يمول وارداته ، وأن يحـــافظ علـــى متطلبـــات الدولـــة الاشتراكية ، وأن يدعم آلة حرب صدام حسين الهائلة. واتجهت البـــلاد نحـــو حافـــة الإفلاس بينما راح صدام يسعى للحصول على قروض أجنبية ضخمة لإعـــادة بنـــاء الدولة الاشتراكية التى تمثل العنصر الطوعى الوحيد فى وجوده السياسى .

ولكن لم تكن هناك مصادر للتمويل ، فالحكومة اليابانية التى كانت تنتظر سداد ديونها التى تبلغ ثلاثة مليارات من الدولارات ، أوقفت كافـــة القـــروض . وراح الإتحاد السوفييتى يضغط من أجل الحصول على قيمة صادراته من السلاح للعراق والتى بلغت ٩ مليارات دولار . وحتى شركتا لوفتهـــانزا وســـويس إيـــر للطيران أمتنعتا عن سداد الضرائب على تذاكر الطيران التى كان يتم حجزها فى العراق ، وفاء لديونها لديه والتى قدرت بما يزيد عن مائة وخمسين مليون دولار. غير أن هذه المبالغ كانت تبدو ضئيلة للغاية بالمقارنة بديون العـــراق للســـعودية والكويت والتى بلغت حوالى ٣٥ مليار دولار .

وقد وافقت السعودية على عدم سداد العراق لديونه وبدأت فى شطبها بهـــدوء من دفاتر الحسابات . ولكن الكويت راحت تكرر إثارة قضية الديون ، خاصة عندمـــا بدأ صدام يتحدث عن حاجة العراق لتوسيع حدوده على حساب أراضى الكويـــت . ووضعت قضايا الأموال والأرض والنفوذ صدام حسين فى حالة مواجهة مع جارتـــه وفى حالة تناقض مع الأعراف التى جرت عليها العلاقات بين العرب .

وقد بدأ طريق انحدار العراق فى فبراير عام ١٩٩٠ ، وعندما أعلن صدام حسين أنه لا يحتاج فقط للإعفاء من الديون ، بل يريد الحصول على ٣٠ مليـــار دولار جديدة لإعادة الحياة لاقتصاده ، وفى نهاية شـــهر يونيـــو طـــالب بعشـــرة مليارات من الدولارات من المساعدات من كل دولة عربية من أعضاء الأوبـــك وهى أموال اعتبرها حقا له . ولأنه كان يعتبر نفسه الشرطى الذى يحمى الـــدول العربية ، فإنه راح يطالب بالثمن . وعندما رفض طلبه ، اتهم الكويـــت بســـرقة البترول العراقى من حقل الرميلة الذى ينحدر داخل الكويت وطالب بتعويض قدره ٢,٤ مليار دولار .

وفى ٢١ يوليو ، ووسط سيل من الشائعات عن تجربة العـــراق لأجهـــزة نووية و "موقع ضخم" قادر على إطلاق قذائف هائلة من الغاز السام ، تم حشـــد ثلاثين ألف جندى عراقى بالقرب من الحدود الكويتية . وعاد صدام للهجوم على الدول العربية المنتجة للبترول ، وهذه المرة بشأن الأسعار وحصـــص الإنتـــاج . ووجه صدام الاتهامات بأن كل دولار تخفضه الكويت ودولة الإمارات العربيـــة المتحدة من سعر برميل البترول يتجاوز حصص الإنتاج التى حددتها الأوبـــك ، يكلف العراق مليار دولار سنويا . وفى ٢٦ يوليو ، أذعنت الكويت ووافقت على خفض الإنتاج لرفع الأسعار . وردد صدام بتحريك ثلاثين ألف جنـــدى آخريـــن باتجاه الكويت .

ورغم حشد ما مجموعه مائة ألف جندى وثلاثمائة دبابة ، ظل العرب على اعتقادهم بأن ما يقوم به صدام مجرد عملية خداعية . وفى ٣١ يوليو اجتمع الكويتيون والعراقيون فى جدة تحت رعاية السعوديين . وبعد ساعتين انتهى الاجتماع دون التوصل إلى اتفاق . وتوقع الكويتيون عقد اجتماع آخر اعتقادا منهم بأن صدام لن يتحرك ضد الدولة التى ساهمت كثيرا فى الحفاظ على استمرار آلة الحرب العراقية . ولكن صدام استمر فى إصراره على أن العرب هم المدينون ، لأنه خاض الحرب ضد الثورة الإيرانية نيابة عنهم .

وبحلول الأول من أغسطس ، باتت المخابرات الأمريكية على قناعة بأن العرب سيقدم على الخطوة التى لا يمكن التفكير فيها - وهى غزو الكويت . وكان الرئيس المصرى حسنى مبارك ، والملك فهد ملك السعودية ، والملك حسين ملك الأردن ، لا زالوا يعولون على مبدأ الوحدة العربية ، وعلى أهم أسس هذا المبدأ وهو عدم قيام أى بلد عربى بغزو بلد عربى آخر . وقد علق وليام بستر مدير المخابرات الأمريكية على ذلك بعد عشرة شهور بقوله : " إن الكويتيين لم يكونوا ليصدقوا ذلك . وكذلك كافة العرب . ولكن هذا هو ما حدث".

وفى الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، عبر مائة ألف جندى عراقى الحدود إلى داخل الكويت . وقد جاءوا فى دبابات وناقلات جنود وحافلات عادية . وجاءوا من الحرس الجمهورى ، صفوة القوات العسكرية العراقية ، ومن الجيش الشعبى ، المكون من الفلاحين غير المنظمين ، ومن جهاز المخابرات المخيف ، ومن الشرطة السرية . وفى غضون خمس ساعات كانوا قد احتلوا الكويت . ومن خلال ما أسماه " ثورة الثانى من أغسطس " أراد صدام أن يصحح الأخطاء الإمبريالية القديمة ضد العراق ، وأن يلغى الحدود التى تحول دون وجود منفذ للعراق على البحر ، ورأى أن يعوض العراقيين من مظالم عرب الخليج الذين كانوا يرفلون فى النعيم أثناء الحرب بين العراق وإيران بينما

كان العراقيون ينزفون الدماء ويموتون من أجل حمايتهم . ومن أجل هذه الأسباب حطم صدام حسين أسس الوحدة العربية .

وتزلزل العالم العربى . فالمبادىء المقدسة والتحالفات التقليدية والأوضاع التى حظيت بالاحترام على مدى الزمن ، انهارت كلها لحظة وثوب القوات العراقية على الكويت . وبين عشية وضحاها تلاشت فكرة الوحدة العربية التى غرست وأحيطت بسياج من الحماية منذ الأيام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية .

وحاول العرب التحرك بشكل جماعى لاحتواء ذلك الذى انتهك القواعد العربية . فعقدت الجامعة العربية جلسة طارئة . ولكنها لم تستطع أن تتواصل لإجماع . واتخذت مصر وسوريا والسعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة والبحرين وقطر ولبنان موقفا ضد العراق ، فى حين وقفت الأردن واليمن ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب صدام حسين .

وانضمت قوات برية وجوية من مصر وسوريا إلى السعودية والقوات الغربية بقيادة الولايات المتحدة . وفى الوقت الذى احتشدت فيه آلة الحرب الهائلة فى مواجهة غزو صدام حسين للكويت على رمال الصحراء فى السعودية تصرف صدام حسين بأسلوب الطغاة . فأخذ آلافا من الغربيين كرهائن ووضعهم كدروع بشرية فى منشآته العسكرية . ولتحييد إيران وجبهته الشرقية المثيرة للقلق ، تخلى صدام عن شط العرب. وضاعت المكاسب الضئيلة من ثمانى سنوات من الحرب مع إيران .

وعلى مدى ستة أشهر تجمعت عناصر الحرب . فوقفت مصر وسوريا والسعودية ومجموعة من الدول العربية إلى جانب قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما لعب صدام حسين على العداء العربى الممتد من الزمان للغرب ، وبتجميع مشاعر الكراهية والاستياء لدى العرب ، راح صدام حسين يتحدث مرة أخرى عن خيانة الغرب للعرب وينسج مرة أخرى أيضا حلم القائد

الذى يعيد العرب إلى مكانهم الصحيح فى العالم . وكانت هى نفس الأفكار التى رفعها جمال عبد الناصر قبل ثلاثة عقود من الزمان . وها هو صدام حسين يعيد ترديدها من جديد.

ولكن عبد الناصر استفاد من الحرب الباردة آنذاك ، أما صدام ، فقد أثار أول أزمة للنظام العالمى الجديد تقف فيها القوى العظمى فى نفس الجانب . وأصدرت الأمم المتحدة القرار بعد الأخر لمطالبة العراق بالانسحاب ، كما فرضت عليه عقوبات اقتصادية وأنذرته إنذارا نهائيا بالانسحاب من الكويت ، وظل صدام حسين يرفض الإذعان لكل هذه القرارات . ولكن معظم العرب والعالم الخارجى كانوا على قناعة بأن ذلك الطاغية القادم من تكريت قد ذهب إلى مدى بعيد للغاية ، وفى الساعة ٢,٣٠ من صباح يناير عام ١٩٩١ ، قامت قوات التحالف التى حشدها جورج بوش بضرب العراق ، وساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم، ظلت الأسلحة ذات التكنولوجيا المتقدمة تلقى بأجيال جديدة من القنابل على المنشآت العسكرية ومرافق البنية الأساسية العراقية ، وتحدث صدام حسين من مخبئه قائلا : " أيها العراقيون الأمجاد ، أيها العراقيون الأبطال ، أيها العرب ، أيها المؤمنون فى كل مكان ، إننا صامدون " . وراحت الإذاعة العراقية تردد : " ياصدام حسين أنت البسمة على شفاه الكبار والصغار ، أنت القمر السابح فوق بلاد الرافدين " .

ومرة أخرى راحت سيارات الأجرة تنقل توابيت القتلى من الجبهة إلى بغداد وأماكن المقابر الشيعية فى كربلاء والنجف ، ومرة أخرى أيضا اضطر العراقيون إلى دفع ثمن أخطاء صدام حسين .

وأخيرا جاءت "أم المعارك" وهى الحرب البرية التى طال انتظار صدام حسين لها ، فى ٢٣ فبراير ، وقد استمرت مائة ساعة . وحينما بدأت موجات الهجوم تنهال على الحدود الجنوبية للكويت ، أخذ الجنود العراقيون الذين كانوا

يعانون من البرد والجوع والهلع بعد أسابيع من القصف الشديد ، يخرجون من مخابىء صدام حسين الدفاعية ، واتجه الحرس الجمهورى إلى الشمال محاولا الهرب من التطويق وأصبح الطريق إلى بغداد مفتوحا . ولكن تقدم قوات التحالف توقف ، فالأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والسعوديون والسوريون والمصريون ، كانوا يريدون أن يقوم الضباط العراقيون السنة بالإطاحة بصدام حسين للحفاظ على العراق سليما ، وسواء كان ذلك خطأ أم صوابا ، فقد ساد إجماع غير مستقر بين صفوف التحالف بأن الإطاحة بصدام حسين فى ظل عدم وجود قوة سياسية تحل محل يمكن أن يفتح الباب أمام مشاكل كثيرة . ففى ظل النزاعات المزمنة ، فإن من المرجح أن يتشرذم العراق ويصبح منطقة حدودية ضخمة غير مستقرة تستطيع الدول المحيطة بها ممارسة دعاويها الإقليمية والدينية فيها . ولكن العراق ، الذى أصابه الضعف بسبب حدوده الصناعية التى كانت لعنة على تكامله السياسى منذ نشأته ، والذى خضع على مدى عقود للحكم الشمولى ، أثبت عدم قدرته على إحداث التغيير المنظم ، ففى المدينتين المقدستين النجف وكربلاء وفى مدن مثل صفوان وفى القرى الواقعة فى الصحراء الواسعة المهجورة غرب الفرات ، والتى لا يعرف أسماءها إلا سكانها ، انتفض الشيعة ضد بغداد ، وراحوا ينفسون عن غضبهم ضد الحكومة التى تسيطر عليها السنة والتى تحرمهم من حقوقهم السياسية والاقتصادية ، ولكن تسليحهم كان ضعيفا ولم يكونوا منظمين تنظيما جيدا ، وفى الشمال حاول الأكراد ، الذين أحسوا بضعف صدام حسين ، مرة أخرى الوصول إلى كردستان . وفى الوسط تقع بغداد والمثلث السنى . وقد ضعفت سيطرة السنة على التخوم . ووقف الجيش العراقى، الذى يسيطر عليه السنة والقوة الوحيدة القادرة على تغيير الحكم ، مع صدام حسين . وعلى الرغم من أن الكثيرين ربما كانوا يكرهونه ، فانهم كانوا يكرهون خصومهم فى الدين والعرق أكثر .

واتجهت دبابات الحرس الجمهورى ، تسبقها طائرات الهليوكوبتر ، صوب الشيعة . فهربت آلاف من الأسر التى أصابها الرعب إلى المنطقة التى كان يحتلها الأمريكيون بالقرب من الحدود الكويتية ، بينما اتخذ معظم المتمردين من مسجدى على وحسين فى كربلاء مواقع لهم ، وراحت النيران العراقية تصب على كل مبنى داخل دائرة قطرها نصف ميل حول قبر الشهيد الحسين ومع نهاية شهر مارس ، سلم المتمردون المسجد للجيش . وفى ظل الهدوء الذى فرضته الهزيمة ، كانت الأبواب الذهبية المنقوشة الشهيرة معلقة على مفصلة ملتوية ، وكان الفسيفساء الفيروزى مهشما بفعل نيران الدبابات . وكانت ست أنشوطات مدلاة فى الفناء الذى كان يجتمع فيه نحو ألف زائر يوميا للصلاة . وكانت الآثار الموجودة على جدران إحدى الغرف الجانبية تشير إلى المكان الذى كانت تقوم فيه فرق إطلاق النار بعمليات الإعدام تحت لافتة كتب عليها " عاش القائد صدام".

ثم اتجهت قوات صدام حسين إلى الشمال لقمع الأكراد . وبتذكيرهم بعامى ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ عندما قام صدام بقمع التمرد الذى وقع آنذاك باستخدام الغازات السامة ، راح الأكراد ألوفا بعد ألوف يفرون فى فزع تحت الأمطار والصقيع ، وقد ساروا فوق الجبال ، حفاة الأقدام فى الغالب للوصول إلى تركيا ثم تدفقوا عبر الحدود إلى إيران ، وربما اختار ما يقدر بنحو مليونى شخص الجوع والعطش على التعرض لانتقام بغداد . وبحلول شهر إبريل ارتفع علم العراق مرة أخرى فوق كردستان بأكملها .

وقد بقى صدام حسين ، على الأقل حتى ذلك الوقت . واحتفل بعيد ميلاده الرابع والخمسين وحوله ستون ألف جندى مسلح وأفراد عشيرة تكريت . وفى تكريت سار أنصاره وقد حملوا نموذجا ضخما من الورق المقوى لرأسه على ظهر شاحنة وطافوا به أرجاء المدينة . ولكن صدام نفسه لم يكن هناك . ففى

مكان ما لم يكشف عنه النقاب ، نقلت عدسات التليفزيون إلى الأمة الرمز القومى فى حلته البيضاء .

ويعتبر شعار " صدام حسين هو العراق والعراق هو صدام حسين " هو الشعار الذى عمل صدام نفسه على تحويله إلى حقيقة . ومن المثير للسخرية أن صدام نجح فى أن يجعل من نفسه رمزا للإحباط أكثر منه رمزا للقومية العربية. وبغض النظر عن العيوب الواضحة والعميقة فى شخصيته فإن صدام أثار بالفعل فى الأيام الأولى لأزمة الخليج بعضا من أعمق مشاعر العرب وبسبب عدم قدرته على تحقيق المصالحة مع الحكومات العربية فقد تخطاها صدام حسين بالحديث مباشرة إلى العرب الذين تجاهلت حكوماتهم تطلعهم الطويل إلى إصلاح حال الأمة العربية ، وحتى وهو يترك شعبه يتحمل المعاناة الناجمة عن الحصار الاقتصادى الذى فرضته الأمم المتحدة ، راح صدام يعرض قضيته بقوة على الجماهير العريضة من العرب ، بأنه لن يسمح بما وصفه بالمؤامرة التى يحكيها الغرب لسحق الكرامة والكبرياء العربيين .

ولم يسع خصوم صدام حسين ، الذين اعترتهم الشكوك فى مستوى ومدى التأييد الذى يتمتع به صدام فى الشارع والذين كانوا يشعرون بالقلق بشأن دورهم بالوقوف إلى جانب الغرب فى حرب الخليج ، لم يسعوا لطرد العراق من الجامعة العربية وظل النزاع داخل البيت العربى كما هو نزاع بين أناس يتعين عليهم العيش معا ، وهذا هو ما ساعد صدام على البقاء بعد ما اعتبره معظم العالم هزيمة مخزية . وهكذا حققت مقولة "صدام حسين هو العراق والعراق هو صدام حسين" مصداقية فى العالم العربى ، ولكن هل هى تحظى بالشرعية فى العراق ؟ وهل يستطيع صدام أن يستمر فى طموحاته العربية وفى الأخطاء التى تولدت عن هذه الطموحات ويستمر فى البقاء من الناحية السياسية فى العراق ؟ إن العراق هو البلد العربية الذى أراد له صدام أن يكون كذلك ، ولكنه أيضا بلد الأكراد

والشيعة العرب الذين لايشاطرون صدام التزامه بالعالم العربى ، إنهـم يشـكلون غالبية بلد يحاول الوصول إلى الأمة العربية ، وفى ذات الوقت يبتعـد عنهـا ، ويظل العراق ، كما كان دائما ، واقفاً عند الحافة الشرقية للعالم العربى .

الفصل السابع
ياسر عرفات ..ديك فتح

طوال ربع قرن من الزمن ، ظل ياسر عرفات يمثل أكبر ظاهر للوطنية الفلسطينية . وبممارسة المهارات التفاوضية لتجارة السوق والمناورات السياسية لرتشيليو (السياسى الفرنسى الداهية) استطاع أن يجمع عناصر الشعب الفلسطينى المتنافرة فى سعى شاق لاستعادة فلسطين ، وفى هذا المسعى فإن الفلسطينيين هم المستفيدون من الوحدة العربية الأسطورية ، وكذلك الضحايا للمصالح الفردية للدول العربية . وفى حين ينتزع عرفات التأييد الدبلوماسى والاقتصادى الكافى النابع من النزعة العاطفية التى تثيرها القضية الفلسطينية بين العرب ، والذى يحفظ حياة الحركة الفلسطينية ، فإنه يواجه العديد من الزعماء العرب السابقين والحاليين ، الذين يحاولون القضاء على سيطرة الفلسطينيين على مصيرهم . ومن ثم ، ظل عرفات والدول العربية مشتبكين فى المعركة من أجل السيطرة على القضية الفلسطينية . ونتيجة لذلك أصبح الفلسطينيون الكيان العربى الواحد .

ووفقا للمعايير المستخدمة فى كثير من الأحيان لتحديد الجماعات العرقية ؛ الاشتراك فى عنصر ، ودين ، ولغة ، وثقافة ، ووطن واحد – كان الفلسطينيون قبل عام ١٩٤٨ بمثابة لغز من الألغاز ، فمن الناحية العرقية ، كانوا نتاجا مختلطا لجميع هؤلاء الذين تصارعوا للسيطرة على المشرق العربى طوال قرون عديدة . ومن الناحية الدينية ، كانوا منقسمين بين الإسلام والمسيحية . وبالرغم من أنهم كانوا يتحدثون نفس اللغة ، وينتمون إلى نفس الثقافة ، فقد كان لديهم إحساس ضئيل بأنفسهم كجماعة . وبدلا من ذلك كان كل منهم ينتمى إلى عائلة أو قرية أو قبيلة ، تتصارع مع عائلات وقرى وقبائل أخرى. ولم تكن المدن والقرى ، أو التجار والفلاحون تشترك ، فى مصالح مشتركة ، فيما عدا العلاقات الاقتصادية المحدودة والبسيطة . وحينما ذهبوا إلى المنفى ، كانوا عربا أكثر منهم فلسطينيين. ولجأ الفلسطينيون المشتتون المضطربون إلى الأمة العربية الأوسع نطاقا من أجل استعادة أرضهم التى فقدوها .

وقد لجأ الفلسطينيون الذين لديهم بعض الموارد إلى دول العالم العربى . بعد طردهم من فلسطين . كما لجأ الذين يرغبون فى استكمال تعليمهم من أجل تأمين مستقبلهم إلى الإسكندرية والأقصر ، وإلى القاهرة على وجه الخصوص . وكان ياسر عرفات أحدهم .

وقد ولد ياسر عرفات واسمه الحقيقى محمد عبد الرؤوف عرفات يوم ٢٤ أغسطس ١٩٢٩ . وزعم فى أوقات مختلفة أن مكان ميلاده كان فى القاهرة والقدس . ولأنه حول نفسه من رجل عادى إلى رمز سياسى فهو يرفض الحديث فى تاريخه الشخصى إلا بعبارات مبهمة . غير أنه لا يستطيع أحد إخفاء ماضيه. وانتسابه إلى عائلة الحسين من خلال والدته ، انجذب الشاب ياسر إلى عبد القادر الحسينى ، بطل ثورة ١٩٣٦ ، الشهيرة . وحينما اندلعت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، حمل عرفات البالغ من العمر ثمانية عشر عاما ، وساعد فى تهريب الأسلحة التى كان الفلسطينيون فى أشد الحاجة إليها من مصر إلى فلسطين . وبعد وفاة عبد القادر الحسينى فى إبريل ١٩٤٨ . وانهيار المقاومة الفلسطينية ، هرب عرفات إلى غزة ثم إلى القاهرة حيث التحق بكلية الهندسة ، جامعة القاهرة .

وكان الطلبة الفلسطينيون الذين انضم إليهم عرفات ينتمون إلى جميع التيارات السياسية السائدة فى ذلك الحين ، من الشيوعية إلى الأصولية الإسلامية للإخوان المسلمين ، وكان كل منهم يعتبر نفسه ، سواء أكان شيوعيا أو عضوا فى الإخوان المسلمين أو من أنصار القومية العربية ، جزءا من الأمة العربية . وفى عام ١٩٥٢ ، حينما خاض عرفات انتخابات اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة الفلسطينيين ، طرح فكرة بسيطة للغاية للأعضاء المنتمين للتيارات السياسية المعقدة ، وهى أن للفلسطينيين هويتهم الخاصة المستقلة والمتميزة عن هويتهم كعرب . وكانت تلك بداية ثورة فى الفكر الفلسطينى الذى سيبنى بالتدريج وطنية فلسطينية مميزة تتنازع فى كثير من الأحيان مع الأنظمة السياسية المحيطة بها . وكانت أولى المواجهات مع جمال عبد الناصر .

وحتى وفاته فى عام ١٩٧٠ ، كانت العلاقات بين عبد الناصر والفلسطينيين بزعامة عرفات ، متشابكة فى نسيج من المصالح المتوافقة والمتصارعة . وقد كان كل منهما يحتاج للآخر بشدة ، ومع ذلك كان كل منهما يخشى الآخر بصورة كبيرة . فقد أتاحت القضية الفلسطينية لعبد الناصر الأداة التى يجذب بها مشاعر الجماهير العربية إلى شخصيته . وبالنسبة للفلسطينيين ، كان عبد الناصر بمثابة الوسيلة التى يسعون من خلالها إلى استعادة فلسطين السليبة . وفى الوقت ذاته ، كان عبد الناصر يرغب فى عدم تدفق الفلسطينيين إلى مصر أو ممارسة أنشطة تتعارض مع خططه . وفى حين أن الفلسطينيين كانوا يتلهفون على مؤازرة عبد الناصر ، فإنهم كانوا يعارضون سيطرته . ولذلك اتسمت العلاقات بين الطرفين بالكر والفر والمهادنة والمخاصمة طوال الحقبة التى استولت أثناءها الناصرية على مشاعر شعوب الشرق الأوسط .

وفى عام ١٩٥٥ ، أدت مقتضيات صورة عبد الناصر كبطل للفلسطينيين إلى موافقته على تدريب كوادر من الفدائيين الفلسطينيين للعمل ضد إسرائيل من غزة وشرق سيناء . ثم جاءت حرب السويس عام ١٩٥٦ . وحمل الفلسطينيون راية عبد الناصر للقومية العربية ضد إسرائيل والقوى الاستعمارية الغربية . وحينما انسحبت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، احتفل عبد الناصر والفلسطينيون معا بانتصارهم ، وكان الفلسطينيون يأملون فى أن يقوم عبد الناصر ، بوصفه الرائد الأكبر للقومية العربية ، بإعادتهم إلى فلسطين ، ولكن مستقبل الفلسطينيين لم يكن ليوجد مع عبد الناصر وإنما فى الكويت حيث نشأت منظمة فتح .

وعند نشأتها ، كانت منظمة فتح تبدو مثل بقية تنظيمات المنفى بين الفلسطينيين فى الشتات وكانت معظم تلك الجماعات التى لم تكن تملك سوى الكلام كسلاح لها ، تتحدث عن العودة إلى فلسطين بالجهود للأمة العربية . ولكن فتح كانت تتحدث بنبرة مختلفة ، فقد نحت جانبا الاعتقاد المقدس بأن الأمة العربية تملك مفتاح تحرير فلسطين، ورفعت شعارا جديدا وهو أنه ينبغى على الفلسطينيين تحمل مسئولية مصيرهم . وبكلمات بسيطة تغنى بلحن بسيط ، سلمت فتح للفلسطينيين مستقبلهم : " أنا عربى ، عنوانى فلسطين " .

وفى عام ١٩٥٩ ، أصدرت فتح الوليدة العدد الأول من مجلة " فلسطيننا " التى كان يبلغ عدد صفحاتها ٣٠ صفحة مليئة بالمواد الدعائية وليست البلاغية . كما اتسمت بالنقد المرير حول المأساة الفلسطينية والسخط الشديد تجاه الأنظمة العربية التى أدت رقابتها الشديدة إلى كبت صوت الفلسطينيين السياسى . واكتسبت فتح شهرتها من خلال تلك الصفحات المطبوعة القليلة التى كانت تنتقل من يد إلى أخرى بين اللاجئين ، بالرغم من أنها كانت مجلة هواة ، متواضعة المادة والإمكانيات . فى عدد كان يتصدر صفحاتها رقم صندوق البريد الخاص بها فى مدينة الكويت . فكانت منارة للفلسطينين المشتتين الذين أخذوا يرسلون الخطابات من كافة أنحاء الشتات ، التى تضم أشعارهم وصيحات أشقائهم ومن خلال صندوق بريد عادى ، أعطت فتح للوطنية الفلسطينية عنوانا خاصا بها .

وبحلول عام ١٩٦٤ ، كانت فتح قد طورت هيكلها التنظيمى ، وأقامت بنيتها القيادية . فقد ولدت فتح فى حرارة ورطوبة الخليج . ولكن الكويت كانت بعيدة للغاية عن فلسطين التاريخية وعن المطرودين منها ، وبالرغم من جهود فتح الدائبة فى المخيمات ، فإن التجنيد فى صفوفها كان يتم بصورة بطيئة ، فقد كانت المخيمات فى أوائل حقبة الستينات بمثابة معتقلات لأناس ماتت مشاعرهم . وسواء فى مصر أو الأردن أو لبنان أو سوريا ، كانت العيون الخالية من التعبير تنم عن أناس معلقين بين اليأس من الحاضر وافتقاد الأمل فى المستقبل ، وعبر أجهزة الراديو الصاخبة فى الأكواخ المقامة من كتل الأسمنت التى كانوا يسكنونها، كان اللاجئون يستمعون إلى تعهد جمال عبد الناصر " بعدم التخلى أبدا عن حقوق الشعب الفلسطينى ... إن كرامتهم جزء من كرامة الأمة العربية " .

ولكن خطب عبد الناصر كان عليها أن تعيدهم إلى فلسطين . كذلك كان على فتح بالرغم من رسالتها المثيرة ، إثبات قدرتها على إعادة الفلسطينيين إلى الوطن . ولم تعد الكلمات تكفى . وكان سكان المخيمات ، المورد الرئيسى لأنصار فتح ، يتطلعون إلى ظهور قائد آخر مثل صلاح الدين بطرد المغتصبين من فلسطين . ولذلك كان مستقبل منظمة فتح يعتمد على العمل – وعلى النضال المسلح ضد إسرائيل .

وراقب جمال عبد الناصر باهتمام القوة المتزايدة لمنظمة فتح . وبالرغم من أن هجمات الفدائيين الفلسطينيين ضد إسرائيل سبقت ظهور منظمة فتح بمدة تزيد عن عشر سنوات ، إلا أن الجماعات التى كانت تقوم بها ، كانت مؤقتة وتحظى بالقليل من المساعدات المنظمة ، أو كانت تدين بالفضل لعبد الناصر فيما يتعلق بالتدريب والأسلحة . وكانت منظمة فتح ، التى لم تكن تتلقى مساعدات من مصر ولا تخضع لسيطرتها ، تشكل تهديدا متزايدا لهيمنة عبد الناصر على الفلسطينيين ، وتهدد ببدء جولة أخرى من العنف ضد إسرائيل . وفى يناير عام ١٩٦٤ ، عمل عبد الناصر على تحييد منظمة فتح . وبناء على دعوة منه ، اجتمع فى القاهرة ثلاثة عشر ملكا وأميرا ورئيسا عربيا ، لعقد أول مؤتمر قمة عربى . وبتوجيه من عبد الناصر ، جمعوا معا منظمة فتح وأكثر من أربعين جماعة فدائية فلسطينية أخرى فى منظمة التحرير الفلسطينية .

وفيما بين عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٧ ، تولت منظمة التحرير الفلسطينية أمر القضية الفلسطينية فى ظل سيطرة عبد الناصر . ووقفت فتح عاجزة حيث أن أنصارها انضموا إلى جيش التحرير الفلسطينى وتدفقت المعونات المالية والعسكرية التى نجحت فى الحصول عليها فى الماضى من الدول العربية فى اتجاه منظمة التحرير الفلسطينية . وكان اختيار فتح أن تبدأ حرب عصابات خاصة بها ، أو تفقد باقى قواتها الفدائية .

وفى مساء ٣١ ديسمبر ١٩٦٤ ، شنت وحدة فدائية تابعة لفتح ، تعمل تحت اسم " العاصفة " غارة داخل إسرائيل . بالرغم من ضآلة تأثيرها على إسرائيل كعملية عسكرية ، إلا أنها كانت تكفى لإصدار فتح بيانها العسكرى الأول : " من شعبنا الصامد للنهاية ، ومن وحى ضمير وطننا المقاتل ، ثارت طلائعنا الثورية ، إيمانا بأن الثورة المسلحة هى وسيلة العودة والحرية كى نثبت للاستعماريين وأتباعهم وللصهيونية العالمية ومموليها ، أن الشعب الفلسطينى باق فى الساحة ، ولم يمت ولن يموت " . ولكن الذين حاربوا معركة الفلسطينيين ماتوا بالفعل ، سواء على أيدى الإسرائيلين أو على أيدى الدول العربية المجاورة لحدود إسرائيل.

وعاشت فتح من خلال استغلال التأييد الذى يتمتع به فدائيوها بين الجماهير العربية للاعتماد على الأنظمة العربية فى الحصول على الأموال والأسلحة والأرض التى تشن منها الغارات على إسرائيل . وبالرغم من وجود شبكة معقدة من القضايا والأيديولوجيات والشخصيات فى إطار السياسات العربية المتداخلة ، فقد كانت تلمس بعمق الوتر الحساس لقضية إسرائيل وتحدياتها الاستفزازية للأمة العربية . وبعد أن أخذت فتح فى شن الغارات كل يوم تقريبا داخل إسرائيل فى عام ١٩٦٦ ، أصبح حب الفدائيين بين العرب يطغى على منظمة التحرير الفلسطينية وكل شىء آخر عدا جمال عبد الناصر .

وبحلول عام ١٩٦٧ الحاسم ، أدركت منظمة فتح والجماعات الفدائية الأخرى أن تحرير فلسطين لن يتم من خلالها ، ولكن الجيوش العربية التقليدية التى تساندها الشرعية السياسية للعواصم العربية ، وخاصة القاهرة . وآمنت جميعا بصورة ما وعند نقطة معينة بضرورة خوض العرب لمعركة أخرى مع إسرائيل معركة كانت تعتقد تماما أن العرب سوف يكسبونها . غير أنه حينما جاءت الحرب ، فقد الفلسطينيون ماتبقى من فلسطين ، ورحل ١٠٠,٠٠٠ لاجىء آخر .

وتبددت آلة الحرب التقليدية الغالية التى كان الفلسطينيون يضعون الكثير من الثقة فيها فى خضم انتصار إسرائيل . وتلاشت آمالهم فى استعادة فلسطين والتى ظلت تراودهم طوال عشرين عاما . وأدت الهزيمة المفاجئة إلى تقويض المكانة والزعامة المعنوية للعديد من الأنظمة العربية ، سواء فى القاهرة أو فى عمان أو فى دمشق . ووسط الفراغ الناجم عن اليأس والألم والعار ، برزت منظمة فتح .

ولأنه لم يعد قادرا على ادعاء أن وسيلة تحرير الأرض العربية ، تعتمد على العمل العسكرى التقليدى من جانب الدول العربية المتضامنة ، راح عبد الناصر يرقب المشاعر التى أثارتها خطبة البليغة فى وقت ما وهى تتحول للفدائيين ، ووقف الفدائى، شهيد الصهيونية ، وسط أشلاء عام ١٩٦٧ كرمز للرجولة العربية . وتعاطف الملايين من أرجاء العالم العربى مع الفدائيين ، وتدفق الآلاف للانضمام لصفوفهم .

وتركت صفوة الشباب الفلسطيني جامعاتها للمشاركة فى النضال المسلح ، فى حين سار الشباب العازمون على تحرير فلسطين بالبنادق والقنابل من لبنان إلى قواعد الفدائيين خارج عمان . كما سافر أميران كويتيان للانضمام إلى فتح . ومع تدفق المتطوعين الجدد ، استعدت فتح لشن ما أسمته " الجولة الثانية " من النضال المسلح من أجل استعادة فلسطين . ولعدم إيمانه بشكل جاد بقدرة الفلسطينيين وحدهم على استعادة أراضيهم ، كان عرفات يرى أن الحركة الفدائية هى الوسيلة لتأكيد الهوية الفلسطينية بصورة راسخة بحيث لا تستطيع الأنظمة العربية أو المجتمع الدولى تجاهل المشكلة الفلسطينية .

وقد خلقت العمليات الفدائية التى قامت بها فتح داخل الفلسطينيين – سواء من هم فى المخيمات أو خارجها – شعورا جديدا بالكرامة يتناقض مع النحيب والعويل الذى تبع حرب عام ١٩٤٨ ، وأسفر نجاح فتح فى استعادة الشرف الفلسطينى عن ظهور العديد من التنظيمات شبه الفدائية . ومن الناحية الأيديولوجية ، كان بعضها يسارياً ، والبعض الآخر يمينياً أو دينياً أو علمانياً . وكانت تؤمن بالقومية العربية وبالهوية الفلسطينية بوجه خاص . وكان عدد قليل منها ليس سوى عصابات تبتز الأموال باسم فلسطين . وفى هذا الحشد ، كانت فتح تسيطر على حوالى ٦٠٪ أو ٧٠٪ من الفدائيين .

وبإثارة النزعة الوطنية الفلسطينية الخالصة ، كانت فتح تتحدى هؤلاء القادة السياسين العرب الذين كانوا يسعون إلى احتواء الفلسطينيين فى صفوفهم ، ونتيجة لحماية استقلالها الذاتى واجهت فتح مهمة حساسة تمثلت فى الوقوف خارج نطاق سياسة القومية العربية ، وفى الوقت ذاته حث الدول العربية على توفير التأييد تحتاجه المقاومة من أجل البقاء . ولم تكن فتح تستطيع أساساً التعايش مع الدول وفقا للشروط التى تفرضها تلك الدول ، كذلك لم تكن تستطيع البقاء بدون المساعدات – الإقليمية والمالية – التى تقدمها تلك الدول . وفى هذا النزاع غير المتكافىء ، كان سلاح فتح الرئيسى هو صورتها كسيف للعرب ضد إسرائيل .

وبعد أن أصبح المقاتل الفدائى ومنظمة فتح كيانا واحدا فى الفكـــر الشـــعبى ، وتلاشت ضرورة السرية . وبادرت فتح ، إثر قرار الملك حسين بالسماح لها بـــالعمل علانية ، بنقل مقرها من دمشق إلى عمان . وبمباركة عبد الناصر تولت فتـــح أمـــر البقاء المبعثرة لمنظمة التحرير الفلسطينية . وبضم الجماعات المتنافسة تحت مظلتها ، بدأت منظمة التحرير الفلسطينية العملية التى أتاحت لها فى عـــام ١٩٧٤ أن تصبـــح الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى .

غير أن فتح لم تستطع السيطرة تماما علـــى الحركـــة الفلســـطينية . ذلـــك أن جماعتين تابعتين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، كانتا تعتبران أن العودة إلى فلسطين ما هى إلا جزء من ثورة كاسحة سوف تقلب الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة فى العالم العربى رأسا على عقب .

وكانت كلتاهما ، سواء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أو الجبهة الديمقراطيـــة لتحرير فلسطين ، قد خرجتا من أحد الأحزاب السياسية فى الخمسينات ، وهو حزب الحركة القومية العربية ، الذى كان يؤمن بالقومية العربية ويدعو إلى حل ماركسى – لينينى لعلاج عجز وخمول العالم العربى . وبحلول عام ١٩٦٨ ، اعتنقـــت الجبهـــة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين فلسفة الحركة القوميـــة العربية وأضافت إليها قواتها الفدائية .

وأدى الخلاف الأيديولوجى بين فتح وكل من الجبهة الشعبية لتحرير فلســـطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين إلى المواجهة بين الوطنية الفلسطينية والقوميـــة العربية ، وبين المفاهيم الاقتصادية غير محددة المفاهيم ، وبين عدم التدخل فى شئون الأنظمة العربية أو تخليص العالم العربى من جميع الأنظمة الرجعية العربيـــة ومـــن الناحية التكتيكية ، اختلف المعسكران حول اعتبار فتح أن إسرائيل هى الهدف الوحيد للغارات الفدائية وإعلان اليساريين وخاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلســـطين ، بـــأن الصهيونية كظاهرة عالمية تبرر اعتبار أى جبهة تؤيد إسرائيل هدفا للعمل الفدائى .

وبوفاة عبد الناصر ، ووقوع الملك حسين أسيرا لأجهزتـــه العســكرية طــرد الجيش الأردنى الفلسطينيين من قواعدهم فى جرش وعجلون إلى تلال شمال الأردن، وقام بمحاصرة المواقع الفدائية ومهاجمتها فى نطاق سيطرته ، موقعا إثـــر الآخــر . وأخيرا تم طرد الفدائيين من الأردن .

وقد قضت الهزيمة التى لحقت بهم فى الأردن علـــى الثقــة التـــى اكتســبها الفلسطينيون من الحركة الفدائية . فمن الناحية العسكرية ، كانت تمثل خسارة جسيمة لحركة المقاومة . ولم يعد الفدائيون يأملون كثيرا فى العودة من خلال العمل الفدائى . وأعلن ياسر عرفات رأيه النهائى " نعم لقد عانينا من هزيمة شديدة فى الأردن ، ولكن العملية لم تكن أردنية خالصة . لقد كانت مؤامرة عربية" .

وانسحبت منظمة التحرير الفلسطينية المنهكة ، حاملة معها خلافاتها الداخلية ، إلى لبنان الميدان الوحيد المتبقى من أجل عملياتها . وأقام ياسر عرفات، بعد أن ترك كهوف شمال الأردن ، مقره فى منطقة مزدحمة لا تزيد مساحتها عن ميـــل واحــد مربع، فى حى الفكهانى ببيروت ، بالقرب من مخيمات صابرا وشاتيلا التى يقطنهـــا اللاجئون الفلسطينيون – ومن هناك ، بدأ عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية يبعــث للحياة حكومة فلسطينية . ومن عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٥ ، عاشت منظمة التحرير الفلسطينية " أيام بيروت " – الحقبة البيروتية – الفترة التى أصبح الفلسطينيون أثناءها أقرب ما يكونون إلى إقامة ، ليس فقط عاصمة سياسية خاصة بهم ، ولكـــن أيضـــا مركزا لحياتهم الفكرية والثقافية .

ومثل أى حكومة ، كانت منظمة التحرير الفلسطينية تحتاج إلى عائدات مالية ، وجاءت المساعدات من دول المهجر . ففرضت الكويت على كل فلسطينى يعمل بهـــا أن يدفع ٥٪ من مرتبه الشهرى كانت تقوم بإرسالها لمنظمة التحريـــر الفلســطينية . وقدمت الدول التى بها حكومات ثورية ، مثل ليبيـــا والجزائـــر الأمـــوال. ودفعــت السعودية ، التى تعد أكثر الدول المتبرعة سخاءا ، مبالغ مالية كانت بمثابـــة إجـــراء

وقائى إلى إبعاد المشاكل الفلسطينية إلى خارج حدود المملكة . وكان عرفات ، الذى يتولى الأمور شخصيا ، يدفع رواتب شهرية لأرامل وأطفال " شهداء " الحركة الفلسطينية ، وقام الهلال الأحمر الفلسطينى بتجهيز وفتح عيادات طبية بالمخيمات فى كافة أرجاء لبنان ، وجرى تخصيص الأموال من أجل المنح الدراسية لضمان تعليم عدد كبير من الفلسطينيين . وأنشا " صامد " أحد مشروعات عرفات الصغيرة ، اقتصادا فلسطينيا ، وبحلول عام ١٩٨٢ ، كانت المصانع الصغيرة تنتج سنويا ما قيمته ٤٠ مليون دولار من الأثاث المنزلى، والملابس والأحذية والمواد البلاستيكية ، والبطاطين ، والأزياء المختلفة. ووسط كل هذا النشاط ساد منظمة التحرير الفلسطينية هدوء داخلى ، حيث قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بنقل حربها ضد القوى الرجعية فى الدول العربية إلى النضال ضد الصهيونية .

وبعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، بايعت الدول العربية فى الرباط منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى ، وياسر عرفات بوصفه زعيمها السياسى ، وبعد شهر ، صعد ياسر عرفات وهو يرتدى الزى الكاكى الذى يرتديه الفدائيون منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك . وبعد أن عرض آلام الشعب الفلسطينى بصورة جريئة وهو يلوح بأصبعه فى الهواء ، أعلن فى النهاية التحدى : " لقد جئت اليوم وأنا أحمل فى يدى غصن الزيتون وسلاح المقاتل من أجل الحرية ، فلا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدى " . وأصدرت الأمم المتحدة ، وهى المنظمة التى قامت بتقسيم فلسطين ، قرارا يعترف بالشعب الفلسطينى " كطرف أساسى فى إقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط " . ولم يعد الفلسطينيون لاجئين يعيشون على إحسان الدول العربية المضيفة . ففى ظل منظمة التحرير الفلسطينية ، أصبحوا كيانا سياسيا معترفا به دوليا ، ومؤهلين لتمثيل مصالحهم الذاتية . ولكن تحقيق تلك المصالح جعلت الفلسطينيين فى صراع مع المصالح المتنافسة للدول العربية . وفى عام ١٩٧٥ ساهمت الأنشطة الفلسطينية فى انهيار لبنان .

وقد أثارت الأحداث الجارية فى لبنان غضب الرئيس السورى حافظ الأسـد. وامتد غضبه إلى الحركة الفلسطينية ذاتها ، وخاصة إلى منظمة فتح ورئيسها ياسـر عرفات . وكان سبب اهتمام الأسد بمنطقة فتح مماثلا لسبب اهتمام الـدول العربيـة الأخرى المجاورة لإسرائيل – وهو السيطرة ، وفى المراحل الأولى مـن الصـراع المسلح ، استفادت علاقة فتح بسوريا من الخلافات بين البعـث السـورى ومصـر الناجمة عن انهيار الجمهورية العربية المتحدة . ومن أجل مضايقة عبـد النـاصر ، سمحت سوريا بنقل مقر فتح إلى أحد الشوارع الجانبية المجهولة فى دمشق ، وكانت توفر للفدائيين الملجأ الآمن حينما كانت الأردن أو لبنان تتقلبان عليهم . ولكن سرعان ما تجاهلت فتح القيود التى فرضتها سوريا على العمليات الفدائية ، وفى مايو ١٩٦٦، قرر حافظ الأسد ، وزير الدفاع السورى والنجم الصاعد بين مراكز القوى السـورية فى ذلك الحين ، أن يقمع منظمة فتح ، وأن يفرض السيطرة علـى كوادرهـا وقـام باعتقال ياسر عرفات ومعظم قيادات فتح العسكرية ووضعهم فى زنزانة رطبة بسجن المزة السورى ، وبعد ٥١ يوما وعشر ساعات متتالية من المفاوضات بيـن فـاروق قدومى ممثل فتح فى الكويت وحافظ الأسد ، تم الإفراج عن ياسر عرفات ورفاقه .

وفى عام ١٩٧٠ ، عندما سيطر حافظ الأسد تماما على السـلطة ، تحـددت سياسة سوريا تجاه منظمة التحرير الفلسطينية . فكان الأسد يعتبر الفدائيين مجموعـة من الأفراد غير النظاميين المتنازعيين الذين لا يستطيعون تغيير الميزان العسكرى مع إسرائيل ولكنهم قادرون على إثارة غضب إسرائيل . وكان الأسد يعتبر " حرب فتـح الشعبية " وهما خطرا وإصرارها على الحكم الذاتى الفلسطينى تهديدا تحتمله الـدول العربية المجاورة لإسرائيل . ولذلك فإن الوطنية الفلسطينية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال العمل العربى الموحد الذى يضع فى الاعتبار المصالح السورية إلـى جـانب المصالح الفلسطينية . ومما قاله الأسد " ليس من المنطقى استقلال الفكر الفلسـطينى حينما يتعلق الأمر بالنزاع العربى الإسرائيلى .

ومنذ بداية الحركة الفدائية ، مارست سوريا سيطرتها عليهــا . وزرع حــزب البعث السورى إحدى فصائله ، " الصاعقة " داخل منظمة التحرير الفلسطينية وما زال يمارس سيطرته على قيادة وتدريب أفراد " الصاعقة " ولا تتم أية عمليات فدائية مــن داخل سوريا ، ويعيش الفلسطنيون فى سوريا تحت رقابة نظام الأسد . وأخيرا ، كان ضمن أهداف التدخل السورى فى لبنان عــام ١٩٦٧ احتــواء النزعــة الاســتقلالية الفلسطينية .

وفى الفترة من عام ١٩٧٧ وحتى عام ١٩٧٩ ، لم تكن الحركــة الفلســطينية تشعر بالقبضة السورية فقط ، ولكنها كانت تعانى أيضا من ابتعاد مصر ، ففى خريف عام ١٩٧٧ ، كان أنور السادات فى سبيله لأن يعلن أمام البرلمان المصــــرى عــن قراره الذهاب إلى القدس . وبدون أن يخبر عرفات عن الســـبب ، أرســل طائرتــه الرئاسية لإحضار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية من زيارة رسمية كان يقوم بهـــا لطرابلس ، وكان عرفات يجلس فى قاعة المجلس ، حينما أخبر السادات العالم أجمع بأنه سوف يذهب إلى إسرائيل للاجتماع مع هؤلاء الذين يلومهم الفلسطينيون على كل المعاناة التى يلاقونها ، وخوفا من أن يفسر حضوره بأنه موافق على مبادرة السادات، قفز عرفات من مقعده وخرج مسرعا من القاعة وأسرع بمغادرة مصــــر . وطــوال الشهور الستة عشرة التالية وجد الفلسطينيون أنفسهم بعيدين عن اتفاقيات كامب ديفيد ، وقضيتهم خارج نطاق المعاهدة الثنائية بين مصر وإسرائيل . وانضموا إلـــى جبهــة الرفض التى تزعمها حافظ الأسد ، وإستمروا فى شن هجماتهم على إســـرائيل مــن جنوب لبنان.

ومن فوق تلال جنوب لبنان ، كانت القذائف الصاروخية الفلسطينية تنهال على المستوطنات الإسرائيلية فى الجليل . وبعد أربعة أعوام من الحرب الأهلية ، لم تكــن هناك حكومة لبنانية تستطيع السيطرة على الفدائيين . كذلك لم يستطع الجيــش الــذى أرسله حافظ الأسد إلى لبنان ، ويقدر بحوالى ٢٠,٠٠٠ جندى ، الســيطرة عليهــم . وفى يونيو ١٩٨٢ ، قامت إسرائيل بالتدخل .

ففى منتصف ذكرى حرب الأيام الستة اندفعت الآلة العسكرية الإسرائيلية لتحاصر بيروت التى تقهقر إليها عرفات وذويه ، بينما ظلت الدول العربية تنظر من بعد .

ومع اجتياح الغضب أنحاء بيروت لم يكن أمام عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية سوى الرحيل عن المدينة من أجل إنقاذ السكان المدنيين وإنقاذ أنفسهم. وعملت الولايات المتحدة على مغادرة عرفات ورفاقه بيروت بسلام . وأخذ فليب حبيب الوسيط الأمريكى ، يقوم برحلات مكوكية بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل والحكومة اللبنانية من أجل حل الأزمة المتفاقمة ، وفى النهاية وافقت جميع الأطراف . وفى مقابل الجلاء عن بيروت وتفريق جيشه الفدائى ، حصل الهيكل القيادى لمنظمة التحرير الفلسطينية على سلامته وسلامة أجهزته التنظيمية بعيدا عن لبنان . وأصبح الفلسطينيون الذين ظلوا فى بيروت ، تحت حماية قوة متعددة الجنسيات تضم قوات من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا . وبذلك فإنه فى يوم ٣٠ أغسطس ١٩٨٢ ، غادر ياسر عرفات المدينة التى كان يدير منها الثورة الفلسطينية طوال اثنى عشر عاما .

ومع أن القضية الفلسطينية كانت تتطلب الدبلوماسية ، فإنها كانت تحتاج للقوة العسكرية بصورة أكبر من أجل إزعاج إسرائيل ، وكان على عرفات تلمس طريقة للعودة إلى لبنان من أجل إعادة بناء قاعدة على حدود إسرائيل . ولكن تلك القاعدة أصبحت تحت سيطرة الرئيس السورى حافظ الأسد ، أكبر أعداء عرفات صرامة وخطورة .

وقد دفعت الحرب اللبنانية إلى السطح بصورة لم تحدث من قبل ذلك الصراع الجوهرى بين مطالب الوطنية الفلسطينية ومصالح الدول العربية . ولم تكن لتتحقق إحداهما إلا على حساب الأخرى . وفى لبنان ، كان على الفلسطينيين أن يستجيبوا لياسر عرفات أو لحافظ الأسد ولكن ليس لكليهما .

ومن المثير للسخرية ، أن ثورة داخل فتح ضد قيادة ياسرعرفات هى التى أتاحت الفرصة لحافظ الأسد ليتخلص من عرفات ويسيطر على الفلسطينيين فى لبنان.

ومن خلال إمداد المتمردين بالأسلحة استطاع أن يجذب إلى جانبه منظمتين آخريين تابعتين لمنظمة التحرير الفلسطينية – منظمة " الصاعقة " الخاضعة لسيطرة سوريا ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة ، الراديكالية المتطرفة . ووجد عرفات قضية جوهرية تساعده على مواجهة التحدى، وتجنب الخوض فى الخلافات الداخلية داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية ، وأخذ يركز على حافظ الأسد من الاستقلالية الفلسطينية . وفجأة أصبح الأسد ، وليس عرفات ، هو القضية .

وحافظ عرفات على حرارة الهجوم ضد الأسد الرابض فى دمشق وفى يوليو ، جمع مراسلى الصحافة العالمية فى إحدى حدائق الزيتون بالقرب من قاعدته الجديدة فى مدينة طرابلس بشمال لبنان ، حيث عبر عن حقده قائلا " إن السوريين يسعون إلى دفع المنشقين إلى إقامة منظمة تحرير فلسطينية بديلة ، وهذا أمر لا يصدقه عقل ! فمنظمة التحرير الفلسطينية تم تكوينها بإرادة وتضحيات الشعب الفلسطينى ، ولا يمكن القضاء على مكانتها وقوتها بقرارات تتخذها أية حكومة عربية .

ورفض حافظ الأسد الإذعان للتخويف . وبحلول شهر سبتمبر ، كان قد تحالف مع منظمة " أمل " الشيعية اللبنانية التى كانت تكن العداء لياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وأصبح عرفات محصورا فى طرابلس بين القوات السورية وقوات " أمل " ولجأ عرفات إلى سكان المخيمات الذين ظلوا على الدوام يمثلون أساس تأييده . وراح يثير الروح الوطنية الفلسطينية ضد حافظ الأسد . ومنذ سبتمبر ١٩٨٢ ، أصبحت مدينة طرابلس ، ستالينجراد عرفات الثانية فى فترة لم تتجاوز العام.

وأمر الأسد فى ديسمبر بشن الهجوم النهائى بغرض طرد زعيم منظمة التحرير الفلسطينية إلى البحر ، وفى هذه المرة ، استجابت الدول العربية لنداءات عرفات من داخل مخبئه ، وتفاوضت من أجل إنقاذه فى ٢٢ ديسمبر . وأبحر عرفات للمرة الثانية إلى خارج لبنان على ظهر سفينة يونانية . ولكن هذه المرة توجه مباشرة

إلى القاهرة . وكانت قوة الرمز وليس الرجل ، هى التى أتاحت لعرفات البقاء طـــوال معركة استمرت أربعة أعوام ضد زعامته داخل منظمة التحرير الفلســطينية . وفـــى ٢٦ أبريل ١٩٨٧ ، عقدت منظمة التحرير الفلسطينية مؤتمرها الوحدوى الكبير فـــى مدينة الجزائر ، وفى مقابل رئاسة المنظمة استسلم عرفات للمطالب الراديكالية بـــأن ينسحب من أية مفاوضات مشتركة مع الملك حسين وأن يتراجع عن العلاقة المتنامية مع مصر .

وكانت المفارقة أنه حينما استطاعت منظمة التحرير الفلسطينية توحيد صفوفها، وجدت أن النضال ضد إسرائيل ينتقل من أيديها إلى أيـــدى الفلســطينيين المقيميــن بالأراضى المحتلة . ففى ديسمبر ١٩٨٧ ، راح الفلسطينيون فى غزة والضفة الغربية يلتقطون الأحجار من تراب فلسطين ويقذفون بهـــا قـــوات الاحتـــلال . وأكـــدت " الانتفاضة " ضد القمع الإسرائيلى الهوية والثقافة الفلسطينية وكذلك التمرد على قيـــود السياسة العربية ، وأعلن الفلسطينيون بأعمالهم فى مدن نابلس ، ورام الله ، والخليل ، وغزة ، وفى مخيمات قلندية ، وبلاطة ، وخان يونس ، أنهم عازمون على قيام دولة فلسطينية . وبين يوم وليلة ، أصبح " أطفال الحجارة" الفدائيين الجدد الذين يقفون أمام قوة إسرائيل . وأدرك حافظ الأسد أن قوة جديدة انبعثت فى العالم العربـــى ، ورفـــع حصاره عن المخيمات الفلسطينية فى لبنان . وتعبر الانتفاضة عن الشعور بالوطنيـــة الفلسطينية أكثر مما تعبر عن قوتها، وبالرغم من أن الفلسطينيين يستطيعون فـــرض الثمن على إسرائيل ، فإنهم لا يستيعون الفوز إلا إذا قرر الإسرائيليون إجراء تسوية . بيد أن بتأكيد الشرف الفلسطينى ، أتاحت الانتفاضة لياسر عرفات القوة الكافيـــة إزاء الراديكاليين داخل منظمة التحرير الفلسطينية كى يتناسوا " العودة " غـــير المســتقرة ويقبلوا الاعتراف بدولة إسرائيل كخطوة أول للحل الذى يقوم على وجـــود دولتيــن ويؤدى إلى قيام الدولة الفلسطينية المنشودة فى الضفة الغربية وغزة .

وفى داخل العالم العربى ، فتحت الانتفاضة خزائن الدول العربية الأكثر ثراء .

ذلك أن الانتفاضة لم تكن تطالب فقط بالحقوق الفلسطينية وإنما كانت تخاطب أيضا الكبرياء العربى . وفى ذلك الوقت ، كانت النزعة الأسطورية على الواقعية ، الأمر الذى كان يوحد جميع العرب ضد شرور الصهيونية والانتهاكات الغربية . ومع ذلك كان العالم العربى أقل توحدا من أى وقت مضى. ففى ظل ظروف كانت تزداد فيها الهويات والمصالح الوطنية فى كل سنة تفصل الدول عن ماضيها الاستعمارى ، كانت القضية الفلسطينية مصدراً للإلهام . وكان الرجل ، بكوفيته ، وبزيه العسكرى ، الذى كان دائم المطالبة بالأموال العربية من أجل ما كان معظم الزعماء العرب يعتبرونها منظمة متهورة ترفض الخضوع لسيطرة الدول العربية القائمة ، مصدر ضيق للذين سئموا الاستماع للحديث عن واجبهم المقدس تجه القضية الفلسطينية .

وحينما قام صدام حسين بغزو الكويت ، وضع الدول العربية ضد بعضها البعض حول قضية تتعلق بشيء آخر غير التعامل مع إسرائيل ، وكان الهدف الأساسى لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٨ ، هو منع أى دولة عربية من الاتفاق مع إسرائيل بدون اشتراك فلسطين أو دعم مصالحهم ، وأدت مغازلات الملك حسين مع إسرائيل ، واتفاقيات كامب ديفيد – إلى وقوف الفلسطنيين بقوة ضد بعض الأنظمة العربية المعنية ، وكان ذلك متوقعا ومقبولا فى عالم تستغرقه مهانة حرب عام ١٩٤٨ . ولذلك كان مأمونا من الناحية السياسية . ولكن ذلك الترف تلاشى حينما ابتلع صدام حسين الكويت . وكان على ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية الاختيار بين عدوان صدام حسين وبين معظم بقية العالم العربى ، وقد اختار صدام حسين .

وكانت الأسباب بسيطة ، كما كانت معقدة . وعلى المستوى البسيط ، فقد تبع عرفات شعبه . وكما ذكر أحد الدبلوماسين العرب أثناء الأزمة " نحن نقول فى اللغة العربية أن العالم ينقسم إلى ديوك ودجاج " ويشعر صدام حسين ، ويوافق الكثير من العرب بأنه من الأفضل أن تكون ديكا لمدة يوم واحد على أن تكون دجاجة لمدة عام. وهو أول ديك عربى منذ وقت طويل " .

وفى الواقع كان صدام حسين ، المغرور أفضل ديك رآه العرب ، وكان يوجه صياحه ضد إسرائيل . وفى الضفة الغربية ، وغزة ، والأردن سمع الفلسطينيون صياحه وكما قال أحدهم " نحن الفلسطينيين " مثل المرء الذى يغرق، نبحث عن أى شيء يساعد على إنقاذنا ، وربما كان ذلك سبب اعتقاد البعض بأن صدام هو المنقذ الكبير .

وعلى المستوى المعقد ، جاء قرار عرفات بالوقوف إلى جانب العراق بناء على احتياجاته السياسية ، فقد كان صدام حسين يمثل ثقلا موازنا لحافظ الأسد تاريخيا وسياسيا وجغرافيا . وكان الرئيس العراقى ، قد ساند عرفات أثناء معركته للاحتفاظ بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٨٠ وجعل بغداد مقرا لجهاز عرفات العسكرى حينما اضطر للرحيل من طرابلس فى عام ١٩٨٣.

وبعد ساعات من الغزو ، ذهب عرفات إلى بغداد لمعانقة فاتح الكويت . ومن المثير للسخرية أن الكويت كانت البلد التى شهدت تشكيل الوطنية الفلسطينية وأتاحت الثراء للفلسطنيين أكثر من أى بلد آخر ، كما كانت الكويت أول مكان يدفع الفلسطينيون ثمن قرارهم بمساندة " حاكم بغداد " .

وأصبح ٣٠٠,٠٠٠ من الفلسطنيين المقيمين بالكويت موصمين بأنهم متواطئون، ووجد الفلسطينيون – الذين عاشوا طوال حياتهم فى الكويت وقدموا جهدا ملموسا فى تنمية الكويت – وظائفهم وتصاريح إقامتهم تتبخر مع عودة الحكومة ، ولكن لم يعان الفلسطينيون فى الكويت وحدهم من العقاب العربى ، فقد قامت المملكة العربية السعودية وإمارات الخليج بإلغاء عقود عمل الفلسطنيين، والتى تمثل عائدا سنويا يبلغ ١٢٠ مليون دولار كانت تدعم اقتصاد الضفة الغربية وتوقفت المعونات للانتفاضة ، مما أدى إلى الإضرار بأنشطة المستشفيات والجامعات والمؤسسات الخيرية والاجتماعية التى تخدم الفلسطينيين المشاركين فى الانتفاضة ، وعانت الأردن بسبب تواطئها مع صدام من إجراءات مماثلة . وأخيرا ، أصبحت منظمة التحرير

الفلسطينية ذاتها مهددة من الذين لم يعودوا يريدون مساعدتها ، فقد أوقفت المملكة العربية السعودية أكثر الدول عونا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، الإعانة الشهرية التى كانت تمنحها للمنظمة ، وتبلغ ٦ ملايين دولار ، توفر لها الحياة ، وسادت الانتفاضات المريرة فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها بسبب أفعالها . فقد اقترف عرفات والمنظمة أكبر خطأ عصيب طوال تاريخ الحركة المضطرب بدفع جموع الفلسطينيين إلى جانب الطرف الخاسر فى أحد الصراعات العربية الدموية الحاسمة ، وإذا كانت الانتفاضة قد خلصت منظمة التحرير الفلسطينية من أسر السياسات القومية العربية فإن تأييدها للعراق قذف بها مرة أخرى إلى حلبة الصراع ، ولم يعد عرفات يستطيع الزعم مرة أخرى بأن الصراع من أجل فلسطين ، " فلسطينى فى مظهره ، عربى فى جوهره " .

ولم تصدر أية كلمة من الدول العربية حينما أرسل حافظ الأسد الجيش اللبنانى لتدمير آخر معاقل منظمة التحرير الفلسطينية فى جنوب لبنان . كذلك لم يعارض معظم الزعماء العرب الرأى القائل بأن الوقت قد حان كى يترك ياسر عرفات قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

وكان موقف عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية فى غاية الضعف حتى أنه حينما انعقد مؤتمر سلام الشرق الأوسط فى مدريد فى ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ ، حضره الفلسطينيون ضمن وفد فلسطينى أردنى مشترك ، مما يعنى تجاهل إعلان الرباط الصادر عام ١٩٧٤ ، الذى اعترف بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للفلسطنيين .

وقد استطاع عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية لبعض الوقت تحمل رفض الدول العربية ، ولكن ما لم يستطيعا احتماله ، هو الانقسام فى صفوف المنظمة . وفى ١٩٩١ ، بدأت الحركة الفلسطينية ، القوة الموحدة الكثيرة للفلسطينيين ، تتصدع .

وبالرغم من أن الوفد الفلسطينى المشارك فى مؤتمر مدريد كان باسم منظمة التحرير الفلسطينية ، فإنه كان يمثل الفلسطينيين من سكان الضفة الغربية وغزة ، وليس الفلسطينيين المقيمن فى الشتات .

وكانت التسوية السياسية للأراضى المحتلة تهدد بترك مشكلة اللاجئين ، وكان اللاجئون هم الذين يدعمون منظمة التحرير الفلسطينية سياسيا وعسكريا طوال خمسة وعشرين عاما ، كما كانوا هم الذين عانوا من الحرب الأهلية الأردنية ، وتحملوا حصار بيروت ، وقاسوا الأمرين فى تل الزعتر ، وصابرا ، وشاتيلا ، وبرج البراجنة ، ولكن الانقسام داخل الحركة الفلسطينية لم يعد بين الفلسطينيين المقيمين داخل فلسطين التاريخية والمقيمين خارجها فقط ، فقد أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية تواجه داخل الأراضى المحتلة ، وخاصة فى غزة ، حركة " حماس " الإسلامية التى يرفض أعضاؤها كلا من القومية العربية والوطنية الفلسطينية ، ويبحثون عن الهوية والأمن فى الإسلام .

وقد أصبح ياسر عرفات فى خريف عمره بعد أن تجاوز الستين ، وبالرغم من حبه لذاته ومكانته ، فإن عرفات يحافظ على سيطرته على نفسه . وباسم فلسطين ، يرعى بيروقراطية غير عملية . ولأنه لا يستطيع تنظيم وقته ، فإنه يبذل جهودا هائلة فى أمور لا تأتى إلا بعوائد قليلة للغاية . وسعيا منه لجعل منظمة التحرير الفلسطينية كل شىء لجميع الفصائل ، فإن عرفات يحاول فى كثير من الأحيان ترضية أقلها شأنا، مما يجعل المتشددين يتخذون التوصيات السياسية المتعلقة بالقرارات المصيرية ، والأهم من كل شىء أن عرفات فشل فى إعداد خليفة له .

ومع ذلك فإن ياسر عرفات ، أكثر من أى شخص آخر ، هو المسئول عن قيام ورعاية الوطنية الفلسطينية المميزة . فقد جمع شعبا ممزقا مهزوما ، وأعطاه الهوية ، وزرع فى داخله الشعور بالكبرياء الراسخ ، وطوال سنوات اتسمت بالمناورات المستمرة ، وقف أمام الرئيس المصرى جمال عبد الناصر ، والملك حسين ملك الأردن ، والرئيس السورى حافظ الأسد ، وأى زعيم عربى آخر حاول أن يسيطر على مصير الفلسطينيين ، وكذلك رفض السماح لإسرائيل والولايات المتحدة وباقى دول الكتلة الغربية بأن يعتبروا الفلسطينيين مجرد مواطنين عربا ، ولذلك كانت القضية الفلسطينية ، وسوف تظل ، القضية الرئيسية للعالم العربى . وهذا ما يجعلها نموذجا رئيسيا للشعور بالوحدة وحقيقة المصالح المحددة التى تعذب العالم العربى .

فهرس الموضوعات

الملفات السرية للحكام العرب

يتضمن هذا الكتاب دراسة شخصية للحكام والزعماء العرب والأسرار الخفية وطريقة حكمهم للعالم العربى وحياتهم الخاصة، والتى تنشر لأول مرة، ويعتبر هذا الكتاب التى صدرت عنهم حتى الآن، ويبدأ الكتاب بعبد الناصر وعلاقته بالإخوان المسلمين واتجاهه للمعسكر الإشتراكى وتدخله فى شئون البلاد العربية، وحقيقة الخلاف مع آل سعود حيث أدى ذلك إلى حرب اليمن، وعن السادات الداهية السياسى الذى قاد الحرب والسلام، والأسرار الحقيقية وراء تقوية التيار الإسلامى للقضاء على الشيوعية وكيفية الإنقلاب الدينى عليه، والملك حسين والخيانة الهاشمية الكبرى، وآل سعود وسيطرتهم على الشعب بالعاطفة الدينية، وصدام حسين المتعطش للدماء الذى ورط العراق فى الحرب الإيرانية وحرب الخليج فاستنفذ قوته العسكرية وأدى ببلده والمسلمين إلى سيطرة أمريكا على منطقة الشرق الأوسط، وحا
الأسد وغطرسة السلطة، وياسر عرفات وأوهام السـ

الدار العالمية للكتب والنشر
القاهرة